الأمانة العامة المقدسة

شعبة البحوث والدراسات

هناك إلــــه

كيـف غَـيّرَ أشـهر ملحــد رأيه؟

تأليف: أنتوني فلو

ترجمة: الدكتور صلاح الفضلي

مراجعة وتدقيق

الدكتور الشيخ مرتضى فرج

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

قسم الشؤون الدينية

شعبة البحوث والدراسات

فلو، أنتوني، 2025- - مؤلف.

هناك إله - كيف غيّر أشهر مُلحد رأيه؟ / تأليف أنتوني فلو.

ترجمة الدكتور صلاح الفضلي

مراجعة وتعليق الدكتور الشيخ مرتضى فرج

الطبعة الثالثة. كربلاء، العراق: العتبة الحسينية المقدسة، قسم الشؤون الدينية، 2025 / 1446 للهجرة.

313 صفحة؛ 24 سم. (العتبة الحسينية المقدسة؛ 1555)، (قسم الشؤون الدينية؛).

BP79.F32 F38 2025

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة.

التصميم والاخراج الفني: محمد صاحب المعمار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المترجم:

أهميَّةُ هذا الكتاب تأتي بالدَّرجةِ الأُولىٰ من جهةِ مُؤلِّفِه. فكما يُشيرُ عنوانُ الكتاب الفَرْعى (كيف غَيَّرَ أشهر مُلْحد رأيه؟)، فإنَّ المؤلِّف (أنْتوني فلو) كان واحداً من أكبرِ الملاحدة في العصْر الحالي. وبالتالي فإنَّ تجربةَ (فلو) التى استمرَّت أكثر من خمسين سنة في الإلحاد، وكتابتَهُ العديدَ من الكُتُب التى تُؤيِّدُ الموقف الإلحادي، وخوضَهُ العديد من المناظرات التى تُدافع عن الإلحاد، ثمَّ تحوُّلَهُ بعد كلِّ هذه السِّنين إلىٰ الإيمانِ بالله، لا بدَّ أنَّه يُضيفُ مصداقيةً كبيرةً لما سيقولُهُ في هذا الكتاب.

وُلِدَ الفيلسوفُ البريطاني (أنتوني ريتشارد فلو) في فبراير من عام (١٩٢٣م)، وهو ينتمى إلىٰ تيّارِ الفلْسفة التَّحليلية[١]، واشتُهرَ بكتاباته فلْسفةِ الأديان. وقد قامَ بتأليفِ أكثر من (٣٠) كتاباً، أغلبُها يحاولُ دحضَ فكرة الدِّين، واشتُهرَ عنه مقولتُهُ: (إنَّ علىٰ المرءِ أنْ يظلَّ مُلْحداً حتَّىٰ يجِدَ الدَّليلَ التَّجريبي علىٰ وجودِ الإله).

(١) وهي فلسفة راجت في الغرب في القرن العشرين، خصوصاً في إنجلترا، وهي تهتمُّ بإرجاع الفلسفة إلىٰ اللغة، وتحليل التراكيب اللغوية لاستكشاف عالم الواقع، بوصفها حاكية عنه. من أبرز رموز هذه الفلسفة برتراند رسل (١٩٧٠م). ثمّ ظهرت من هذه الفلسفة مدارس متعدِّدة، منها: الوضعية المنطقية، التي كان من أبرز أعلامها رودلف كارناب (١٩٧٠م). هذه المدرسة – التي اندثرت تقريباً – كانت لا تؤمن بما وراء الطبيعة (كالإله مثلاً)، وترىٰ أنَّ أيَّ جملةٍ تتحدَّثُ عن موضوعٍ ينتمي إلىٰ ما وراء الطبيعة، إنَّما هي جملةٌ لا معنىٰ لها أصلاً، لأنَّها لا تشيرُ إلىٰ واقع. (المراجع).

غير أنَّه في أواخر حياتِهِ غيَّر قناعاتَهُ، وفي عام (٢٠٠٤م)، خلال مناظرة فلْسفية، أعلَنَ عن تحوُّلِهِ إلىٰ الإيمانِ بالإلهِ وتخلِّيهِ عن الإلحاد. وقامَ بتأليفِ كتاب نسَخَ فيه كلَّ كُتُبِهِ السَّابقة، وهو الكتابُ الذي بين يدينا.

علىٰ إثرِ إعلانِهِ عن تحوُّلِهِ إلىٰ الإيمان بالإله، تعرَّضَ (فلو) لحملةِ تشهيرٍ ضخمةٍ من المواقع الإلحادية في العالَم، وذلك لأنَّه ولخمسينَ عاماً كان يُعتَبرُ من أهمِّ مُنظِّري الإلحاد في العالَم، وقد شكَّلَ خبَرُ تحوُّلِهِ إلىٰ الفكرِ الإيماني صدمةً قويَّةً في وسطِ الفكر الإلحادي في العالَم. تُوفِّي الفيلسوف أنتوني فلو عام (٢٠١٠م)، عن عمرٍ ناهزَ السَّابعةَ والثَّمانين.

وها أنا أعرِضُ لكم هذا الكتاب بنُسْختِهِ المترجمة، علىٰ أملِ أنْ يكون هذا الجهدُ مفيداً لشبابنا الحائر، الذي تتعرَّض معتقداتُهُ الدِّينية الأساسية للتَّزلزُل، بسبب ضعْف مناعتِهِ الفكرية، وبُنيتِهِ العقائدية، الأمر الذي ينتهي بأبسَطِ هجوم فكريٍّ إلىٰ خلْخلةٍ في تفكيرِهِ، وهو ما يقودُ في العديدِ من الحالات إلىٰ الوقوع في مستنقع الضَّياع الفكري القاتل، نتيجةً لسيل الشُّبهات التى تغزو عقلَهُ من اتِّجاهاتٍ عدَّة، دون أنْ يكون لديه مصدَّات تمنع عنه غائلةَ هذه الشُّبهات.

أجد لزاماً عليَّ أن أتقدَّم بالشكر الجزيل للدكتور الفاضل والصديق الصدوق الشيخ مرتضىٰ فرج علىٰ مراجعته الدقيقة لترجمة الكتاب، وحرصه علىٰ ألَّا تفوته شاردة ولا واردة.

* * *

هناك إله
كيف غيّر أشهر مُلحِد رأيه؟

مقدّمة المؤلّف:

منذُ أنْ أعلنتُ عن (تحوُّلي) إلىٰ الأُلوهية، طُلِبَ منّي في مناسباتٍ كثيرةٍ جدًّاً بيانُ أسباب تغيير وجهة نظري. أشرْتُ في عدَّةِ مقالاتٍ متتابعةٍ وكذلك في مقدِّمةِ طبعة عام (٢٠٠٥م) من كتابي (الإله والفلسفة God and Philosophy)، إلىٰ الأعمالِ الحديثة المتعلِّقة بالنِّقاشِ حول (الإله)، لكنَّني لم أُبيِّن وجهةَ نظري في ذلك. أمَّا الآن فقد انتهيتُ إلىٰ القناعةِ بأنْ أعرِضَ ما يمكن تسميَتُهُ وصيَّتي وشهادتي الأخيرة. باختصار، وكما يدُلُّ عنوانُ الكتاب، أنا أعتقدُ الآن بأنَّ هناك إلهاً.

عنوانُ الكتابُ الفرْعي (كيف غَيَّرَ أشهر مُلْحِد رأيَهُ؟)[1] لم يكن من اختياري. لكنَّني مع ذلك سعيدٌ بتوظيفِهِ باعتبارِهِ من العناوين الجذَّابة. لقد قامَ أبي اللاهوتي[2] في إحدىٰ المرَّات، بتحريرِ مجموعة من مقالاتِهِ ومقالات بعض تلامذتِهِ السَّابقين، وضمَّنها كتاباً جدليّاً وعنْوَنَ هذا الكتاب بعنوانٍ متناقضٍ، لكنَّه مناسبٌ وهو (كاثوليكية البروستانتية)[3]. وسيراً علىٰ النَّمطِ نفسِهِ في طريقةِ العرْض، قمْتُ بنشرِ

---

(١) (How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind).

(٢) المقصود بـ(اللاهوت): علم الكلام المسيحي. (المراجع).

(٣) (The Catholicity of Protestantism).

أبحـاثٍ بعنـاوين مشـابهة مثـل: (القيـامُ بـأعمالٍ خـيِّرة لـيس خـيراً)، و(هـل رهانُ باسكال Pascal's Wager هو وحدهُ الرَّهانُ الآمِن؟)(١).

في البدايـةِ لا بـدَّ أنْ أكـونَ واضـحاً. عنـدما انتشــرت أخبـارُ تحـوُّلي في وسائلِ الإعـلام وعـلىٰ شـبكة الإنترنـت، سـارَعَ بعـضُ المُعلِّقـين إلىٰ الادِّعـاءِ بأنَّ تقدُّمي في العمر أثَّرَ فِي (تحوُّلي). لقـد قيـل: إنَّ الخـوفَ هـيمَنَ عـلىٰ عقـلي بقوَّة، وقد انتهىٰ هـؤلاء المنتقـدون إلىٰ أنَّ توقُّعـات الـدُّخول إلىٰ عـالَمِ مـا بعـدَ المـوت حفَّـزَت لـديَّ (تحـوُّل فـراش المـوت Deathbed conversion)(٢). مـن الواضـحِ أنَّ هــؤلاء الأشــخاص لم يكونــوا مطَّلعــين عــلىٰ كتابــاتي عــن اللاوجود بعد الموت، وهم ليسـوا مطَّلعـين كـذلك عـلىٰ آرائـي الحاليـة حـول هذا الموضوع.

عـلىٰ مـدىٰ أكثـر مـن خمسـين سـنة لم أُنكِـر وجـودَ إلـهٍ فحسْـب، بـل أنكرتُ أيضاً وجـودَ حيـاةٍ بعـد المـوت. ومحـاضراتي التـي نُشِـرَت في كتـابِ (منطـقُ الفنـاء) تُمثِّـلُ ذروة هــذا المـنهج مــن التفكـير. فهــذا مجـالٌ مـن المجالاتِ التي لم أُغـيِّر وجهـةَ نظـري فيهـا. وقـد كـان ذلـك واضـحاً في هـذا الكتـاب مـن خـلالِ مسـاهمة رايـت (N. T. Wright's) في الملْحـقِ الثـاني. أودُّ أنْ أضَعَ حدَّاً لجميعِ هذه الشَّائعات التي وضعتني في رهانِ باسكال(٣).

---

(١) رهــان باســكال: حُجَّــةٌ مبنيَّــةٌ عــلىٰ نظريــةِ الاحــتمالات ونظريــة القــرار، وتُســتَخدمُ للاحتجاجِ بضــرورةِ اتِّخاذ قـرار بشـأنِ الإيـمان بـالله، علىٰ الـرَّغمِ مـن عـدمِ إمكانيـة إثبـات وجوده أو عدم وجوده عقلياً. بليز باسكال هو من صاغَ الحُجَّة.

(٢) تعبير إنجليزي عن ظاهرة اعتناق معتقدات إيمانية لدىٰ بعض الناس قبل موتهم بقليل.

(٣) يقصد (فلو) أنَّه باتَ بكـلِّ تأكيـدٍ يـؤمنُ بـالله، لكـن لم يحسـم أمـرَهُ بعـد بشـأنِ الإيـمان بحيـاةٍ بعـد المـوت (القيامـة والجـزاء الأُخـروي)، لـذا لا يمكـن وضـعُهُ ضـمن المتـأثِّرين ببرهـانِ باسكال القائم علىٰ الإيمانِ بجزاءٍ أُخروي. (المراجع).

أيضاً لا بدَّ أنْ أُشيرَ إلىٰ أنَّ هذه ليست هي المرَّة الأُولىٰ التي (أُغيِّر فيها وجهةَ نظري) في موضوعٍ رئيسي. قد يندهشُ القُرَّاءُ المُلِمُّونَ بدفاعي المستميت عن الأسواقِ الحُرَّة إذا ما علموا أنِّي كنْتُ ماركسياً (لمزيدٍ من التَّفصيل، أُنْظُر الفَصْل الثاني من هذا الكتاب). وقبلَ عقدينِ من الزَّمن، تراجعتُ عن قناعاتي السَّابقة بأنَّ اختيارات الإنسان محكومةٌ بنحوٍ شاملٍ بواسطةِ أسبابٍ مادّية[1].

بما أنَّ هذا الكتاب يتكلَّمُ عن سببِ تغيير وجهة نظري بخصوصِ وجود الإله، فإنَّ السُّؤالَ الواضح سوف يكون: بماذا كنتُ أعتقد قبلَ (التَّغيير)؟ ولماذا؟ الفصولُ الثلاثةُ الأُولىٰ من الكتابِ تستهدفُ الإجابةَ عن هذا السُّؤال، والفصولُ السَّبعةُ الأخيرة تصفُ اكتشافي للمُقدَّس (الإله). وعند تهيئةِ الفصول السَّبعة الأخيرة، لا بدَّ أنْ أعترف بأنِّي استفدْتُ كثيراً من النِّقاشِ مع البروفيسور ريتشارد سوينبيرن (Richard Swinburne)[2] والبروفيسور برايان ليفتو (Brian Leftow) أُستاذ كرسي نولوث[3] السَّابق والحالي في جامعةِ أكسفورد.

هناك مُلْحقانِ مُضافانِ للكتاب:

المُلْحقُ الأوَّل هو تحليلٌ لما يُطلَق عليه اسم (الإلحادُ الجديد لـ

---

(١) يقصد المؤلِّف أنَّه تراجع عن القول بأنَّ الإنسانَ مجبَرٌ ومحكومٌ بالأسباب المادّية، وصار يميلُ للإيمانِ بإرادةِ الإنسان الحرَّة. (المراجع).

(٢) فيلسوف إنجليزي، يُعتَبر من أشهر فلاسفة الدين المسيحي الأحياء، وُلِدَ سنة (١٩٣٤م)، وله مؤلَّفات عديدة. له بصمة واضحة في الدفاع عن الإيمان بالله في العالم الغربي. (المراجع).

(٣) (Chair Nolloth) كرسي خاصٌّ في جامعة أكسفورد يتعلَّق بالدراسات المسيحية، تأسَّس سنة (١٩٢٠م)، تعاقب عليه أربعة أساتذة، الأخيرين منهما هما: سوينبيرن (الذي تقاعد في ٢٠٠٢م)، ثمَّ ليفتو. (المراجع).

ريتشارد دوكينز Richard Dawkins وآخرين)[١]، كتبَهُ روي أبرهام فارجيز (Roy Abraham Varghese).

أمَّا المُلْحقُ الثاني فهو نقاشٌ مفتوحٌ - بالغُ الأهمّية للمؤمنين بالدِّين - حول ما إذا كان هناك أيُّ نحوٍ من أنحاءِ الوحي الإلهي في التاريخِ البشري، مع تركيزٍ خاصٍّ علىٰ الادِّعاءِ المُتعلِّق بمسيحِ الناصرة (Jesus of Nazareth).

وللمهتمّين بالاطِّلاعِ علىٰ المزيدِ في هذا الموضوع، فإنَّ الباحثَ المتخصِّص في العهدِ الجديد رايت (N. T. Wright)، وهو أسقُف دَرَام (Durham) الحالي، تفضَّلَ بتزويدِنا بتقييمٍ لبُنْية الحقيقة التاريخية التي يقومُ عليها الإيمانُ المسيحي بالسيِّد المسيح[٢].

وفي الحقيقةِ يجبُ أنْ أقول: إنَّ الأُسْقُفَ (رايت) قدَّمَ حسَب اطِّلاعي أفضلَ عرْضٍ للقبولِ بالاعتقادِ المسيحي في هذا الشَّأن[٣].

لعلَّ من المناسبِ أنْ أذكُرَ شيئاً عن (شُهرتي) كمُلْحد، وهو ما يُشيرُ إليه العنوانُ الفَرْعي للكتاب. لقد كانت أولىٰ أعمالي المُعارِضة للأُلوهية في عام (١٩٥٠م)، عبرَ الورقة البحثية (اللاهوت والتكذيب Theology and Falsification).

وقد أُعيدَ طبْعُ هذه الورقة البحثية في كتاب (مقالاتٌ جديدةٌ في اللاهوتِ الفلْسفي New Essays in Philosophical Theology / ١٩٥٥م)، وهي مقتطفاتٌ قمتُ بتحريرِها بالاشتراكِ مع السدير ماكلانتير (Alasadair McClntyre).

---

(١) (new atheism of Richard Dawkins and others).

(٢) أي تقييم للمعلومات والمعطيات التاريخية التي تؤكِّد علىٰ أنَّ المسيح حقيقة، وليست شخصية مختلقة. (المراجع).

(٣) سأُصرِّح بتقييمي لهذا العرْض وأُعلِّق عليه عندما أصل إليه، فانتظر. (المراجع).

لقد كان كتابُ (مقالاتٌ جديدةٌ في اللاهوتِ الفلْسفي) محاولة لقياسِ التأثير علىٰ الموضوعات الإلهية التي سُمِّيت فيما بعد (ثورة في الفلسفة revolution in phiosophy).

الإسهامُ الثَّاني المهمّ كان كتاب (الإله والفَلْسفة God and Philosophy)، وقد نُشِرَ لأوَّلِ مرَّة عام (١٩٦٦م)، وأُعيدَ نشرُهُ في الأعوام (١٩٧٥، ١٩٨٤، ٢٠٠٥م). وفي مقدِّمةِ طبعة عام (٢٠٠٥م)، كَتَبَ بول كيرتز (Paul Kurtz)، وهو أحد أكبر الملاحدة في عصرِنا الحالي وهو أيضاً مؤلِّف كتاب (البيان الإنساني الثاني Humanist Manifesto II): (إنَّ دارَ النَّشْر يسُرُّها أنْ تُقدِّمَ ما أصبحَ يُعرَفُ بفلْسفةِ الدِّين التقليدية).

وتبعَ نَشْر كتاب (الإله والفلسفة) نَشْرُ كتاب (فرضيَّةُ الإلحاد The Presumption of Atheism) عام (١٩٧٦م)، والذي طُبِعَ بعنوان: (الإله، الحرّية، والخُلُود God, Freedom and Immortality). وكان ذلك في الولاياتِ المتَّحدة الأمريكية في عام (١٩٨٤م).

أمَّا بقيَّةُ المؤلَّفات المتعلِّقة بالموضوع فهي:

(فلسفة هيوم في الاعتقادِ والمنطقِ واللُّغة hume's Philosophy of Belief and logic and language)، و(مَدْخلٌ إلىٰ الفلسفةِ الغربية: أفكار وحُجَجٌ من أفلاطون إلىٰ سارتر والتطوُّر الدَّاروِني An Introduction to Western Philosophy)، و(منطقُ الفناء Logic of Mortality).

في الحقيقةِ، إنَّه لمن المفارقات أنَّ أوَّلَ حُجَّةٍ منشورةٍ في تأييدِ الإلحاد قُدِّمت لأوَّلِ مرَّةٍ في ندوةٍ بالنادي السُّقراطي، رأَسَها أعظم مدافع عن المسيحيةِ في القَرْن الأخير، سي. إس. لويس (C. S. Lewis)[1]. والمفارقةُ الثانية هي حقيقة أنَّ والدي

(١) سي. إس. لويس (١٨٩٨ – ١٩٦٣م)، هو أحد أبرز أعلام الإيمان بالله، أديبٌ إيرلندي المولد، بريطاني النشأة، أحد أشهر عمالقة الفكر في القَرْن العشرين. عمل مدرِّساً للأدب الإنكليزي ⇦

كان أحد قادة التَّبْشير في إنكلترا. ويُضافُ إلىٰ ذلك، أنَّني في بدايةِ حياتي المهنية لم يكن لديَّ اهتمامٌ خاصٌّ بأنْ أُصبحَ فيلسوفاً محترفاً.

بما أنَّ جميعَ الأشياء الحسنة - إذا لم تكن جميع الأشياء دون استثناء - لا بدَّ أنْ تصِلَ إلىٰ نهايةٍ، فإنَّني سوف أُنهي كلمات المقدِّمة هنا. سأتركُ للقُرَّاءِ أنْ يُقرِّروا ما يفعلونَ تجاه الأسباب التي أدَّت إلىٰ تغييرِ وجهة نظري حولَ السُّؤال عن الإله.

* * *

⇦ في جامعة أكسفورد، ثمَّ جامعة كامبردج، وكتب أكثر من ثلاثين كتاباً، أهمّها (المسيحية المجرَّدة)، (المحبَّات الأربع)، (رسائل خُربُر)، وقد تُرجِمَت مؤخَّراً إلىٰ اللغة العربية، ونشرتها دار أوفير للطِّباعة والنشر، عمَّان، الأُردن. (المراجع).

القسم الأوّل:

إنكاري للمقدّس

MY DENIAL OF THE DIVINE

الفصل الأوَّل:

صناعةُ مُلْحِدِ

THE CREATION OF AN ATHEIST

صناعةُ مُلْحِد

لم أكُـن مُلْحـداً عـلىٰ الـدَّوام. فقـد بـدأتُ حيـاتي كمـؤمن. نشـأتُ في بيتٍ مسيحي، ودرسْـتُ في مدرسـةٍ مسـيحيةٍ خاصَّـة. في الحقيقـة، أنـا ابـنٌ لُمبشِّرٍ مسيحي.

والــدي كــان خرّيجـاً مــن كُلِّيــة ميرتــون في أكسـفورد، وكــان هــو المســؤول الــدِّيني في الكنيســة المنهجيــة (Methodist)[1] التابعــة للكنيســةِ البروتسـانتية، ولـيس في كنيسـةِ إنجلـترا الكاثوليكيـة. ورغـمَ أنَّ قلبَـهُ ظـلَّ تبشيرياً (Evangelism) علىٰ الدَّوام، فـإنَّ ذكريـاتي الأُولىٰ عنـه أنَّـه كـان مرشـداً في دراسـاتِ العهـد الجديـد في كلِّيـةِ اللاهـوت المنهجيـة في كـامبردج. وبعـد ذلـكَ أصـبحَ رئيسـاً للكلِّيـة، ثـمَّ في النِّهايـةِ تقاعـدَ وتُـوُفِّيَ في كـامبردج. بالإضـافةِ إلىٰ مسـؤوليَّاتِهِ التبشـيرية والتدريسـية، اضْـطلَعَ والـدي بمهمَّـةِ مُمثِّـل للمدرسـةِ المنهجيـة في مـنظَّماتٍ كَنَسـيَّةٍ متعـدِّدة. كـما أنَّـه رأسَ لفـترةٍ واحدةٍ مـدَّتُها سـنة كـلًّا مـن المـؤتمر المنهجـي والمجلس الكَنَسـي الفيـدرالي الحرّ.

يصـعُبُ عـليَّ تـذكُّر أو تشـخيص أيَّـة إشـارات في صِـباي تـدُلُّ عـلىٰ قناعــاتي الإلحاديــة اللاحقــة. في شــبابي، درسْــتُ في مدرســةِ كنغــزوود في مدينـةِ بـاث (Bath)، والمدرسـةُ تُعـرَفُ اختصـاراً بــ (K.S) ولحُسـنِ الحـظّ

---

(١) إحدىٰ الكنائس البروتستانتية التي تستمدُّ توجيهاتها من جون ويسْلي.

كانت - ولا تزال - مدرسة عمومية. لقد تمَّ إنشاؤُها من قِبَلِ مؤسِّس الكنيسة المنهجية جون ويسْلي (John Wesley)، من أجلِ تدريسِ أبناء المُبشِّرين التابعينَ له.

التحقتُ بمدرسةِ كنغزوود بالتزامٍ دينيٍّ فاتر، ولم أجدْ أيَّ مغزىٰ للعبادة، وكنْتُ بعيداً عن الاستمتاعِ والمشاركةِ في غناءِ التَّرانيم. لم يحدُث أبداً أنْ قرأتُ شيئاً في الأدبِ الدِّيني بالشَّوقِ نفسِهِ الذي كنتُ أقرأُ به كُتُبَ السِّياسةِ والتاريخِ والعُلُوم وبقيَّة الموضوعات. كان الذَّهابُ إلىٰ الكنيسةِ وترديدُ الصَّلواتِ وبقيَّة الطُّقوس الدِّينية بالنِّسبةِ لي بمثابةِ مسؤولية ثقيلة، ولم أشعُر علىٰ الإطلاق برغبةٍ ولو قليلة بالاقترابِ من الإله.

من ذاكرتي القديمة، لا أستطيعُ أنْ أُجيبَ لماذا كنْتُ غير مهتمٍّ عموماً بالطُّقوسِ الدِّينية وبقيَّة الأُمور التي شكَّلت حياة والدي. لا أتذكَّرُ أنَّني كنْتُ أشعرُ باهتمامٍ أو حماسةٍ لهذه الاحتفالات. ولم يكن عقلي مأسوراً ولا (قلْبي مولَعاً) (حسب تعبير ويسْلي الشَّهير) بالدِّراسةِ المسيحية أو بالعبادة. لا أدري إذا ما كان عدمُ حماستي للدِّينِ في أيَّامِ شبابي سبباً أم نتيجةً؟ أو كليهما معاً؟ ولكن أستطيعُ القول: إنَّ أيَّ قَدْرٍ من الإيمانِ كان موجوداً لديَّ عندما دخلْتُ مدرسةَ كنغزوود، كان قد تلاشىٰ مع تخرُّجي منها.

* * *

نظريةٌ في المآل

(A THEORY OF DEVOLUTION)

لقـد قيـلَ لي: إنَّ مجموعـة بارنـا (Barna Group) - وهـي منظَّمـة مسيحية لقيـاسِ انطباعـات الـرَّأي العـامّ - توصَّـلت مـن خـلالِ استبياناتها إلىٰ نتيجةٍ مفادُها أنَّ مـا تـؤمن بـه في سـنِّ الثالثـة عشـرة مـن عُمُـرِكَ هـو مـا ستظلُّ تـؤمن بـهِ حتَّـىٰ موتـك. بغـضِّ النَّظَـر عـن صـحَّةِ هـذه النَّتيجـة مـن عـدَمِها، فـإنَّني أُدرِكُ أنَّ الاعتقـادات التـي شـكَّلْتُها عنـدما كنْـتُ في الثالثـةِ عشرة من عُمري بقِيَت معي في أغلبِ سنوات حياتي.

فقط لا أتـذكَّر بنحـوٍ دقيـق متـىٰ وكيـفَ بـدأ التَّغيـير. ولكـن بالتأكيـد - كـما هـو الحـال مـع أيِّ إنسـانٍ يُفكِّـر - فـإنَّ عوامـلَ عـدَّة لعبـت دوراً في تكـوينِ قناعـاتي. لـيس أقلّهـا مـا أسْـماهُ إمانويـل كانـت (Immanuel Kant): (الرَّغبـةُ الجامحـةُ للعقـلِ بعـدَمِ الاستسـلام للتَّبْشـير)، وهـو مـا أعتقـدُ أنَّنـي أشـتركُ فيـه مـع والـدي. أنـا وهـو نشـتركُ في ميلِنـا الطَّبيعـي لاتِّبـاعِ طريـق (الحكمـة) كـما وصـفَها الفيلسـوف كانـت: (إنَّهـا الحكمـة التـي لهـا خاصـيَّة اختيار المسألة التـي يكـونُ حلُّهـا مفيـداً للجنْسِ البشـري مـن بـينِ عـددٍ لا حصْرَ له من المسائلِ التي تُعرَض أمامَنا).

معتقداتُ والـدي المسـيحية أقنعَتْـهُ بأنَّـه لا يوجـدُ شيء (أهـمّ للجنْسِ البشــري) مــن توضـيحِ ونَشْــرِ وتطبيــقِ الحقــائق الموجــودة في العهــدِ

الجديد. رحلتي الفكرية قادَتْني إلىٰ اتِّجاهاتٍ عدَّة، ولكن كلٌّ منها كان ينطوي علىٰ الرَّغبةِ العقليةِ الشَّديدة، وهو ما أشترِكُ فيه مع والدي.

أتذكَّرُ أيضاً أنَّني استفدْتُ كثيراً من تذكيرِ والدي لي في أكثر من مناسبة بأنَّ علماء الكتاب المقدَّس عندما يريدونَ استيعابَ مفهومٍ ما من العهدِ القديم، فإنَّهم لم يكونوا يبحثون عن الجوابِ بسهولةٍ من خلالِ التفكير فيه بمفرَدِهِم. وإنَّما عِوَضاً عن ذلك، كانوا يجمعونَ ويُحلِّلُونَ، من خلالِ الاستعانةِ بأكبرِ قَدْرٍ من السِّياقات التي يمكن أنْ يجدوها، وجميع الأمثلة المتاحة التي وُظِّفت فيها الكلمة العبْرية ذات الصِّلة. هذا الأُسلوبُ البحثي شَكَّلَ من عدَّةِ أوجه الأساسَ لدراستي الفكرية المتقدِّمة - والذي لا زلْتُ محافظاً عليه - في تجميعِ وتحليلِ جميعَ المعلومات ذات الصِّلة بموضوعٍ مُعطىٰ. إنَّه من الأُمورِ التي تدعو للدَّهشةِ أنَّ مالِكَ البيت الذي نشأتُ فيه غرَسَ فِيَّ علىٰ الأرجح الحماسةَ للبحثِ الناقد، والذي سيقودُني في نهايةِ المطاف إلىٰ رفْضِ إيمان والدي.

* * *

وجهُ الشَّيطان

(THE FACE OF EVIL)

لقد قلْتُ في بعضِ كتاباتي الإلحادية المتأخِّرة، أنَّني وصلْتُ إلىٰ نتيجةٍ بشأنِ عدم وجود إله بصورةٍ متعجِّلةٍ جدَّاً، وبشكلٍ سطحيٍّ جدَّاً، والذي تبيَّنَ لي فيما بعد أنَّها كانت أسباباً خاطئة. لقد كرَّرتُ استخدامَ هذه النَّتيجة السَّلبية بشكلٍ متكرِّرٍ ومفصَّل، ولكن بعد سَبْعِ سنوات من ذلك، لم أجد أيَّ أساسٍ كافٍ لتسويغ هذا الموقف الأُصولي. أحدُ الأسباب المبكِّرة لتحوُّلي إلىٰ الإلحاد كان موضوع وجود الشُّرور في العالَم.

لقد كان أبي يصطحِبُني أنا وأُمِّي في رحلةٍ صيفيةٍ كلَّ سنة. رغمَ أنَّ القيامَ بهذه الرَّحلات لم يكن ممكناً اعتماداً علىٰ راتبِ والدي لوحدِهِ كمشْرفٍ ديني، إلَّا أنَّ القيامَ بهذه الرَّحلات صارَ ممكناً، لأنَّ والدي كان يقومُ بمساعدةِ طلبة الثانوية في مراجعةِ دُرُوسِهِم في بدايةِ فَصْل الصَّيف، وكان يتقاضىٰ أجراً مقابِلَ ذلك. لقد كان السَّفَرُ بالنِّسبةِ لنا ممكناً وبنحوٍ رخيصٍ نظراً إلىٰ أنَّ والدي كان يتكلَّم الألمانية بطلاقةٍ بعد أنْ دَرَسَ اللاهوت لمدَّةِ سنتين في جامعةِ ماربورغ (Marburg) الألمانية قبلَ الحرب العالمية الأُولىٰ. ولذلك كان بمقدورِهِ أنْ يأخُذَنا في أثناءِ العطلات في رحلةٍ إلىٰ ألمانيا، ومرَّة أو مرَّتين سافرنا إلىٰ فرنسا دون الحاجة إلىٰ دفعِ مالٍ إلىٰ مكتبٍ سياحي. كما أنَّ والدي كان قد تمَّ تعيينُهُ كممِّثلٍ للكنيسةِ المنهجية في عدَّةِ مؤتمرات لاهوتية دوليةٍ. وقد اصطحبني - وأنا ولدُهُ الوحيد - مع والدتي كضيوفٍ غير مشاركين في هذه المؤتمرات.

لقد تأثَّرتُ كثيراً برحلاتِ السَّفر الخارجية في السَّنواتِ التي سبقت الحرب العالمية الثانية. ولا زلْتُ أتذكَّرُ بوضوحٍ اللافتات والعلامات المُعلَّقة خارج القُرىٰ الصَّغيرة مكتوباً عليها (لا يُسْمَح بدُخولِ اليهود). وأتذكَّرُ أيضاً أنَّه كانت تُعلَّق لافتات خارج مَدْخل المكتبات العامَّة تقول: (لا تَسْمَح لوائحُ المؤسَّسات بإعارةِ الكُتُب لليهود). وشاهدْتُ أيضاً عرْضاً عسكرياً لعشرةِ آلاف من أصحابِ القُمْصان البُنِّية في أحدِ ليالي بافاريا الصَّيفية. مكَّنَتْني رحلاتي العائلية أيضاً من رؤيةِ مجموعات من جماعةِ وافن (Waffen SS) بلباسِهم الأسود وقُبَّعاتِهم المرسوم عليها صورة جُمْجُمة وعظْمينِ متقاطعين.

مثلُ هذه التجارب رسَمَت مُخيَّلتي في مرحلةِ الشَّباب وشكَّلَت لي - كما هو الحال مع الكثيرين - تحدِّياً حولَ وجودِ إلهٍ مُحِبٍّ يمتلكُ القوَّةَ الكاملة. ولا أستطيعُ أنْ أقيسَ درجةَ تأثير ذلك علىٰ تفكيري. هذه الخبرات إذا لم يكن سواها أيقظت في داخلي الوعي بالثُّنائي الشَّيطاني وهما معاداة السَّامية (anti-Semitism)[1] والشُّمولية (Totalitarianism)[2].

* * *

---

(١) (معاداة السامية) مصطلح يُطلَق علىٰ معاداة اليهود كمجموعة عرقية ودينية وإثنية. تمَّ استعمال المصطلح لأوَّل مرَّة من قِبَل الباحث الألماني فيلهم مار، لوصف موجة العداء لليهود في أُوروبا الوسطىٰ في أواسط القرن التاسع عشر.

(٢) الشمولية هي طريقة حكم ونظام سياسي يمسك فيه حزب واحد بكامل السلطة، ولا يسمح بأيَّة معارضة، فارضاً جمع المواطنين وتكتيلهم في كتلة واحدة. وبعبارة أُخرىٰ: الشمولية أو نظام المجتمع المغلق هو مصطلح يشير إلىٰ نظام سياسي تكون فيه الدولة تحت سلطة فرد أو فئة أو فصيل واحد، دون أن تعرف الدولة حدوداً لسلطاتها، حيث تسعىٰ بكلِّ جدٍّ لتنظيم جميع مظاهر الحياة العامَّة والخاصَّة ما أمكنها ذلك.

مكانٌ مفعمٌ بالحيوية
(AN ENORMOUSLY LIVELY PLACE)

أنْ تتربَّىٰ خلال الثلاثينات والأربعينات من القرْنِ العشرين في بيتٍ مثل بيتِنا - ينتمي للطَّائفةِ المنهجية - يعني أنَّكَ تعيشُ في كامبردج دون أنْ تنتمي إليها. بدايةً، اللاهوتُ لم يكن مقبولاً علىٰ أنَّه (مَلِكُ العُلُوم)، كما هو الحال في باقي المؤسَّسات. كما لم تكن هناك كلّية للتأهيلِ الدِّيني في أجواءِ الجامعة. وكنتيجة لذلك، لم أكُنْ معروفاً بانتمائي لكامبردج، علىٰ الرَّغمِ من أنَّ والدي كان يشعر وكأنَّهُ في بيتِهِ هناك. وعلىٰ كلِّ حال، فإنَّه منذُ عام (١٩٣٦م)، عندما بدأتُ بالترقِّي في المدرسة، فإنَّني نادراً ما كنْتُ أُقيمُ في كامبردج خلالَ فترة الدِّراسة(١).

ومع ذلك، فإنَّ مدرسةَ كنغزوود كانت في أيَّامي مكاناً يعُجُّ بالحياة، وكان يرأَسُها رجلٌ يستحقُّ أنْ يُقَيَّمَ باعتبارِهِ واحداً من أفضلِ مديري المدارس. قبلَ قُدُومي إليها بسنة، حصلَت المدرسةُ علىٰ جوائزَ في أكسفورد وكامبردج في مؤتمراتِ المدارس أكثر من أيَّةِ مدرسةٍ أُخرىٰ. ولم يكن نشاطُنا المدْرسي يقتصرُ علىٰ قاعاتِ الدِّراسة والمختبرات فقط.

عندما تكونُ في مثلِ هذه البيئةِ المثيرة، فإنَّه ليس مدْعاةً للدَّهشةِ

---

(١) يقصد (فلو) من هذه الفقرة أنَّه تأثَّر بوالده، بحيث إنَّ أجواء كامبردج كانت تنعكس علىٰ البيت. فمن يعيش ويتربّىٰ في بيتٍ كالذي تربّىٰ فيه، فكأنَّه كان في كامبردج المفعمة بالحيوية. (المراجع).

لأحدٍ أنَّني بدأتُ في التَّشكيكِ بالإيمانِ الصَّارمِ لوالدي، وهو الإيمانُ الذي لم أشعُر بأيِّ ارتباطٍ عاطفيٍّ قويٍّ تجاهَهُ. عندما كنْتُ في الصَّفِّ السَّادس العُلْوي (يُماثِلُ الصَّفَّ الثاني عشر في النِّظامِ الأمريكي)، كنْتُ أُناقِشُ مع زملائي في الصَّفِّ بشكلٍ متكرِّرٍ فكرةَ الإلهِ ذي القُدْرة المطلقة والخير المطلق، وعدم توافُق هذه الفكرة مع وجودِ الشُّرور ونواقص العالم. عندما كنْتُ في مدرسةِ (K.S)، لم تكُنْ مراسِم يوم الأحد المنتظمة تتضمَّنُ أيَّةَ إشارةٍ إلىٰ مصيرِ الإنسان في الجنَّةِ أو النَّار. عندما كان ساكيت (A.B Sackett) – مديراً للمدرسة، وكان في الوقتِ ذاتِهِ أُسْقُفاً، وهو أمرٌ غيرُ معتادٍ في وقتِهِ – كانت كلِمَتُهُ دائماً ما تتعلَّقُ بعجائِبَ وروعةِ الطَّبيعة. وعندما حلَّ عيدُ ميلادي الخامس عشر كنْتُ، قد بدأتُ برفضِ فكرة أنَّ الكونَ قد خلقَهُ إلهٌ كاملُ القدْرةِ والرَّحمة.

قد يسألُ أحدُهُم عمَّا إذا كنْتُ قد فكَّرتُ باستشارةِ المرْشد الدِّيني حولَ شُكُوكي المتعلِّقة بوجود الإله. لم أفعل ذلك قطُّ. ومن أجلِ الحفاظ علىٰ استقرارِ العائلة، وبشكلٍ خاصٍّ علاقتي مع والدي، حاولتُ قدْرَ المستطاع أنْ أُخفي عن الجميعِ في البيتِ تحوُّلي نحو اللادين. وحسبَ ما أعتقد، فإنَّني نجحْتُ في ذلكَ لسنواتٍ عديدة.

ولكن بحُلُولِ يناير من عام (١٩٤٦م)، وحينما كنْتُ في الثالثةِ والعشرين من عمري، انتشرَ الخبَرُ – ووصلَ إلىٰ والدي – بأنَّني مُلْحِدٌ، وأنَّني كذلك لا أُؤمنُ بالحياةِ بعد الموت، وأنَّه لم يكن من المرجَّح أبداً عودتي عن قناعاتي. لقد كان تحوُّلي كاملاً وصارماً، بحيث إنَّ النِّقاشَ في البيتِ حولَ هذا الموضوع كان سيبدو نقاشاً عقيماً. ومع ذلك، وبعد خمسين سنة من ذلكَ الوقت، يمكنني القول بأنَّ والدي كان

سيشـعُرُ بالسَّـعادةِ الغـامرةِ بقناعـاتي الحاليـة المتعلِّقـة بوجـودِ الإلـه. عـلىٰ الأقلّ سوف يعتبرُ أنَّ ذلكَ يُمثِّلُ مساعدةً عظيمةً للكنيسةِ المسيحية.

* * *

أكسفورد مختلفة

(A DIFFERENT OXFORD)

من مدرسةِ كنغزوود، انتقلتُ للدِّراسةِ في جامعة أكسفورد. وصلْتُ إلىٰ أكسفورد في يناير من عام (١٩٤٢م)، كانت الحَرْبُ العالميةُ الثانية قد اشتعلت. وفي أيَّامي الأُولىٰ كطالبٍ، وكنْتُ حينَها في الثامنةِ عشرة من عمري، قمتُ بإجراءِ الفحص الطبِّي، وتمَّ بعد ذلك إلحاقي بشكلٍ رسميٍّ في سلاحِ الجوّ الملكي. في أيَّامِ الحرْبِ تلك، كان مطلوباً من جميعِ الشَّباب اللَّائقين بدنياً أنْ يقوموا بالخدْمةِ يوماً واحداً في الأُسبوع في أحدِ مراكز الخدمة. وبالنِّسبةِ لي، كان مركزُ الخدمة هو سِرْبُ الطَّائرات التابع لجامعةِ أكسفورد.

الخِدْمةُ العسكريةُ، التي كانت لمدَّةِ سنة بنظامِ العمل الجُزْئي ثمَّ بنظامِ العمل الكُلِّي، لم تكن ذاتَ طابعٍ قتاليّ. وكانت الخدْمةُ تتضمَّنُ تعلُّم بعضٍ من اللُّغةِ اليابانية في قسْمِ الدِّراسات الشَّرقية والأفريقية في جامعةِ لندن. ومن ثَمَّ القيامُ بترجمةِ الإشارات اللاسلكية التي يتمُّ رصْدُها وفكُّ شفرتِها، وكان ذلك يتمُّ في منطقة بلتشي بارك. بعد استسلامِ الجيش الياباني، عملْتُ في ترجمةِ الإشارات اللاسلكية التي كانت تصدُرُ من قِبَلِ الجيش الفرنسي الذي كان قد أُنشئَ حديثاً للسَّيطرةِ علىٰ المنطقةِ المحتلَّةِ، وهي ما عُرِفَت بعد ذلك بألمانيا الشَّرقية.

عندما عُـدْتُ إلىٰ نظـامِ الدِّراسـة الكامـل في جامعـةِ أكسـفورد في ينـاير مـن عـام (١٩٤٦م)، كـان علـيَّ أنْ أتقـدَّمَ للاختبـارِ النِّهـائي في صـيفِ عـام (١٩٤٧م)، وجـدْتُ أنَّ أكسـفورد التـي عُـدْتُ إليهـا أصـبحت أكسـفورد مختلفـة. يبـدو أنَّهـا أصـبحت مؤسَّسـةً أكثـرَ إثـارة ممَّـا كانـت عليـه عنـدما تركتُها قبلَ ثلاث سنوات تقريبـاً. كـان هنـاك العديـدُ مـن الوظـائفِ المدنيـة، وكذلك كان هناك وظـائفُ عسـكرية، لكنَّهـا كانـت وظـائف أكثـر أمانـاً ممَّـا كانـت عليـه في فـترةِ مـا بعـد الحـرب العالميـة الأُولىٰ. حضـرْتُ بعـضَ المحاضرات في كُلِّيـةِ الآداب الإنسـانية، وقـد كـان يُلْقـي بعـض المحـاضرات محـاربون قُـدامىٰ مـن الـذين كـانوا فـاعلين في مسـاعدةِ المقاومـة اليونانيـة في جزيـرةِ كريـت وعـلىٰ الأراضي اليونانيـة، وكـان الهـدفُ مـن ذلـك جعـل المحاضرات أكثرَ تشويقاً وتحفيزاً لطلبةِ البكالوريوس.

تقـدَّمْتُ للاختبـارِ النِّهـائي في الفَصْـلِ الصَّـيفي مـن عـام (١٩٤٧م). وقـد كـان مُدْهشـاً ومُفرحـاً في ذاتِ الوقـت أنَّنـي حصـلْتُ عـلىٰ المرتبـةِ الأُولىٰ. وبعـد أنْ حصـلْتُ عـلىٰ هـذه المرتبـة، عُـدْتُ إلىٰ مُعلِّمـي الخـاصّ جـون مـابوت (John Mabbott) في كُلِّيـةِ القـدِّيس جـونز، وقُلْـتُ لـه: إنَّنـي تخلَّيتُ عن هدفي السَّـابقِ في العمـلِ عـلىٰ الحصـولِ عـلىٰ شـهادةِ بكـالوريوس ثانيـة في المدرسـةِ التـي شُـيِّدَت حـديثاً في الفلْسـفةِ وعلْـمِ الـنَّفس. فأنـا الآن أُريدُ أنْ أُكمل دراستي العُلْيا في الفَلْسفة.

* * *

الأصبوحات الفلسفية

(WAXING PHILOSOPHIC)

قامَ مابوت بمساعدتي في الالتحاقِ بالدِّراساتِ العُلْيا في الفلْسفةِ تحتَ إشراف جلبرت رايل (Gilbert Ryle)[1]، الذي كان وقتها أُستاذ مادَّة الميتافيزيقا في جامعة أكسفورد. كان رايل أحد أساتذة كرسي الفَلْسفة الثلاثة خلال الفَصْل الثاني من العام الدراسي (١٩٤٧ - ١٩٤٨م).

بعد ذلك بسنوات، علمْتُ عن طريقِ كتاب مابوت (ذكريات أكسفورد Oxford Memories) أنَّه ورايل كانا صديقينِ منذُ أنْ التقيا لأوَّلِ مرَّة في أكسفورد. لو كنْتُ في كلِّيةٍ أُخرىٰ وسُئِلْتُ من قِبَلِ أُستاذي الخاصّ عن الأفضل من بينِ الأساتذة الثلاثة، لفضَّلْتُ بالتأكيد هنري برايس (Henry Price)، وذلك بسببِ اهتماماتِنا المشتركة في عِلْمِ النَّفس، وهو التخصُّص الذي كان يُسمَّىٰ بالبحثِ النَّفسي في ذلك الوقت. ولذلك فإنَّ كتابي الأوَّل كان بعنوان (مقاربة جديدة

(١) فيلسوف بريطاني (١٩٠٠ - ١٩٧٦م)، كتب كتاباً (١٩٤٩م) بعنوان (تصوّر الذهن أو مفهوم العقل The Concept of Mind)، وصار هذا الكتاب محوراً أساسياً للنقاش في مجال فلسفة الذهن. مَثَّلَ هذا الكتاب هجوماً شرساً علىٰ ثنائية ديكارت (النفس والجسد)، وتأييداً للمدرسة السلوكية (رغم أنَّ رايل لم يكن سلوكياً بالمعنىٰ السيكولوجي. لذا يُسمّى البعض موقف رايل بـ (السلوكية الفلسفية))، انطلاقاً من فلسفة اللغة والأفكار التى طرحها فتجنشتين (Wittgenstein)، والتى ادَّعىٰ فيها أنَّ منشأ المشاكل الفلسفية هو الأخطاء اللغوية، وأنَّنا إذا استخدمنا اللغة بنحو واضح، اختفت مشاكل الفلسفة تلقائياً. (المراجع).

إلىٰ البحث النَّفسـي (A New Approach to Psychical Research)، وقد أصبحنا أنا وبرايس بعد ذلك متحدِّثين في المؤتمرات التي تُعنىٰ بالبحثِ النَّفسـي. ولكن أنا متأكِّد أنَّني لم أكُن لأحصل علىٰ جائزةِ الجامعة في الفلْسفةِ في تلك السَّنة لو كنْتُ تحتَ إشراف برايس، لأنَّنا كُنَّا سنقضـي الوقتَ في النِّقـاشِ حـول موضـوعات الاهتمام المشترك بيننا.

بعـد أنْ قضـيت العـام الـدِّراسي (١٩٤٨م) في الدِّراسـاتِ العُلْيـا في الفلْسفةِ تحتَ إشراف رايل حصـلْتُ عـلىٰ جـائزةِ التميُّـز، وكانـت عبـارةً عـن منحـةِ جـون لـوك للدِّراسـةِ في تخصُّـص الفَلْسـفة الذِّهنيـة. وبعـد ذلـكَ تـمَّ تعييني بوظيفةِ مُحاضِر في المجالِ التدريسي.

خلال السَّنة التي قُمْـتُ فيهـا بالتَّـدريسِ في أكسـفورد، قُمْـتُ بتـدريسِ كتابات الفيلسوف لودفيج فتجنشتين (Ludwig Wittgenstein)[1]، وهو صاحبُ الاتِّجاه الفلْسفي الذي أثَّرَ فيَّ عند الدِّراسةِ في أكسفورد. هذه الكتابات نُشِـرَت بعد ذلك بعنوان (الكتابُ الأزْرق والكتـابُ البُنِّـي Blue Book, Brown Book)، محاضرات في الرِّياضيات (Lectures on Mathematics)، وقد كانت مرفقة برسائل من فتجنشتين تُشيرُ إلىٰ نوعيَّةِ القُرَّاء المُوجَّهة لهم، وكذلك نوعيَّة القُرَّاء الذين لا ينبغي أنْ يقرأوها. وقُمْتُ أنا وأحد زملائي بنَشْـرِ نُسَخ من محاضراتِ فتجنشتين في أكسفورد، وجعلناها في متناولِ جميع من يرغبون بقراءَتِها.

(١) مـن أكـبر فلاسـفة القـرن العشـرين، وُلِـدَ في فيينـا بالنمسـا (١٨٨٩ - ١٩٥١م)، ودرس في جامعـة كمـبردج بـإنجلترا، وعمـل بالتـدريس هنـاك. وقـد حظـي بالتقـدير بفضـل كتابيـه (رسـالة منطقيـة فلسـفية)، و(تحقيقـات فلسـفية). عمـل في المقـام الأوَّل في أُسـس المنطـق والرياضـيات، وفلسـفة الـذهن، وفلسـفة اللغـة. اعتقـد أنَّ معظـم المشـاكل الفلسـفية تقـع بسبب اعتقاد الفلاسفة أنَّ معظم الكلمات أسماء. كـان لأفكـاره أثرهـا الكبـير عـلىٰ كـلٍّ مـن الوضعية المنطقية وفلسفة التحليل. أحدثت كتاباته ثورة في فلسفة ما بعد الحربين.

كُنَّا نسأل كلَّ شخصٍ نعرفُ اهتمامَهُ بالفلْسفةِ في أكسفورد عمَّا إذا كانت لديه مخطوطات لمحاضراتِ فتجنشتين، وإذا كان الجوابُ (نعم) كُنَّا نسألُهُ عن المحاضرةِ المتوفِّرة لديه، ولأنَّ مكائنَ التَّصوير لم تكن قد ظهرت في ذلك الوقت، قُمْنا بتوظيفِ طبَّاع للقيامِ بمُهمَّة طباعة عدد نُسَخ كافية لتلْبيةِ حاجة من يطلبها.

تعرَّفَ رايل علىٰ فتجنشتين عندما زارَ الفيلسوفُ النَّمساوي (فتجنشتين) جامعة كامبردج. وبعدها كوَّنَ رايل علاقة صداقة مع فتجنشتين، وأقنعَهُ بأنْ يقوما برحلةٍ علىٰ الأقدام إلىٰ منطقةِ (مقاطعة البُحيرة Lake District) الإنجليزية في عام (١٩٣٠ أو ١٩٣١م). لم يَنْشُر رايل أيَّ وصفٍ لهذه الرِّحلة، وما الذي تعلَّمَهُ أثناءَ صُحبَتِهِ لفتجنشتين (منه وعنه). لكن بعد هذه الرِّحلة، أصبحَ رايل يتصرَّف كوسيطٍ بين فتجنشتين و(العالَم الخارجي)[1].

وكم كانت هذه الوساطةُ ضروريةً في بعضِ الأحيان. وهذا ما يكشِفُ عنه التَّسجيلُ الذي يُوثِّقُ لمحادثةٍ بين فتجنشتين - الذي كان يهودياً - وأخواتِهِ بعد أنْ احتلَّ جنود هتلر النَّمسا.

في هذه المحادثة، يُطَمْئِن فتجنشتين أخواته بالقولِ: (إنَّه بسببِ علاقاتِهِ مع الشَّخصياتِ الرَّئيسية والعوائلِ الكبيرة في النِّظامِ السَّابق وعلاقتِهِ بالناس، فإنَّهم جميعاً لن يتعرَّضوا لأيِّ أذىٰ). ولاحقاً عندما

(١) يقصد (فلو) أنَّ رايل انكشفت له أثناء هذه الرحلة جوانب كثيرة من شخصية فتجنشتين وأفكاره، لكنَّه لم يفصح عمَّا انكشف له أثناء الرحلة، وإنَّما اكتفىٰ بأن بدأ يتصرَّف وكأنَّه الناطق الرَّسمي باسم فتجنشتين والمُعبِّر عن فكرِهِ والمفسِّر لنظرياتِهِ أمامَ الناس. (المراجع).

أصبحتُ أُستاذاً للفلسفة، كنْتُ أكرَهُ أنْ أكشِفَ لطلبتي أنَّ فتجنشتين - والذي كنْتُ أعتبرهُ والكثير من زملائي فيلسوفاً عبقرياً - كان شديدَ الغُرُور في الأُمورِ العِلْمية.

لقد كنتُ شاهداً شخصياً علىٰ سُلُوكِ فتجنشتين مرَّةً واحدةً علىٰ الأقلّ. وحدَثَ ذلك عندما كنْتُ في مرحلةِ البكالوريوس، وكان فتجنشتين يقومُ بزيارةٍ إلىٰ جمعيةِ جويت (Jowett Society). كان موضوعُ المحاضرة المُعْلَن هو: (أنا أُفكِّر إذاً أنا موجود)، والعنوانُ مأخوذٌ بالتأكيد من عبارةِ الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت الشَّهيرة. كانت القاعةُ مكتظَّةً بالحضور، والجمهورُ يُصْغي لكُلِّ كلمةٍ يقولُها الضَّيفُ العظيم، ولكن الشَّيءُ الوحيد الذي أتذكَّرُهُ الآن أنَّ المحاضرةَ لم يكن لها أيّ علاقة بالعنوانِ المُعلَن لها. لذلك عندما انتهىٰ فتجنشتين من محاضرتِهِ، نهَضَ البروفيسور ريتشارد (H.A Richard) من مكانِهِ، وكان بادياً عليه السَّخط، وسألَ فتجنشتين: (يا فتجنشتين - وكان من الجليِّ أنَّ دكتوراه كامبردج لم يكن معترفاً بها في أكسفورد - مع ذلك أنا أُفكِّر إذاً أنا موجود). وضَعَ فتجنشتين إصبع سبّابَتَهُ علىٰ جبهتِهِ، واكتفىٰ بالقول: (إنَّ عبارةَ أنا أُفكِّر إذاً أنا موجود، جملةٌ غريبةٌ جدَّاً). كنْتُ ولا أزال أعتقدُ أنَّ الرَّدَّ الأنسَبَ علىٰ فتجنشتين، كان ينبغي أنْ يُستوحىٰ من أحدِ مشاهد المسلسل الكرتوني (الرِّجالُ والنِّساءُ والكلاب)، الذي يقولُ فيه أحدُهُم: (ربَّما ليس لديكِ جاذبية يا ليلي، لكن أنتِ لُغز).

* * *

التَّصادُم مع لويس

(LOCKING HORNS WITH LEWIS)

خلال الفترة التي كنْتُ فيها طالباً في الدِّراساتِ العُلْيا تحتَ إشراف جلبرت رايل، أصبحتُ أُدرِك أنَّ من عادتِهِ أنْ يرُدَّ بشكلٍ مباشرٍ وجهاً لوجهٍ علىٰ أيِّ اعتراضٍ يُوجَّهُ لأيٍّ من أفكارِهِ الفَلْسفية. ورغمَ أنَّ رايل لم يُحدِّثني بذلك ولا أيّ شخصٍ آخرَ حسَب عِلْمي، فإنَّ حدسي يقولُ: إنَّ رايل كان يتَّبع المقولة التي أورَدَها أفلاطون في كتابِهِ (الجمهورية) - وهي مقولةٌ تُنْسَبُ إلىٰ سقراط -، وفيها يقول: (يجب أنْ نتَّبع الحُجَّةَ أينما قادتنا)[1]. هذا المبدأ - ضمن أُمور أُخرىٰ - يتطلَّبُ أنْ يتمَّ نقاش أيَّ اعتراض بصورةٍ مباشرةٍ وجهاً لوجه. وقد حاولتُ أنْ أُطبِّقَ هذا المبدأ طوالَ حياتي الجدلية.

هذا المبدأُ شَكَّلَ عنصرَ تحفيزٍ للنادي السُّقراطي، وهو عبارةٌ عن مجموعةٍ كانت فاعلةً في المشْهد الفكري في أكسفورد أيَّام الحرب. لقد كان النادي السُّقراطي مسرحاً لمناظراتٍ حيوية بين المُلْحدينَ والمسيحيين، وقد كنْتُ أُشارِكُ بانتظامٍ في هذه الجلسات. وكان رئيسُ النادي في الفترةِ من (١٩٤٢ إلىٰ ١٩٥٤م) الكاتب المسيحي سي. إس.

(١) ونظيرُها ما هو رائج بين طلبة العلوم الدِّينية في الحوزات: (نحنُ أتْباعُ الدَّليل، أينما مالَ نميل). (المراجع).

لويس (C. S Lewis). كان النـادي يعقـدُ اجتماعَـهُ في مسـاءِ كـلِّ يـوم اثنـين في قاعـةِ السِّـرْداب في كُلِّيـةِ القـدِّيس هيلـدا. أشـارَ لـويس في مقدِّمـةِ العـدد الأوَّل مـن (مجلَّـةِ سُـقراط) إلىٰ عبـارةِ سـقراط: (يجـب أنْ نتَّبـع الحُجَّـةَ أينـما قادتنـا). وقـد لاحـظَ لـويس في هـذه المقدِّمـة أنَّ هـذه الحلبـة المُخصَّصـة للصِّراعِ بين الإلحادِ والمسيحية كانت أمراً بديعاً.

تصادَمَ العديدُ من كبارِ المُلْحدين في أكسفود مع لويس وأتباعِهِ المسيحيِّين. ولعلَّ أفضل مناظرة حدثت بين الطَّرفين كانت في فبراير من (١٩٤٨م)، وكانت بـين لـويس (Lewis) واليزابيـث أنسـكومب (Elizabeth Anscombe)[١]، وهـي التي جعلت لويس يعيدُ كتابةَ الفصلَ الثالث من كتابهِ (المعجزات Miracles). لا زلتُ أتذكَّر عودتي مع مجموعةٍ من الأصدقاء، بعد انتهاءِ المناظرة العظيمة، حيثُ كُنَّا نسيرُ مباشرةً خلْفَ اليزابيث وأصدقائها. لقد كانت مبتهجةً، وكـذلك كـان حالُ أصدقائها. علىٰ الفور، خرجَ لويس أمام هذا الحزب وحيداً، وكان يمشـي بأقصىٰ ما يُمكِنُهُ، ليلجأَ إلىٰ غرفتِـهِ في كُلِّيـةِ ماغـدن (Magdden College)، التـي كانت تقعُ بالقُرْبِ من المكانِ الذي كُنَّا نقطع فيه الشَّارع.

رغـم أنَّ الـبعضَ اعتـبرَ أنَّ نتيجـةَ المنـاظرة أثَّـرت بشـكلٍ دائـمٍ عـلىٰ معنوياتِ لـويس، لكـن أنسـكومب (Anscombe) ذاتهـا كانـت تختلـفُ معهـم في ذلك. لقـد كتبَـتْ لاحقـاً: (كـان اجـتماعُ النـادي السُّـقراطي الـذي قـرأتُ فيـه ورقتـي البحثيـة بالنِّسـبةِ للعديـدِ مـن أصـدقاءِ لـويس فظيعـاً وصـادماً، وهو ما أدَّىٰ إلىٰ إحباطِـهِ بشـكلٍ كبـير، ولكـن لا الـدكتور هـارفرد (Havard) ولا البروفيسـور جـاك بينـت (Jack Bennett) يتـذكَّر أنَّ مثـلَ هـذا الشُّـعور

---

(١) فيلسـوفة إنجليزيـة (١٩١٩ - ٢٠٠١م)، تُعتَـبر مـن أبـرز تلامـذة فتجنشـتين، ومـن أعـلام الفلسفة التحليلية. (المراجع).

كان بادياً علىٰ لويس... أنا أميلُ إلىٰ التَّحليلِ المناقض لهذا الاعتقاد من قِبَلِ أصدقائِهِ... باعتبارِهِ مثالاً جيِّداً علىٰ ظاهرةٍ تُسمَّىٰ (الإسقاط)[(١)(٢)].

لقد كان لويس أكثر المدافعين عن الدِّينِ المسيحي تأثيراً في الحُقبةِ الأخيرةِ من القَرْنِ العِشْرين. عندما سألتني مؤخَّراً هيئةُ الإذاعة البريطانية (BBC) عمّا إذا كنْتُ قد دحضْتُ دفاعَ لويس عن الدِّينِ بشكلٍ كامل، أجبْتُ: (لا. أنا فقط لم أكُن أعتقد أنَّ هناكَ أسباباً كافية للاعتقادِ بذلك. ولكن بالتأكيد عندما عُدْتُ للتَّفكيرِ في الأُمورِ اللاهوتية، بدا لي أنَّ حالةَ الوحي المسيحي قويَّةٌ جدّاً إذا كُنْتَ تعتقدُ بالوحي من الأساس).

* * *

---

(١) الإسقاط هي حيلة دفاعية ينسبُ فيها الفردُ عيوبَهُ ورغباته المحرَّمة والعدوانية أو الجنسية للناس، حتَّىٰ يُبرِّئ نفسَهُ ويُبعد الشُّبُهات عنها. (المراجع).

(٢) G. E. M. Anscombe , The Collected Papers of G. E. M. Anscombe , vol. 2, Metaphysics and the philosophy of Mind (Minneapolis: University of Minneasota Press, 1981), x.

تطوُّرات إيجابية جدّاً

(HIGHLY POSITIVE DEVELOPMENTS)

خلالَ الفصْل الأخير لي في جامعةِ أكسفورد، نَشَـرَ آير (A.J. Ayer)[1] كتابَهُ (اللُّغة، الصِّدْق والمنطق Language, Truth and Logic)، وهو ما أقنَعَ عـدداً مـن أعضاءِ النادي السُّقراطي أنَّه لا بدَّ من تفنيدِ هرطقة آيـر في الوضـعيةِ المنطقيـة، والتي تقول: إنَّ كلَّ القضايا الدِّينيـة لـيس لهـا معنـىٰ إدراكـي، وإنَّهـا يجب أنْ تُدْحَض. بدا لي أنَّ الورقةَ الأُولىٰ والوحيدةَ التي قرأتُها أمامَ النادي السُّـقراطي، وكانت بعنوان (اللاهوت والتكذيب Theology and Falsification)، قـدَّمتْ مـا اعتبرتُهُ تفنيداً كافياً. واعتقدْتُ حينها أنَّني حقَّقْتُ نَصْـراً كـاملاً، وإنَّـه لا مجالَ لأيَّةِ مناظرة إضافية.

التقيتُ أيضاً في أكسفورد بأنِس دونسن (Annis Donnison)، التي ستصبحُ فيما بعد زوجةً لي. لقد تعرَّفنا علىٰ بعضِنا البعض عن طريقِ أُخت زوجتي، التي

---

(١) ألفـرد آيـر (Alfred Jules Ayer) فيلسـوف بريطـاني (١٩١٠ - ١٩٨٩م)، مـن أبـرز أعـلام الوضـعية المنطقيـة. تمحـورت أفكـاره حـول نقـد الميتافيزيقـا بمختلـف فروعهـا، كـاللاهوت والجـمال والأخـلاق، حيـث رأىٰ أنَّ الميتافيزيقـا لا يمكـن التأكّـد مـن حقّانيتهـا بالتجربـة. كما أنكـر بديهيـة الأحكـام المتعلّقـة بالمـاضي، وذهـب إلىٰ أنَّهـا ليسـت كبداهـة الحـاضر، لأنَّنـا لا نـتمكَّن مـن الرجـوع إلىٰ الـوراء للتـيقّن مـن صـحَّة مـا وقـع في المـاضي. والنتيجـة أنَّنـا لا يمكننـا أن نُثبِـت ذلـك بطريقـة علميـة. تـأثَّر بـه تلميـذه د. زكـي نجيـب محمـود، الـذي كـان منـاصراً للوضـعية المنطقيـة، فكتـب (المنطـق الوضـعي)، و(خرافـة الميتافيزيقـا)، ثـمّ تراجعـا في آخر حياتهما عن أهمّ أفكارهما في الوضعية المنطقية. (المراجع).

دعَتْنا إلىٰ اجتماعِ النادي العُمَّالي في أكسفورد. وبعدَ أنْ تعرَّفْتُ علىٰ أنِس (Annis)، لم أعُد أُعيرُ انتباهاً لأيِّ شخصٍ في هذا الاجتماع سواها. وبعد هذا اللِّقاء، اتَّفقنا أنا وأنِس علىٰ أنْ نلتقي مرَّةً أُخرىٰ. وكان ذلكَ اللِّقاء الوحيد الذي واعدْتُ فيه فتاةً علىٰ الإطلاق. كان وضْعُنا الاجتماعي مختلفاً عندما التقينا لأوَّلِ مرَّة، حيثُ كنْتُ أقومُ حينها بالتَّدريسِ في كنيسةٍ مسيحيَّةٍ مخصَّصةٍ للرِّجالِ فقط. بينما كانت أنِس (Annis) في سنتِها الأُولىٰ كطالبةٍ في كُلِّيةِ سومرفيل (Somerville College) في أكسفورد، وهي الكُلِّية التي كانت تقومُ في ذلك الوقت بفصْلِ كلِّ طالب يُقدِم علىٰ الزَّواج.

لقد كانت والدةُ زوجتي قلقةً من قيامِ طالب دراساتٍ عُلْيا مثلي بمواعدةِ ابنتِها التي تصغُرُني كثيراً. ولذلك سألَت ابنَها - الذي سيصبحُ فيما بعد أخو زوجتي - والذي أكَّدَ لها أنَّ إبعادي عن أنِس سوف يكسِر قَلْبَها. كنْتُ أفترضُ علىٰ الدَّوامِ أنَّ أخا زوجتي يريدُ لأُختِهِ الصَّغيرة أنْ تُتْركُ وشأنها لتُدبِّرَ أُمورَ حياتِها؛ لأنَّه كان يعرف أنَّها فتاة عاقلة، وأنَّها محلُّ ثقة، ولن تتَّخِذ أيَّ قرارٍ طائش.

في ذلك الوقت، رغمَ أنِّي كنْتُ قد ابتعدْتُ منذُ فترة طويلة عن إيمانِ والدي، مع ذلك طبَّقْتُ ما كنْتُ تعلَّمتهُ من آبائي المنهجيِّين؛ فلم أحاول قطُّ أنْ أخدَعَ أنِس قبلَ الزَّواج، معتقداً أنَّ مثل هذا السُّلوك هو دائماً عملٌ غير أخلاقي. كذلك، كوني ابناً لأكاديميٍّ، لم أُحاول إقناعَ أنِس بالزَّواجِ منِّي قبلَ أنْ تتخرَّجَ وتحصُلَ علىٰ الدَّرجةِ العلمية.

بقيتُ في العملِ كمُدرِّسٍ غير مُتفرِّغ في الكنيسةِ المسيحية في عام (١٩٥٠م)، وفي نفسِ الوقت كنْتُ قد بدأتُ في العملِ كمُحاضِرٍ في فلْسفةِ الأخلاق بجامعةِ أبرْدين الاسكتلندية في أُكتوبر من العامِ نفسِهِ.

* * *

ما بعد أكسفورد
(BEYOND OXFORD)

خـلال سـنوات إقـامتي في أبـرْدين، شـاركْتُ بعـدَّةِ حـواراتٍ إذاعيـة، كـما شـاركْتُ في ثلاثـةِ أو أربعـةِ نقاشـاتٍ إذاعيـةٍ كانـت تُـنظَّم مـن قِبَـلِ البرنـامج الثالـث في إذاعـةِ (BBC) المؤسَّـس آنـذاك حـديثاً، وقـد شـاركْتُ كموضوعٍ في تجارُب نفسيَّة متعـدِّدة. مـن الأُمـورِ التـي جـذبَتْنا إلىٰ أبـرْدين، هو أنَّنـا أصبحنا أصـدقاء لجميـعِ الـذين قابلنـاهُم تقريبـاً، ومـا جـذبنا أيضـاً لأبـرْدين؛ تنـوُّع وقـوَّة الحركـة التعليميـة فيهـا؛ ولكـون أبـرْدين مدينـة في اسكتلندا وليست في إنجلترا، والتـي كانـت جديـدة بالنِّسـبةِ لنـا؛ لحقيقـةِ أنَّهـا وفَّرت لنا إمكانـات عديـدة للتنـزُّه، ومنهـا السَّـير عـلىٰ الشَّـواطئِ وفي منطقـةِ كيرنجورم (Cairngroms). ولا أذكُرُ أنِّي تخلَّيـتُ أبـداً عـن المشـاركةِ بـأيٍّ مـن رحلاتِ نادي كيرنجورم الشَّهرية المنتظمة لتلكَ التلال.

في صيفِ عام (١٩٥٤م)، غادرْتُ أبرْدين في طريقي إلىٰ أمريكا الشَّمالية، لأُصبِحَ بروفيسور الفَلْسفة بكُلِّيـة جامعـة ستافوردشـير الشَّـمالية (University College of North Staffordshire)، والتي حصلَت فيما بعد علىٰ رُخصـةٍ لتُصـبِحَ جامعة كيل (University of Keele). وخلال السَّبْعَةَ عشـرة عاماً التـي قضـيتُها هناك، ظلَّت كيل أقربَ إلىٰ أجواءِ المملكة المتَّحـدة منهـا إلىٰ كُلِّيـاتِ الآداب في الولايات المتَّحدة. سرعانَ ما كرَّسْتُ جهدي للعمَلِ هنـاك، ولم أُغـادر جامعـة كيل إلَّا بعدما بدأَتْ تفقِد ببُطءٍ تميُّزَها.

قضيتُ العامَ الأكاديمي (١٩٧٠ - ١٩٧١م) كأُستاذٍ زائرٍ في الولاياتِ المتَّحدة، ولكنَّني استقلْتُ في نهايةِ عام (١٩٧١م) من ما سيُصبح فيما بعد جامعةِ كييل (أخذَ مكاني في كييل ريتشارد سوينبيرن). في يناير من عامِ (١٩٧٢م)، انتقلْتُ إلىٰ جامعةِ كالغاري (Calgary) في ألبِرْتا بكندا. كان هدفي الأوَّل أنْ أستقرَّ هناك. ولكن، في مايو (١٩٧٣م)، بعد ثلاثةِ فُصُولٍ فقط في كالغاري، انتقلْتُ إلىٰ جامعةِ ريدنغ (University of Reading)، حيثُ بقيتُ فيها حتَّىٰ نهاية عام (١٩٨٢م).

وقبلَ أنْ أتقدَّمَ بطلَبِ التقاعُدِ المُبكِّر وأحصل عليه من جامعةِ ريدنغ، وقَّعْتُ علىٰ عقدٍ للتَّدريسِ فَصْلاً واحداً كلَّ سنةٍ في جامعةِ يورك في مدينةِ تورِنْتو الكندية، واستمرَّ ذلك لآخرِ ستَّة أعوام من حياتي الأكاديمية. في منتصفِ هذه المدَّة، استقلْتُ من جامعةِ يورك لكي يتسنَّىٰ لي قبول دعوة مركز الفَلْسفة الاجتماعية والسِّياسية في جامعةِ باولنغ غرين (Bowling Green) بولايةِ أُوهايو الأمريكية، وذلك للعمَلِ كباحثٍ متميِّز. وقد تمَّ تمديدُ الدَّعوة لثلاثِ سنواتٍ أُخرىٰ. بعد ذلك، تقاعدْتُ بشكلٍ كامل، وما زلتُ أُقيمُ في ريدنغ.

هذه الخطوطُ العريضة لمسيرتي العِلْمية لا تُظهِر لماذا أصبحْتُ فيلسوفاً. وإذا أخذنا بالاعتبار اهتمامي الفَلْسفي منذُ كنْتُ في مدرسةِ كنغزوود، كان يبدو أنِّي سأصبحُ فيلسوفاً محترفاً قبلَ وقتٍ طويلٍ من ذهابي إلىٰ أكسفورد. حتَّىٰ خلال الفَصْلين اللَّذين قضيتُهُما في أكسفورد قبلَ أنْ ألتحِقَ بسلاحِ الطَّيران الملكي، كنْتُ قد وصلْتُ إلىٰ أقرب مدىٰ من الفَلْسفةِ خلال اجتماع النادي السُّقراطي. واهتمامي الرَّئيسي خارج إطار دراساتي كان سياسياً. هذا الأمرُ استمرَّ إلىٰ ما بعد يناير (١٩٤٦م)، حيثُ صارت الموضوعات التي أدرُسُها تشمَلُ الفَلْسفة.

وأوَّلُ مرَّةٍ شعرْتُ فيها أنَّ مجالَ عملي يمكن أنْ يكونَ في الفلْسفةِ، كان قبلَ أنْ أتقدَّمَ للاختبارِ النِّهائي في ديسمبر من عام (١٩٤٧م).

في الفَصْلينِ القادمينِ من هذا الكتاب، أُحاوِلُ أنْ أُفصِّلَ الأساس الذي استندْتُ عليه لسنواتٍ طويلةٍ في معارضةِ فكرة وجود إله. سأبدأُ أوَّلاً بالغوصِ في نِصْفِ قَرْنٍ من الحُجَجِ الإلحادية، التي كوَّنْتُها وطوَّرْتُها، ثمَّ بعد ذلك استخدمْتُها. في الفصْلِ الثالثِ، سوف أتتبَّعُ التحوُّلات العديدة التي حدثَتْ في مسيرتي الفَلْسفية، وبالتَّحديدِ تلك التي يمكن تبيُّنها من خلالِ المناظرات المتكرِّرة التي شاركْتُ فيها في موضوعِ الإلحاد.

عبر كلِّ ذلك، آمل أنْ يتَّضِح - كما ذكرْتُ في السَّابقِ - أنَّ اهتمامي الطَّويل بالدِّين لم يأتِ سوىٰ من بابِ الحيطةِ والأخلاق، أو ببساطة من بابِ الفضول. أقولُ: (من بابِ الحيطة)؛ لأنَّه إنْ كان هناك إلهٌ أو آلهةٌ لهم علاقة بأحوالِ البشر، فإنَّ من الطَّيشِ أنْ لا نُحاوِلَ أنْ نقِفَ في الجانبِ الذي يقِفُ فيه هؤلاء الآلهة(١).

وأقولُ: إنَّ اهتمامي (من بابِ الأخلاق)؛ لأنَّني شعرْتُ بالسَّعادةِ أنْ أجِدَ

---

(١) المقصود هنا ما نُعبِّر عنه في أدبياتِنا بـ(دفعِ الضَّرَر المحتمَل) (ضرورة عملية)؛ فالإنسان جُبِلَ علىٰ تفادي الضَّرَر المحتمل ولو كان احتمالُ الضَّرَرِ ضعيفاً. فبقدر أهمّية وخطورة المحتمل، يحرصُ علىٰ تفادي وقوعه. وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حواره مع عبد الكريم بن أبي العوجاء (الملحد): «إنْ يكن الأمرُ علىٰ ما يقولُ هؤلاء (المؤمنون بالله)، وهو علىٰ ما يقولون (أي الأمر كذلك، الإله موجود)، فقد سلِمُوا وعطبتُم. وإنْ يكن الأمرُ علىٰ ما تقولون (لا وجود للإله)، وليس كما تقولون (أي الأمر ليس كذلك، فالإله موجود)، فقد استويتُم وهُم». أُصول الكافي للكليني ١: ٧٥/ باب حدوث العالم وإثبات المحدِث/ ح ٢). (المراجع).

ما قالَهُ ماثيو أرنولد (Matthew Arnold)[١]: (إنَّ الخالِدَ (الإله)، وليس نحنُ، من له صلاحية تحديد الخير)[٢] صحيحاً.

وأقولُ: إنَّ اهتمامي كان (من بابِ الفضول)؛ لأنَّ أيَّ شخصٍ صاحب

---

(١) ماثيو أرنولد (١٨٢٢ - ١٨٨٨م) شاعر وناقد وكاتب ومصلح تربوي إنجليزي، وقد كان تركيزه في أعماله ينصبُّ علىٰ وضع الإنسان الغربي المعاصر الذي يواجه الحياة من غير دين.

(٢) يبدو أنَّ أرنولد يقصد أنَّ الأخلاق ترتكز علىٰ مفهوم الخير، فالعقل وإنْ استطاع أنْ يستقلَّ بمعرفة خيرية القيم الأخلاقية (كالعدل والصدق)، إلَّا أنَّ مصاديق الخير لا يمكن للإنسان أنْ يُحدِّدها في كثيرٍ من الأحيان، بل الله وحده هو القادر علىٰ تشخيصها. فسواء كان معيار تقييم الفعل الخيِّر هو الدوافع (النيّات) أو العواقب (النتائج)، فالإنسان في الحالتين غير قادر علىٰ التشخيص الجازم.

فلا الإنسان بقادر علىٰ معرفة دوافعه ودوافع الآخرين بنحو مؤكَّد ودقيق، ولا هو بقادر علىٰ معرفة عواقب فعله وأفعال الآخرين بنحو مؤكَّد ودقيق.

أمَّا عدم قدرته علىٰ معرفة دوافع الآخرين بنحو مؤكَّد، فواضح، لأنَّه لا يُدرِك إلَّا سلوكهم الظاهري، وقد يخطئ في تفسيره في أحيانٍ كثيرة. وأمَّا عدم قدرته علىٰ معرفة دوافعه بنحو مؤكَّد، فلأنَّه يُدرِك دوافعه الظاهرية، ولا يُدرِك دوافعه الباطنية التي تنطلق من اللاشعور، والله هو وحده يعلم السِّرَّ وأخفىٰ.

أمَّا عدم قدرته علىٰ معرفة عواقب أفعال الآخرين، فلأنَّ هذا الأمر يتطلَّب رصد كلِّ الآثار الإيجابية والسلبية لكلِّ فعلٍ من أفعالهم، حتَّىٰ يتحقَّق التقييم، وهذا فوق طاقة الإنسان. وأمَّا عدم قدرته علىٰ معرفة عواقب فعلِهِ، فأيضاً لعدم قدرته علىٰ رصد كلِّ الآثار الإيجابية والسلبية لكلِّ فعلٍ من أفعالِهِ. فضلاً عن أنَّ عواقب الأفعال تستمرُّ لما بعد موتهم وموته.

فالخلاصة أنَّ من يُحدِّد الخير لا بدَّ أنْ يكون (خالداً) و(بكلِّ شيء عليم)، حتَّىٰ يحيط بكلِّ الأفعال، دوافعها وعواقبها، ويُحدِّد ما كان خيراً منها وما لم يكن كذلك. لذا يقول تعالىٰ: ﴿... وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (البقرة: ٢١٦)... هكذا أفهم عبارة أرنولد. (المراجع).

عقليـة عِلْميَّـة يجـب أنْ يبحَـث قـدْرَ اسـتطاعتِهِ لكـي يتعـرَّفَ عـلىٰ هـذه الموضوعات[١].

ولعلّي بعد كلِّ هذه السَّنوات أكثرَ شخصٍ مندهشٍ من تحوُّلي مـن إنكـارِ وجودِ إله إلىٰ اكتشافِهِ.

❋ ❋ ❋

(١) المقصـود هنـا الفضـول الطبيعـي عنـد الإنسـان (ضرورة طبيعيـة)؛ وخاصَّـة عنـدما يتعلَّـق الأمـر بوجـود وحياتِـهِ ومصـيرِهِ. فمـثلاً إذا فقـد الإنسـانُ وعيَـه لفـترة مـن الـزمن، وفجـأة فتح عينية في مكـانٍ لم يألفـه، فـالأرجح أنَّ أوَّل سـؤال يطرحـه عـلىٰ نفسـه وعـلىٰ مـن حولـه: لماذا أنـا هنـا؟ مـن جـاء بي إلىٰ هنـا؟ مـا الأحـداث التـي وقعـت وأدَّت لمجيئـي إلىٰ هنـا؟ وإذا جاء بعض الناس لأخـذه لمكـانٍ آخـر، سـوف يسـألهم عـلىٰ الفـور: إلىٰ أيـن أنـتم ذاهبـون بي؟ إلىٰ أين تسوقونني؟
ومهـما حـاول مـن حولـه التنصّـل والتهـرّب مـن إجابتـه، فسـوف يظـلُّ هـو يلـحُّ علـيهم ويتسـاءل بـإصرارٍ حتَّـىٰ يصـل إلىٰ إجابـات شـافية. هـذا الفضـول المعـرفي، وأسـئلة كـبرىٰ من هذا القبيل، هي التي دفعت الإنسان إلىٰ التفلسف والتديّن. (المراجع).

الفصل الثاني:

إلى حيثُ يقودُ الدَّليل؟

WHERE THE EVIDENCE LEADS

عنـدما سرَحَـت ألِـس (Alice) بخيالِهـا وهـي تنظُـرُ في المـرآةِ في روايـةِ لـويس كـارول (Lewis Carroll) الشَّـهيرة، التقـت بالمِلكـةِ التـي ادَّعـت بـأنَّ عمرها (١٠١) سنة وخمسة أشهر ويوماً واحداً.

(قالت ألِس: لا أستطيعُ تصديقَ ذلك.

قالـت الملكـةُ بصـوتٍ خافـت: ألا تسـتطيعين؟ حـاولي مـرَّةً أُخـرىٰ، خُذي نفساً عميقاً وأغمِضي عينيكِ.

ضحكت ألِـس وقالـت: لا فائـدةَ مـن ذلـك، لأنَّ الشَّـخصَ لا يمكـن أنْ يُصدِّق بأشياء مستحيلة.

قالت المِلكةُ: أعتقـدُ أنَّـكِ لم تتـدرَّبي عـلىٰ ذلـك بالقَـدْرِ الكـافي. عنـدما كنْتُ في عُمرُكِ كنْتُ أقومُ بـذلك نصـفُ سـاعةٍ يوميـاً. لمـاذا؟ كنْـتُ في بعـضِ الأحيان أعتقـدُ بـالكثيرِ مـن الأشـياءِ المسـتحيلة بنحـو يتجـاوز المسـتحيلات السِّت قبلَ أنْ أتناولَ طعامَ الإفطار).

أحسَبُ أنَّ عـليَّ أنْ أتعـاطَفَ مـع ألِـس، وخاصَّـة عنـدما أتـذكَّر كيـف تغـيَّر مسـارَ حيـاتي ودراسـتي حتَّـىٰ بعـد أنْ درسْـتُ الفلْسـفةَ تحتَ إشراف جلـبرت رايـل. أنـا واثـقٌ أنَّ مـا حصَـلَ لم يكـن مرجَّحـاً، إنْ لم يكـن مستحيلاً.

بالكــاد كــان يُمكِنُنــي تخيُّــل، أنَّنــي عنــدما قمْــتُ بتــأليفِ كتــابي (اللَّاهـوت والتَّكـذيب)، أنَّنـي سـوفَ أنشُـرُ خـلالَ نصْـف القَـرْن القـادم خمسـةً وثلاثـين كتابـاً في موضـوعاتٍ فَلْسـفيةٍ شـتَّىٰ. ورغـمَ شُـهْرتي في

الكتابةِ في موضوعِ وجود الإله، فإنَّ ذلك لم يكن على الإطلاق مجالَ اهتمامي الوحيد. على مرِّ السِّنين، كتبْتُ في موضوعاتٍ تتراوحُ ما بين فَلْسفة اللُّغة إلى المنطق؛ من الفلْسفةِ الأخلاقيةِ والاجتماعيةِ والسِّياسيةِ إلى فَلْسفةِ العلوم؛ ومن عِلْمِ ما وراء النَّفْس (parapsychology) والتَّربية إلى النِّقاشِ حولَ الجبر والاختيار وموضوع الحياة بعد الموت.

لكن على الرَّغمِ من أنَّني أصبحتُ مُلْحداً في الخامسةِ عشرة من عمري، وقيامي بتطويرِ اهتماماتي غير الفَلْسفية عندما كنْتُ في مدرسةِ كنغزوود، فإنَّ عملية إنضاج وترسيخ آرائي الفَلْسفية استغرقت سنوات. في ذلكَ الوقت توصَّلْتُ إلى مبادئَ إرشادية لم تُهيمِن على حياتي وطريقةِ كتابتي واستدلالي فحَسْب، بل في الحقيقةِ قادتني في النِّهايةِ إلى التحوُّلِ الجذْري من الإلحادِ إلى الإيمان.

❊ ❊ ❊

الاكتشافات المبكِّرة ... والمواقف المحرجة

(EARLY EXPLORATIONS . . . AND EMBARRASSMENTS)

بعضُ آرائي الفَلْسفية تشكَّلت حتَّىٰ قبْلَ أنْ أدخُلَ إلىٰ مدرسةِ كنغزوود. لقد كنْتُ معتنقاً الشُّيوعية في فترةِ تسجيلي في المدرسة، وقد بقيتُ كاشتراكيٍّ يساري نشيطاً حتَّىٰ بدايةِ الخمسينيات من القَرْنِ الماضي، عندما استقلْتُ من حزْبِ العُمَّال (Labour Party)، وهو الحِزْبُ الذي يُمثِّلُ تاريخياً الحركةَ اليسارية في بريطانيا.

ما منعني من الاشتراكِ الواقعي في الحِزْبِ الشُّيوعي - كما كان الحالُ مع بعضِ زملائي - هو سلوكُ الحِزْب الشُّيوعي البريطاني بعد المعاهدةِ الألمانية - السُّوفياتية عام (١٩٣٩م)، (حيثُ كنْتُ مراهقاً آنذاك). هذا الحِزْبُ الذَّليلُ والغادر بدأَ بإدانةِ الحرب ضدَّ ألمانيا الاشتراكية القومية (النازيِّين) باعتبارِها حرْباً (إمبريالية)، وكنتيجةٍ لذلك، لم يكن يعتقد بأنَّ البريطانيِّين معنيُّون. استمرَّت هذه الإدانات حتَّىٰ عام (١٩٤٠م)، في الوقتِ الذي كانت البلادُ تتعرَّض لخطرِ الغزو. لكن ما سُمِّيَ بالحرْبِ الإمبريالية أصبحَ فجأةً (حرْباً تقدُّميَّة، حرْبَ الشَّعب) (حسب وجهة النَّظَر الشُّيوعية)، وذلك عندما غزت ألمانيا الاتِّحاد السُّوفييتي. وفي السَّنوات التي تلت ذلك، أصبحْتُ أُشكِّكُ بصورةٍ متزايدةٍ بالنَّظريةِ والممارسةِ الشُّيوعية، التي تقومُ علىٰ فكرةِ أنَّ التاريخَ محكومٌ بقوانين شبيهة بقوانينِ العُلُوم الفيزيائية.

وفي هـذه الفـترة - وكـما هـو حـالُ أقـراني في مدرسـةِ كنغـزوود - تعرَّفـتُ عـلىٰ الكتابـاتِ التَّفسـيرية للكاتـبِ سي. إي. إم. جـوود (Joad)[1]. في ذلـك الوقـت، كـان جـوود معروفـاً في الوسـطِ البريطـاني العـامّ بنقاشـاتِهِ المبْثوثـة في الموضـوعاتِ الفَلْسـفية ونمـطِ كتاباتِـهِ المميَّـز (قـامَ بتـأليفِ أكثـر مـن ٧٥ كتابـاً). مـن خـلالِ قـراءة أكثـر كُتُـب جـوود مبيعـاً، اكتشـفْتُ أنَّ بعضَـها مـع الأسـف فاقـدٌ للمصـداقيةِ فـيما يتعلَّـق ببحـثِ مـا وراء عِلْـم النَّفْس، وهو ما يُعرَف في الوقتِ الحالي بالباراسيكولوجي.

أنا أفـترِضُ أنَّ كثيراً منَّـا عنـدما يتقـدَّمُ في العمـرِ ينظُـرُ إلىٰ الـوراء، إلىٰ فـترةِ الشَّـباب، بمـزيجٍ مـن الحنـينِ والإحـراج. أنـا متأكِّـدٌ أنَّ هــذه الانفعـالات شـائعةٌ جـدّاً. ومـع ذلـك، لـيس جميعُنـا لـديهم سـوء الحـظِّ في توثيقِ ونَشْرِ بعض هذه الأُمور المُحْرِجة كما هو الحال معي.

إنَّ اهتمامـي بـما وراء عِلْـم الـنَّفْس (الباراسـيكولوجي) قـادَني في عـامِ (١٩٥٣م) إلىٰ نَشْـرِ أوَّل كتـابٍ لي كُتِـبَ بطريقـةٍ سـيِّئةٍ لا تُطـاق. في عـام (١٩٥١م)، قمْـتُ بكتابـةِ وتوزيـعِ اثنـين مـن الحـواراتِ التـي تُهـاجِمُ سـوءَ الفهم المنتشَـر عـن ظـاهرةِ الخـوارق المزعومـة لمـا وراء عِلْـم الـنَّفْس. نَشْـرُ هـذه الحـوارات دفَـعَ أحـد النَّـاشرين ليطلُـبَ منِّـي تـأليفَ كتـابٍ في هـذا الموضـوع، والـذي - بـدافعٍ مـن الغطْرسـةِ الشَّـبابية - أسـميْتُهُ (الـنَّهج الجديد في البحوثِ النَّفْسية A New Approach to Psychical Research).

تنـاولَ الكتـابُ الحقـائقَ المفترضـة والمسـائلَ الفَلْسـفية المتعلِّقـة بالباراسـيكولوجي. وممَّـا يشـفَعُ لي في ارتكـابِ بعـضِ الأخطـاء في أُسـلوبِ

---

(١) فيلسـوف إنجليـزي (١٨٩١ - ١٩٥٣م)، عمـل عـلىٰ نشـر الفلسـفة في المجتمـع البريطـاني في فترة الحرب العالمية الثانية.

الكتابـة في هــذا الكتــابِ، أنَّ النَّــاشِرَ أرادَ أنْ يكــونَ أُسـلوبُ الكتابـةِ عـلىٰ شـكلٍ مقـالاتٍ مُيسَّــرة. ومـع ذلـك، كانـت هنـاك أخطـاءٌ جوهريـة. فعلىٰ المســتوىٰ التَّجريبــي، اعتقــدْتُ بصــحَّةِ عمــل إس. جــي، ســول (Soal)، الباحـث والرِّيـاضي في جامعـةِ لنـدن. وعـلىٰ المستوىٰ الفَلْسفي، لم أكـن قـد اسـتوعبْتُ حينَهـا بشـكلٍ كامـلٍ أهميَّـةَ الباراسـيكولوجي في الحُجَّـةِ التـي قـدَّمها الفيلســوفُ الأســكتلندي ديفيــد هيــوم في القِسْــمِ (X) مــن كتابِــهِ الأوَّل (التحقيـق Inquiry)[1]. لاحقـاً بعـد عقـود، قُمْـتُ بتجميـعِ كتـابٍ مـن مجموعـةِ قـراءات، أعتـبرُ أنَّهـا أفضـل مـا كُتِـبَ قبـلَ ذلـك الوقـت في هـذا الموضــوع، وأســميْتُ الكتـــابَ (قـــراءات في المشـــكلاتِ الفَلْســـفية للباراسـيكولوجي)[2]. وفي مقدِّمـةِ الكتـاب، لخَّصْـتُ مـا تعلَّمـتُ خـلالَ سنوات من حُلُولٍ لتلك المسائل.

* * *

(١) أصـدر الفيلسـوف الأسـكتلندي ديفيـد هيـوم (١٧١١ - ١٧٧٦م) سـنة (١٧٥٨م) كتابـه (تحقيـق في الفهـم الإنسـاني/ ترجمـه د. موسـىٰ وهبـة، دار الفـارابي/ ٢٠٠٨م، بـيروت)، بعنـوان: (مبحـث في الفاهمـة البشـرية)، وفي سـنة (١٧٥١م) أصـدر كتابـه (تحقيـق في مبـادئ الأخـلاق). ويقصـد (فلـو) هنـا كتـاب هيـوم الأوَّل المتعلّـق بتحليـل العقـل البشـري. والقسـم (X) هـو بعنـوان (في المعجـزات)، راجـع ترجمـة الكتـاب (ص ١٥١). (المراجع).

(٢) (Parapsychology).

استكشافُ اهتماماتٍ جديدة
(EXPLORING NEW INTERESTS)

بــرَزَ لــديَّ اهتمامــانِ فَلْســفيَّان عــبْرَ القــراءات العِلْميــة في مرحلــةِ شبابي:

الاهــتمامُ الأوَّلُ يتمثَّــلُ في افــتراضِ أنَّ علْــمَ الأحيــاء التطــوُّري (evolution biology) قــادرٌ عــلىٰ ضــمانِ إحــرازِ تقــدُّم. وهــذا الافـتراضُ ظهَـرَ بقــوَّةٍ في شــذراتٍ مبكِّــرة لـــ (جوليــان هكســلي Julian Huxley)[1] في كتــابِ (مقالات عالِمِ أحيــاء Essays of a Biologist). وهــو المقــترح الــذي عَمَــلَ عــلىٰ تطــويرِهِ بــإصرارٍ بقيَّــةَ حياتِــهِ. في كتــابِ (الوقــت، النَّهــر المُتجــدِّد Time, the Refreshing River)، وكتــابِ (التَّــاريخ إلىٰ جانبِنــا History Is on Our Side)، قــامَ جوزيــف نيــدْهام (Joseph Needham)[2] بــدَمْجِ هــذا الافــتراض مــع فلسفةِ التاريخ الماركسيَّة، وهــو المــذهب الــذي يقــومُ عــلىٰ أنَّ قــوانينَ الطَّبيعــة ناتجةٌ عن تطــوُّراتٍ تاريخيــة. فالماركسيُّون يعتقــدونَ أنَّ هنــاك قــوانين عالميَّــة، مثل حتميَّة الحروب الطبقيَّــة، تحكُــمُ تقــدُّم المجتمعــات. وكجُــزْءٍ مــن عمليَّــةِ دحــض هـــذا الفكـــر، قُمْـــتُ - عنـــدما دُعيـــتُ في منتصـــفِ (١٩٦٠م) للمُشــاركةِ في سلســلةِ (أفكــار جديــدة في الأخــلاق) - بتــأليفِ كتــاب

---

(١) عالم أحياء وفيلسوف أسكتلندي (١٨٨٧ - ١٩٩٥م).

(٢) عــالم إنجليــزي ومُــؤرِّخ (١٩٠٠ - ١٩٩٤م)، مختــصٌّ في (عِلْــم الصِّــينيات)، عُــرِفَ بأبحاثه ووكتاباته حول تاريخ (العِلْم في الصِّين).

(الأخلاق التطوُّرية Evolutionary Ethics). (وكان ذلك سبباً في تأليفِ كتاب (التطوُّر الدَّارونِي) عندما طُلِبَ منِّي المشاركة في توثيقِ سلسلة الحركات والأفكار في بدايةِ الثَّمانينات من القَرْنِ الماضي. وفي هذا الكتاب الأخير، أردْتُ أنْ أُبيِّنَ أنَّ هيبةَ الدَّارونية استدْعَت الحفاظَ علىٰ أفكارٍ واعتقاداتٍ تفتقرُ لأساسٍ متينٍ، مثل الفكرة القائلة بأنَّ نظرية دارْوِن هي ضمانٌ للتطوُّرِ البشري).

اهتمامي الفَلْسفي الثاني نَتَجَ عن قراءتي للأدبيَّاتِ العِلْمية المَشْهورة، وهو محاولة رَسْم استنتاجات بارْكِلِيَّة (نسبةً إلىٰ الفيلسوفِ الإنجليزي بارْكْلِي)[١] في ضوءِ تطوُّر الفيزياء في القَرْنِ العِشْرين. البارْكِلِيَّة الجديدة تنتمي إلىٰ مدرسةٍ فلْسفيَّةٍ تُسمَّىٰ المثاليَّة (Idealism). والمثاليُّون يعتقدونَ بأنَّ الواقعيَّةَ الفيزيائية هي حقيقةٌ عقليةُ صِرْفة، وأنَّ ما هو موجودٌ إنَّما هو العقول ومحتوياتها. المصدْرُ الرَّئيسي لأفكارِ هذه المدرسة هي أعمالُ السِّير جيمس جينز (Sir James Jeans)[٢] والسِّير آرثر أدنغتون (Sir Arthur Eddington)[٣]. لقد كان كتابُ (الفَلْسفة والفيزيائيُّون Philosophy and the Physicists) لمؤلِّفَتِهِ سوزان ستِبِنْغ (Susan Stebbing)[٤] هو ما ساعدَني في شقِّ طريق للخروجِ من هذه الغابة (المثاليَّة).

---

(١) (١٦٨٥ - ١٧٥٣م). ادَّعىٰ باركلي أنَّه لا يوجد شيءٌ اسمُهُ (مادَّة) علىٰ الإطلاق، وما يراه البشر ويعتبرونه عالمهم المادّي لا يعدو أنْ يكون مجرَّد فكرة في العقل بفعل (الإدراك) وبغياب الإدراك تغيبُ المادَّة.

(٢) عالم فلك وفيزياء ورياضيات إنجليزي (١٨٧٧ - ١٩٤٦م).

(٣) عالم فلك وفيزياء ورياضيات إنجليزي (١٨٨٢ - ١٩٤٤م).

(٤) فيلسوفة إنجليزية (١٨٨٥ - ١٩٤٣م)، تُعتَبر من أعلام الفلسفة التحليلية.

بعد ذلك بسنوات، في كتابي (مَدْخل إلىٰ الفَلْسفةِ الغربية)، حاولْتُ أنْ أُبيِّن أنَّ المثاليَّةَ قاتلةٌ للعِلْم. وقد استشهدْتُ في الكتابِ بفقرةٍ من كتابِ (العقل، الإدْراك الحسِّي والعِلْم Mind, Perception and Science) لمؤلِّفِهِ المُميَّز عالِمِ الأعصاب البريطاني اللُّورد رَسِل برايان (Russell Brain)[١]، والذي أوضحَ أنَّ أطِبَّاءَ الأعصاب عادةً ما يكونونَ مثاليِّين يعتقدونَ بأنَّ فعلَ الإحساس بموضوعٍ ما هو ببساطة حدَثٌ يقعُ في دِماغِ المُستقبِل.

كما استشهدْتُ بادِّعاءِ بِرْتراند رَسِل[٢] بأنَّ (الإحساسَ لا يُقدِّمُ خبرةً مباشرةً بالموضوعِ الفيزيائي). قُلْتُ: لو كان ذلكَ صحيحاً، فإنَّه ليس هناك شيءٌ اسمُهُ إحساس. ولا يخفىٰ أنَّ نتيجةَ هذا التَّفكير المثالي هي التقليل من قيمةِ الاكتشافات العِلْمية، إذ يعتمدُ العُلَماء - ويجبُ عليهم ذلك - علىٰ الملاحظةِ المباشرة في تبريرِ اكتشافاتِهم، فإسقاطُ تلك الملاحظات المباشرة عن الاعتبار يعني انتفاء قيمة مشاهداتِهم. باختصار، إنَّ هذا الرَّأي يُزيلُ أُسُس جميع الاستدلالات العِلْمية. وكَرَدٍّ علىٰ هذا الرَّأي، قُلْتُ: إنَّه لا بدَّ في الإحساسِ الواعي من تجرُبةٍ حسِّيَّةٍ (مثال: صوت وصورة المِطْرقة أثناء عملية إدْخال المِسْمار)، وإذا كان هناك ثمَّة مُعطىٰ حسِّي صحيح، فإنَّ ذلك الشَّيء (المِطْرقة والمِسْمار) يجب أنْ يكون جُزْءاً من اكتسابي لتلكَ الخِبْرة.

* * *

---

(١) عالم أعصاب بريطاني (١٨٩٥ - ١٩٦٦م).

(٢) فيلسوف ورياضي إنجليزي شهير (١٨٧٢ - ١٩٧٠م)، كان له أثر كبير علىٰ الفلسفة الغربية المعاصرة، يُعتَبر من أبرز أعلام الفلسفة التحليلية ومؤسِّسيها، له كتب كثيرة في مجال فلسفة الرياضيات وفلسفة المنطق وفلسفة اللغة، ونظرية المعرفة، وتاريخ الفلسفة، وغيرها من الكتب. (المراجع).

رؤية جديدة في الفَلْسفة

(NEW INSIGHTS IN PHILOSOPHY)

في الفـترةِ التـي قضـيتُها في أكسـفورد (١٩٤٦ - ١٩٥٠م)، ظَهَـرَ اتِّجاهٌ جديدٌ في الفَلْسـفةِ يُسـمَّىٰ بعـضَ الأحيـان: (ثـورة في الفَلْسـفة)، وكـان في أوجِ ازْدِهـارِهِ. عنـدما كنْـتُ في أكسـفورد (قضـيْتُ سـنتينِ في درجـةِ البكالوريوس، وسـنتينِ أُخـريين في درجـةِ الدِّراسـاتِ العُلْيـا، وثمانيـةَ عَشَـرَ شـهراً كمُـدرِّسٍ في الكنيسـةِ المسـيحية)، خـلالَ هـذه الفـترة، تعمَّقتُ كثـيراً في هـذه (الفَلْسـفةِ الجديـدة)، والتـي وَصَـفَها عـددٌ مـن خُصُـومِها بأنَّهـا (لُغَوية) أو (لُغة عاديَّة).

كـان أبـرز الرُّمـوز الفَلْسـفية في أكسـفورد في ذلـك الوقـت جلـبرت رايـل وجـون أوسـتن[1]. وكـما أشرتُ مـن قبـل، رايـل كـان المُشْـرف علىٰ دراستي في الـدُّكتوراه، أمَّـا أوسـتن فسـنحَت لي الفُرْصَـةُ للتعـرُّفِ عليـه بعـد تعييني في الكنيسةِ المسـيحيةِ، حيـثُ أصـبحتُ مـن أُولئـكَ الـذين يحضُـرُونَ بشكلٍ منـتظمٍ لمـا يُعـرَفُ بنقاشـاتِ (صـباح السَّـبت)، التـي كانـت تُعقَـدُ في مكتبِ أوستن في أكسفورد، صباحَ كلِّ سَبْت، لمناقشةِ تطوُّر العِلْم.

---

(١) فيلسـوف بريطـاني (١٩١١ - ١٩٦٠م)، تخصَّـصَ في فلسـفة اللغـة، وعُـرِفَ بنظريتـه في أفعـال الكـلام، مُركِّـزاً عـلىٰ الأهمّيـة الفلسـفية للعبـارات الإنشـائية أو الأدائيـة (في مقابـل العبـارات الإخباريـة و التقريريـة)، مـن أشـهر كتبـه (كيـف نصـنع الأشـياء بـالكلمات؟) (١٩٥٥م). (المراجع).

هـذه الفَلْسـفةُ الأكسـفوردية في الأربعينـاتِ والخمسـيناتِ مـن القَـرْنِ الماضي، قـدَّمَتْ مجموعـةَ رُؤىٰ ذات قيمـة كبـيرة، مـا زِلْـتُ أعتقـدُ بصـحَّتِها. من بين هذه الرُّؤىٰ، ربَّما أهمُّهـا هـي الرُّؤيـةُ القائلـةُ بـأنَّ علينـا أنْ نكـونَ عـلىٰ وعيٍّ دائم بأنَّ كـلَّ فلْسـفةٍ (بقَـدْرِ مـا هـي بحثٌ تصـوُّريٌّ) يجبُ أنْ تكـونَ مهتمَّـةً بالاسـتعمالِ اللُّغـوي الصَّـحيح. فـنحنُ لا يمكنُنـا الوصـول إلىٰ التصوُّراتِ إلَّا من خلالِ دراسـة الاسـتعمال اللُّغـوي، ومـن ثَـمَّ، مـن خـلال اسـتعمال هـذه الكلـمات يـتمُّ توضـيح التصـوُّرات[1]. هـذه الرُّؤيـةُ ذكَّرتنـي بعُلُـماءِ الكتـاب المقـدَّس الـذين ذكـرْتهُم مـن قبْـلُ. ومثـالُ ذلـك أبي، الـذي كان يُدرِّسُ بعض تصوُّرات العهـدَ القـديم الغريبـة، عـن طريـقِ تجميـعِ أكـبرَ قدرٍ ممكـنٍ مـن السِّـياقات التـي يمكـن أنْ يعثُـرَ عليهـا، لـيفحَصَ بعـد ذلـك كيف استُعْمِلَت تلك الكلمةُ العِبْرية في تلك السِّياقات المختلفة.

باعتبارِهـا مـؤثِّرةً وبقـوَّةٍ في تطـوُّر تـوجُّهي الفَلْسـفي في تلـك الأيّـام، هـذه (الفَلْسـفة الجديـدة) لم تكـن جديـدةً ولا ضـيِّقةً جـدّاً بالضَّـرورةِ، كـما يبدو في بعـضِ الأحيـان. (الثـورة) اسـتبطنت تركيـزاً عـلىٰ النَّحـو التصـوُّري (conceptual grammar)، أي اسـتعمال التصـوُّرات والتَّعبـير عنهـا بلُغـةٍ عاديَّـة، وهـي الدِّراسـةُ التـي يُفـتَرض أنْ تُسـاعِدَ عـلىٰ تـلاشي العديـد مـن المشـاكلِ في الفَلْسـفة. وإحـدىٰ هـذه المشـاكل تتعلَّـقُ بـما إذا كـان بمقـدورِنا

(١) بعبـارة أُخـرىٰ: معنـىٰ الألفـاظ لا يتوقَّـف عـلىٰ تعريفهـا، بـل يـتجلَّىٰ معناهـا مـن خـلال الطريقـة التـي تُستَعمل بها تلـك الألفـاظ، مـع إشـارة خاصَّـة إلىٰ التمييـزات المتعـدِّدة التـي يـتمُّ الكشـف عنهـا والفـروق الدقيقـة التـي تظهـر في الظـروف المتباينـة لاسـتعمال الألفـاظ. هـذه الفكـرة مركزيـة في مدرسـة أكسـفورد في التحليـل اللغـوي، حتَّـىٰ قـال أحـدهم: (إنَّ الفكـرة القائلـة: إنَّ المعنـىٰ يـتجلَّىٰ مـن خـلال الاسـتعمال، لهـي واحـدة مـن أعظـم مـآثر الفلسفة المعاصرة). (المراجع).

الوصول إلىٰ معرفةٍ عن طريقِ التعرُّف علىٰ العالَمِ (الخارجي). تمَّ صياغةُ هذه المشكلة لأوَّلِ مرَّةٍ في القَرْنِ السَّابع عشر من قِبَلِ ديكارت، وتمَّ قبولُها لاحقاً دون تساؤل من قِبَلِ أكثر العظماء الذين جاؤوا بعدَهُ، أمثال لوك وباركلي وهيوم وكانت[1].

لكن هذه (الفَلْسفة الجديدة) رفَضَت هذه المشكلة من الشَّكِّ الدِّيكارتي من خلالِ رفض نقطة بدايتِها التي تقول: هو موضوعٌ غيرُ مادّيٍّ ذلك الشَّخصُ الذي لديهِ خبرةٌ خاصَّةٌ فقط[2].

هذا الاعتقادُ كان غيرُ مُنْسجمٍ مع الافتراضِ المتضمَّن في خطاباتِنا المتكرِّرة، الذي يقول بأنَّا نحصلُ علىٰ معرفةٍ من خلالِ التعرُّف علىٰ العالَمِ الفيزيائي وعلىٰ بقيَّةِ البشر[3].

---

(١) يتحدَّث (فلو) هنا عن مشكلة الإدراك الحسّي في نظرية المعرفة. حيث توجد نظريات متعدِّدة تجاهها، من أهمِّها:

١ - الواقعية السَّاذجة (توماس ريد).

٢ - الواقعية التمثيلية (جون لوك).

٣ - نظرية المعطيات الحسّية (باركلي، وهيوم، وكانت).

٤ - نظرية اللغة العادية (فتجنشتين).

وكأنَّ (فلو) يريد أن يقول: إنَّ نظرية اللغة العادية (التي ناصرها بتأثير مدرسة أكفسورد)، تقف موقفاً ناقداً من نظرية المعطيات الحسّية، وتقف موقفاً وسطاً بين الواقعية السَّاذجة والواقعية التمثيلية، وخلاصة هذا الموقف أنَّنا نُدرِكُ الأشياءَ إدراكاً مباشراً، ويصبحُ الإدراكُ صحيحاً إذا توفَّرت الشُّروط الفيزيائية والنفسية والفسيولوجية السويَّة. (المراجع).

(٢) بعبارةٍ أُخرىٰ: كأنَّ نقطة البداية عند ديكارت - ومن سار علىٰ دربِهِ - تفترض إمكانية تحقُّق عِلْم حضوري عند الإنسان (بحيث يُدرِك ذاته بذاتِهِ ويمُرُّ بخبراتٍ حضورية) دون أنْ يكون له جسم مادّي. (المراجع).

(٣) ديكارت، ومن جاء بعده، كانوا يرون أنَّنا نعي بحالاتنا النفسية وأحداثنا العقلية بنحو محدَّد ومتميِّز إحداها عن الأُخرىٰ، ونضع لكلٍّ منها لفظاً، مثل: (ألم)، (إدراك)، (تذكر)، مثل ما ⇦

⇦ أنَّنا حين نرىٰ أشياء مادّية، نُعطي لكلٍّ منها لفظاً يدلُّ عليها، مثل: (باب)، (شجرة)... الخ. كما نُقرِّر أنَّنا نعي بحالاتنا الباطنية متميِّزة بطريقة الاستبطان، سواء صاحبها سلوك بدني ظاهر أم لم يصاحبها، وأنَّ تلك الحالات الباطنية تتَّسم بالخصوصية المطلقة، أي إنَّه لا يعي تلك الحالات إلَّا صاحبها، ولا يشاركه فيها سواه (أي يعيها بعلمٍ حضوري).

لكن هذه الفلسفة الجديدة - التي كان لفتجنشتين بصمة قويَّة فيها - هاجمت هذه الرؤية، وأكَّدت علىٰ أنَّنا لا نعي حالاتنا النفسية وحوادثنا العقلية متميِّزة إحداهما عن الأُخرىٰ، وأنَّنا لا نعيها باستبطان. ومن المشكوك به أن نكون قادرين علىٰ عزل حالة باطنية عن سائر الحالات الأُخرىٰ المتداخلة معها دائماً. كما تنكر هذه الفلسفة أنَّنا نصل حتَّىٰ إلىٰ الوعي بتلك الحالات، وإنَّما نُدرِك أنَّ لدينا تلك الحالات والعمليات حين تبدو في أقوال أو أفعال سلوكية تقبل الملاحظة العامَّة الخارجية. وفي ذلك يقول فتجنشتين عبارته المشهورة: (العملية الداخلية في حاجة إلىٰ معايير خارجية).

ولذلك تنتهي هذه الفلسفة إلىٰ رفض نقطة ديكارتية أُخرىٰ، وهي أنَّ وجود الجسم الإنساني أمر ثانوي عارض للحياة الشعورية، وأنَّ من الممكن تصوّر نفس بلا جسم. لذا ترىٰ هذه الفلسفة أنَّه ما دمنا لا نعي بحياتنا الشعورية إلَّا في صورة السلوك، فإنَّ الجسم شرط ضروري لوجود تلك الحياة، وليس مجرَّد عرض حادث. وإذا طبَّقنا هذا الموقف علىٰ الإدراك الحسّي كحالة باطنية، فلن يكون شيئاً سوىٰ الرؤية الفعلية لشيء أمامي أو السمع الفعلي للصوت أو اللمس الفعلي للشيء ونحو ذلك، دون الحديث اليائس عن معطيات حسّية وبحث عابث في طبيعتها، فهذه أشياء لا نعيها. والخلاصة أنَّنا نُدرك الأشياء مباشرة دون وسائط افتراضية (مثل المعطيات أو الصور الذهنية). لذا تحدَّث فتجنشتين عن (استحالة اللغة الخاصَّة).

ثمّ جاء جلبرت رايل، فكان يُسمّي ثنائية ديكارت (بين العقل والجسم): (الأُسطورة الديكارتية Cartesian myth). وكان يُسمّيها أيضاً: (عقيدة الشبح في الآلة the dogma of the ghost in the machine)، ويقصد بها أنَّ الجسم الإنساني عند ديكارت آلة، تخضع لقوانين الميكانيكا والكيمياء والأحياء وعلم وظائف الأعضاء، وأنَّ بداخل هذا الجسم عنصراً غريباً يُسمّيه ديكارت: (النفس) أو (العقل). لم ينكر رايل أنَّ للإنسان نفساً وعقلاً، لكنَّه رأىٰ أنَّ صياغة ديكارت لمشكلة النفس والجسم تجعلها مستحيلة الحلِّ، في اعتباره النفس شيئاً مثل ما أنَّ الجسم شيء. للجسم حالات وعمليات وحوادث تخضع لقوانين تجريبية، هذا حقٌّ، لكن ديكارت نظر ⇦

لكن كما قُلْتُ، لم يكن هذا جديداً بشكلٍ كامل؛ إذ لو كان أفلاطون[١] الذي كتَبَ (محاورة ثياتيتوس)، وأُرسطو[٢] الذي كَتَبَ (الأخلاق إلىٰ نيقوماخوس)، في ندوةٍ يُديرُها رايل وأوستن، لشعرا أنَّهما في قمَّةِ الرَّاحة وكأنَّهُما في بيتِهِما[٣].

* * *

⇦ إلىٰ النفس أيضاً علىٰ أنَّها شيء له كيانه المستقلّ، وأنَّ حالاتها وعملياتها وحوادثها من طبيعة أُخرىٰ. يُعقِّب رايل علىٰ ذلك بقوله: إنَّ تصوّر النفس أو العقل سلوكي أو استعداد سلوكي (dispositional concept)، بينما تصوّر الجسم شيء (substantial concept). الحديث عن عقل إنسان ما، ليس حديثاً عن شيء، تسكن فيه حالات وعمليات غير فيزيائية، كالإحساسات والذكريات والخيالات والانفعالات والعواطف والرغبات والإرادات ونحو ذلك، إنَّه حديث عن قدرات هذا الإنسان وميوله واستعداداته. وعلىٰ هذا الأساس، الإدراك عند رايل لحظي، لا جهد فيه، وفعل مباشر، لا يحتاج لعمليات تسبقه كشروط له. فحين يحدث الإدراك لا معنىٰ للسؤال: كيف حدث؟ وما أسباب حدوثه؟ وهل تدخَّلت عوامل الإحساس والتذكّر والتخيّل؟ فأنت لا تأخذ دروساً في كيفية الرؤية أو السمع أو الشمّ، ولا تقوم بتدريب سابق واكتساب مهارات. لذا نحنُ - في نظرِهِ - نُدرِكُ الأشياءَ في العالم الطبيعي إدراكاً حسّياً مباشراً. (المراجع).

(١) فيلسوف يوناني شهير (٣٤٨ ق.م)، رياضي، كتب عدداً من الحوارات الفلسفية، ويُعتَبر مؤسِّساً لأكاديمية أثينا، وهي أوَّل معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلِّمه سقراط وتلميذه أُرسطو. وضع أفلاطون الأُسس الأُولىٰ للفلسفة الغربية والعلوم. نبوغ أفلاطون تجسَّد في أُسلوبه ككاتب واضح في محاوراته السقراطية (نحو ثلاثين محاورة)، التي تتناول موضوعات فلسفية مختلفة: المعرفة، المنطق، اللغة، الرياضيات، الميتافيزيقا، الأخلاق، والسياسة. (المراجع).

(٢) فيلسوف يوناني شهير (٣٢٢ ق.م)، تلميذ أفلاطون، ومعلم الإسكندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكّرين، غطَّت كتاباته مجالات عدَّة، منها: الفيزياء، الميتافيزيقا، الشعر، المسرح، الموسيقىٰ، المنطق، البلاغة، اللغويات، السياسة، الأخلاق، وعلم الأحياء. وهو أحد مؤسِّسي الفلسفة الغربية.

(٣) لأنَّ نظرية المعرفة ومشاكلها، والاتِّجاهات المختلفة حولها، كانت معروفة عند فلاسفة اليونان، أمثال أفلاطون وأُرسطو. (المراجع).

تطوُّرات في الفَلْسفة
(PROGRESS IN PHILOSOPHY)

قبلَ مغادرتي أكسفورد، سَلَّمْتُ للناشِرِ مادَّةً مُجمَّعةً للسِّلْسلةِ الأُولىٰ من كتابِ (المنطق واللُّغة). وبعد ذلك بفترةٍ قصيرةٍ تبعتها السِّلسلةُ الثانية. وقد تمَّ تحريرُ كِلا المجلَّدين، وقد كتبْتُ مقدِّمةً قصيرةً لكليهما؛ الأُولىٰ في عام (١٩٥١م)، والثانية عام (١٩٥٣م). بعد وقتٍ قصيرٍ من تعييني كمُحاضرٍ في جامعةِ أبرْدين، وجدْتُ نفسي أتصرَّفُ كمتحدِّثٍ رسميٍّ غير معيَّنٍ في أسكتلندا لـ (فَلْسفةِ أكسفورد اللُّغوية). وعندما قامَ نادي الكشَّافة الأسكتلندي الفَلْسفي - وهو تجمُّعٌ لجميعِ من يقومُ بتدريسِ الفَلْسفة في أسكتلندا - بإصدارِ مجلَّة جديدة بعنوان (الفَصْليَّة الفَلْسفية The Philosophical Quarterly)، احتوىٰ عددُها الأوَّل علىٰ هجومٍ لاذعٍ علىٰ مدرسةِ أكسفورد. وقد طلَبَ منِّي محُرِّرُ المجلَّة الرَّدَّ علىٰ هذا الهجوم. وكان ردِّي هو مقالُ: (الفَلْسفة واللُّغة)، وهو ما أصبحَ - بعد التَّعديل - الفَصْلَ التَّمهيدي لكتابٍ يتكوَّنُ من مقالاتٍ مُجمَّعةٍ تحتَ عنوان: (مقالاتٌ في التَّحليلِ التصوُّري Essays in Conceptual Analysis). تعرَّضتْ الحركةُ لنقدٍ من الجانبِ الإنجليزي عبْرَ مايكل دومِتْ (Michael Dummett)[1]، الذي وصَفَ الحركةَ بأنَّها (نتاجُ لُغةٍ

(١) فيلسوف إنجليزي (١٩٢٥ - ٢٠١١م)، متخصِّص في الفلسفة التحليلية وفلسفة المنطق، نادىٰ بالتكيُّف العرفي والمساواة.

عاديَّةٍ)، وادَّعىٰ بأنَّ (عضويَّةَ هذه المدرسة الفكرية تعتمدُ علىٰ التَّرشيحِ من قِبَلِ البروفيسور فلو)[١].

بالتأكيد كانت أعمالُ بعض المُمارسين للفَلْسفةِ الجديدة - وإنْ كان عدَدُهُم قليلاً جدَّاً - تافهةً، ومكرَّرةً، ولا طائلَ منها. وقد كان لي ردُّ فعلٍ علىٰ هذا التِّكرار وعدم الجدوىٰ، من خلالِ ورقةٍ بحثيَّةٍ كتبْتُها وقدَّمتُها في إحدىٰ الأنديةِ الثَّقافية، وكانت بعنوان (الأُمورُ التي تهُمُّ Matter That Matters). جادلْتُ فيها بأنَّه كان من الممكنِ ومن المُحبَّذِ التَّركيزُ علىٰ المشاكلِ التي يمكن أنْ يجِدَها المُهتمُّونَ بالفَلْسفة - حتَّىٰ الأشخاص العاديِّين غير الناضجين فلسفيَّاً - مهمَّةً وممتعةً، بدلاً من إضاعةِ الوقتِ والجهدِ في أُمورٍ وهميَّة.

بدأتُ أقتنعُ - كما كتبْتُ في كتابِ (مدْخل إلىٰ الفَلْسفةِ الغربية) - بأنَّه يمكنُ إحرازُ تقدُّم في الفَلْسفةِ علىٰ الرَّغمِ من غيابِ الإجماع. فالافتقارُ إلىٰ الإجماعِ في الفَلْسفةِ ليس بُرْهاناً مستقلّاً كافياً للقولِ بأنَّ الموضوعَ لا يمكن التقدُّمُ فيه. إظهارُ عدم وجود معرفة فَلْسفية، بدعوىٰ أنَّه سيظلُّ هناك من لا يَقْتَنِع، هي مغالطةٌ شائعةٌ صدرت حتَّىٰ من فلاسفةٍ معروفين مثل: برْتراند رَسِل. أمَّا أنا فأُسمِّيها (لكن سوفَ يظلُّ هناك دوماً من لن يقتنع علىٰ الإطلاق). هناك اتِّهامٌ حاصِلُهُ: أنَّ من المستحيلِ في الفَلْسفةِ أنْ تُثبِت لشخصٍ أنَّكَ علىٰ حقٍّ وأنَّه علىٰ باطل. ولكن الجزْءُ المفقودُ في هذه الحُجَّةِ هو التَّمييز بين إنتاجِ دليل وبين إقناعِ الشَّخص. الشَّخصُ قد يقتنع بحُجَّةٍ باطلة، وقد يظلُّ غير مقتنعٍ بحُجَّةٍ

(١) Michael Dummett, Truth and Other Enigmas (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1978), 431.

ينبغي القبولُ بها[١].

التقــدُّمُ في الفَلْسَــفةِ يختلــفُ عــن التقــدُّمِ في العِلْــم، ولكــن ذلــك لا يعني أنَّ التقـدُّمَ في الفَلْسـفةِ مسـتحيل. في الفَلْسـفةِ أنـتَ تُسـلِّطُ الضَّـوءَ علىٰ الطَّبيعـةِ الجوهريـةِ للاسـتدلالِ الاسـتنباطي؛ أنـت تُميِّـزُ بـين الأسـئلةِ حـول الحُجَجِ الصَّـحيحة وغـير الصـحيحة وبـين الأسـئلةِ المُتعلِّقـةِ بصـدْقِ وكـذِبِ مُقـدِّماتِها أو نتائِجِهـا؛ أنـت تُبـيِّنُ الاسـتعمالَ الصَّـارمَ لمصْـطلحِ (المغالطـة)؛ أنت تُحدِّدُ وتشرَحُ مثل هـذه المغالطـات مـن قبيـل (لكـن سـوف يظـلُّ هنـاك دوماً من لن يقتنع علىٰ الإطـلاق). إلىٰ الحـدِّ الـذي تُنجَـزُ فيـه هـذه الأُمـور، ويـتمُّ الوصـولُ إليهـا عـبرَ أفضـلَ تفكـيرٍ منطقـيٍّ، يمكـنُ رؤيـةُ التقـدُّم الحاصل حتَّىٰ لو ظلَّ الإجماعُ والإقناعُ أمراً غير مُتحقَّق وغير كامل.

* * *

(١) يقصـد (فلـو) بأنَّنـا لا بـدَّ أن نُميِّـز بـين كـون الـدليل منتجـاً، واقتنـاع الشـخص بالنتيجـة. فلـيس بمقـدورك أن تُحيـل عقـلَ غـيرك مـن مقـدّمات إلىٰ نتيجـة، وإنْ كانـت الإحالـة مشـروعة منطقيـاً، وإنْ كانـت المقـدّمات صـحيحة، إنْ كـان قـد قـرَّر سـلفاً أنْ لا يقتنـع بذلك. لذا مـا يمكـن القيـام بـه في حقـل الفلسـفة لإحـراز تقـدُّم فيهـا، هـو تقـديم مقـدّمات صـحيحة، وانتقـال مشـروع منطقيـاً مـن المقـدّمات إلىٰ النتيجـة، أمَّـا إجبـار عقـل الآخـرين علىٰ الاقتناع، حتَّىٰ يتحقَّق الإجماع، فهذا ما لا يتحقَّق عادةً. (المراجع).

إعطاء اهتمام أكثر للإلحاد
(PAYING MORE ATTENTION TO ATHEISM)

كـان النَّـادي السُّـقراطي – الـذي يرأسُـهُ في ذلـك الوقـت سي. إس. لـويس – فـاعلاً خـلال ذروة نشـاط (الفَلْسـفة الجديـدة). ووجـدْتُ مبـدأَ سقراط القائل في (اتَّبع الـدَّليل أينما قـادَكَ) بشـكلٍ متزايـد هـو المبـدأ المُوجِّـه في تطـويرِ بعـض رُؤاي الفَلْسـفية وتعـديلِها. وخـلال هـذه التجمُّعـات في النَّـادي السُّـقراطي أيضـاً بـدأ فلاسـفةُ (اللُّغـة) – الـذين كـانوا يُتَّهمـونَ بتسـفيهِ الالتـزام بالضَّـوابطِ التـي كانـت معتـبرةً في زمـانٍ سـابق – باستكشافِ ما ميَّزَهُ الفيلسوفُ الألمـاني (كانـت) عـلىٰ أنَّـه أعظـمُ ثلاثـة أسـئلة في الفلسـفة: الإلـه، الحُرِّيـة والخُلُـود. كانـت مسـاهمتي في هـذا المنتـدىٰ مـن خلالِ ورقةٍ بحثيَّةٍ بعنوان: (اللَّاهوتُ والتَّكذيب).

كـما ذكـرتُ سـابقاً، الأُسُـسُ التـي بنيْـتُ عليهـا اقتنـاعي بالإلحـاد، عندما كنْتُ في الخامسـة عشـرة، كانـت ناقصـةً بوضـوح. لقـد كانـت مبنيَّـةً علىٰ ما أسميتُهُ لاحقاً: (عنادِ صِغارِ السِّنِّ):

١ – مشـكلةُ الشَّـرِّ كانـت بالنِّسـبةِ لي دحضـاً حاسـماً لوجـودِ إلـهٍ كاملِ الخيرِ وكاملِ القُدْرة.

٢ – و(الـدِّفاعُ عـن حُرِّيـةِ الإرداة) لا يعفـي الخـالِقَ مـن مسـؤوليَّةِ عدم إتقان الخَلْق.

منذُ أيَّام المدرسة، أوليتُ اهتماماً إضافياً للأسبابِ المؤيِّدةِ والمضادَّةِ في الوصولِ إلىٰ النتائجِ الإلحادية. بدايتي تمثَّلت في عمليَّةِ البحث في مقالةِ (اللَّاهوتُ والتَّكذيب).

وقد تمَّ عرْضُ مقالة (اللَّاهوتُ والتَّكذيب) لأوَّلِ مرَّةٍ في صيفِ عام (١٩٥٠م) في النَّادي السُّقراطي في أكسفورد. وتمَّ بعد ذلك نَشْرُها في مجلَّةٍ لطلبةِ البكالوريوس، اسمُها (الجامعة). أُعيدَ طباعة المقالة لأوَّلِ مرَّةٍ في عام (١٩٥٥م) في كتاب (مقالاتٌ جديدةٌ في الفَلْسفةِ اللاهوتية)، وهو عبارةٌ عن مقالاتٍ مُجمَّعةٌ قُمْتُ بتحريرِها مع ألاسْدير ماكْلنتير (Alasdair MacIntyre). واحتوىٰ الكتابُ علىٰ مجموعةٍ من الإسهاماتِ القيِّمة في فَلْسفةِ الدِّين وفقاً لرؤيةِ (الفَلْسفة الجديدة). وقد وصفت مجلَّةُ (مُلْحق التايمز الأدبي Times Literary supplement) هذا الكتابَ بأنَّه (إضافةٌ جديدةٌ بشكلٍ جدِّي).

كان هدفي الأساسي من مقالِ (اللَّاهوتُ والتَّكذيب) هو بيانُ طبيعة ادِّعاءات اللَّاهوتيِّين المؤمنين بالإله. تساءلْتُ: تعدُّد القيود الذي يُحيطُ بالكلامِ اللَّاهوتي هل ينتجُ عنه إماتةَ الميِّت[1] بألفِ قِيْد؟ إذا أتيْتَ بادِّعاءٍ، عليكَ أنْ تستبعدَ (تحذِف) بعضَ الأشياء كي يكون ادِّعاؤُكَ مقبولاً. علىٰ سبيلِ المثال، الادِّعاءُ بأنَّ الأرضَ كرويةٌ يستبعدُ إمكانيةَ أنْ تكونَ مسطَّحة. ورغمَ أنَّها تبدو مسطَّحة، إلَّا أنَّ هذا التَّناقُضَ الواضح يمكن تفسيرُهُ عن طريقِ حجم الأرض الهائل، والجهةُ التي ننظُرُ منها إلىٰ الأرضِ... الخ. ولذلك، عندما يضيفُ المرْءُ قيْداً مُناسباً، فالادِّعاءُ قد

---

(١) كناية عن عدم تأثير إضافة القيود في حلِّ المشكلة، إذ الميِّت لا يمكن إماتته. (المراجع).

يصبحُ متَّسِقاً مع الظَّاهرةِ التي تبدو متناقضةً معه[١]. ولكن إذا استمرَّت الظَّاهرةُ المتناقضةُ مع وجودِ هذا القِيْد، فإنَّ الادِّعاءَ يصبحُ مشكوكاً فيه.

إذا كُنَّا ندَّعي بأنَّ الإلهَ يُحِبُّنا، فإنَّ علينا أنْ نتساءَلَ عن الظَّواهرِ التي يستبعِدُها هذا الادِّعاء. ومن الواضحِ أنَّ الألمَ والمعاناةَ تُمثِّلُ تحدِّياً لهذا الادِّعاء. المُوحِّدونَ يقولون لنا: إنَّ إضافةَ القيود المناسبة يمكن أنْ تتوافقَ مع وجودِ الإلهِ وحُبِّهِ للبشر. ولكن حينئذٍ السُّؤالُ الذي يطرَحُ نفسَهُ: لماذا لا نفترِضُ بكلمةٍ أنَّ الإلهَ لا يُحِبُّنا؟ المُوحِّدونَ، كما يبدو، لا يسمحونَ بحُسْبانِ أيِّ ظاهرة علىٰ أنَّها ضدّ الادِّعاء بأنَّ الإلهَ يُحِبُّنا. ولكن هذا يعني أنَّه لا شيءَ يُحسَبُ لصالِحِ هذا الادِّعاء[٢]. وعندها يصبحُ الادِّعاءُ فارغاً. ولذلك أقول: إنَّ الفرضيَّةَ الرَّائعة يمكن أنْ يُقضىٰ عليها بواسطةِ القيود الكثيرة.

رغمَ أنَّ قَصْدي من وراءِ طرح هذه الأسئلة يبدو جليَّاً، إلَّا أنَّني كثيراً ما أُواجَهُ بالادِّعاءات بأنَّني كنْتُ أشرحُ وجهةَ نظري حول معنىٰ - أو غالباً لا معنىٰ - اللُّغة الدِّينية بأسرِها. وكذلك الحالُ مع الادِّعاءاتِ السَّائدة بأنَّني مُنجذِبٌ ومعتمدٌ علىٰ مبدأ التحقُّق (أو علىٰ الأقلّ اتَّخذْتُهُ كمُسلَّمة) الذي تبنَّتْهُ جماعةُ فيينا، التي تُمثِّلُ مدرسةَ الوضعية المنطقية،

---

(١) يريد (فلو) أنْ يُبيِّن أنَّ إضافةَ قِيْد (كبيرة وهائلة) للكرة الأرضية، يرفع التناقض الظاهري المُتوهَّم بين النظرية العِلْمية المُثْبِتة لكروية الأرض وإحساسنا الوجداني بتسطُّح الأرض. (المراجع).

(٢) أي إنْ لم يسمح المؤمنون بالإله بحسبان بعض الظواهر علىٰ أنَّها ضدّ وجود الإله، فلا يمكنهم حسبانها علىٰ أنَّها لصالح وجوده. فإنْ قبلوا بأنَّ بعضها لصالح الادِّعاء بأنَّ الإله محبٌّ للبشر، فلا بدَّ أنْ يقبلوا بأنَّ بعضها الآخر لصالح الادِّعاء بأنَّه غيرُ محبٍّ للبشر. (المراجع).

وهـو المبـدأ القائـل بـأنَّ العبـارات التـي يمكـنُ التحقُّـق منهـا باسـتخدامِ مناهج العُلُوم، هي وحدَها التي لها معنىٰ.

ولكـن في الحقيقـةِ لم أُكَـوِّن قـطُّ أطروحـةً شـاملةً عـن وجـودِ أو عـدم وجود اللُّغـة الدِّينيـة ككُـلٍّ. لقـد كـان هـدفي الأسـاس في بحـثِ (اللّاهـوتُ والتَّكـذيب) وضْـعُ بعـض (البهـارات) عـلىٰ الحـوارِ الـدَّائر بـين الوضـعيةِ المنطقية والـدِّين المسـيحي، وإقامـة حـوار بـين الإيـمانِ بالإلـهِ وعـدمِ الإيـمانِ بِهِ علىٰ أسـاسٍ مختلـفٍ أكثـرَ فائـدة. لم أكُـن أُقـدِّمُ مـذهباً متكـاملاً حـول كـلِّ اعتقاد ديني أو كلِّ لُغة دينيـة. أنـا لم أقُـل بـأنَّ الاعتقـادَ الـدِّيني لا معنـىٰ لـه. لقـد كنْـتُ، باختصـار، أتحـدَّىٰ المُوحِّـدين كـي يشـرحوا عباراتهُم بشـكلٍ يمكنُ فهمُهُ، في ضوءِ المعطيات المتعارضة.

* * *

التعلُّم من الاختلاف

(LEARNING FROM DISAGREEMENT)

واجهت المقالةُ الكثيرَ من الرُّدود، ومن هذه الرُّدود ما ظَهَرَ بعد عقودٍ من نَشْرِ المقالة، وكثيرٌ منها ساعدني في تهذيبِ - وفي بعضِ الأحيان تصحيحِ - آرائي. لكن أكثر الرُّدود حِدَّةً في الانتقاد ربَّما كان أوَّلُها، وجاء من قِبَلِ آر. إم. هير (R.M Hare)[1]، الذي أصبحَ لاحقاً أُستاذَ الفَلْسفة الأخلاقية في أكسفورد.

دعا هير إلىٰ عدمِ تفسير الكلام الدِّيني باعتبارِهِ جُمَلاً، بل باعتبارِهِ تعبيرات عمَّا أسماهُ بـ (a bilk)[2]، ويقترب من معنىٰ المقاربة العامَّة أو التوجُّه العامّ. هذا التوجُّه العامّ، كما وصفَهُ البروفيسور هير، عبارةٌ عن تفسيرٍ لخبْرَتِنا التي لا يمكنُ التحقُّق منها أو تكذيبُها. وحسْبَ عِلْمي، لم يُطوِّر هير هذه الفكرةَ بشكلٍ مكتوب، ولكن لا أعتقدُ أنَّ مقولةَ هير سوف تُرْضي المؤمنينَ بالإلهِ طالما أنَّها تُنكِرُ أيَّ أساسٍ عقلانيٍّ (rational) للاعتقاد[3].

---

(١) (١٩١٩ - ٢٠٠٢م)، فيلسوف إنجليزي، معنيٌّ بفلسفة الأخلاق.

(٢) هذه الكلمة هولندية، وتعني حرفياً (بحث). (المراجع).

(٣) بعبارة أُخرىٰ: يرىٰ (هير) أنَّ أيَّ كلام يراه المؤمنون بالإله أنَّه يتحدَّث عن حقائق دينية، ما هو إلَّا انفعالات ومشاعر وخبرات ذاتية خاصَّة، لا ترتكز علىٰ معطيات موضوعية، حتَّىٰ يقوم علىٰ أساسها اعتقاد رشيد وعقلاني. (المراجع).

في النِّقاشِ الأساسي، قالَ باسِل ميتْشِل (Basil Mitchell)[١] الذي خلَفَ سي. إس. لويس في رياسةِ النَّادي السُّقراطي: (إنَّ هناكَ خطأً في عَرْضي لوجهةِ النَّظَر اللَّاهوتية. فالكلامُ اللَّاهوتي يجب أنْ يكونَ أحكاماً مؤكَّدة، ولكي يكون كذلك لا بدَّ من أنْ يكونَ هناك ما يُعتَبرُ مُنافياً ومُكذِّباً لما يدَّعونَ حقَّانيَّتَهُ). وأشارَ ميتْشِل إلىٰ أنَّ اللَّاهوتيينَ لا ينْفونَ ذلك، فالمشكلةُ اللَّاهوتيةُ للشَّرِّ تظهَرُ لأنَّ وجودَ الألَمِ يبدو أنَّه يُحسَب ضدَّ حقيقة أنَّ الإلهَ يُحِبُّ البشر. كان ردُّ اللَّاهوتيين بالتمسُّكِ بمقولةِ الإرادة الحُرَّة. ولكن ميتْشِل اعترفَ بأنَّ المعتقدينَ بالإله يقعونَ عادةً في محذورِ تحويل أحكامِهِم إلىٰ صِيَغٍ فارغةٍ من المعنىٰ.

في كتابِ ميتْشِل (الإيمانُ والمنطق Faith and Logic)، قدَّم آي. إم. كرومبي (I.M.Crombie) – وهو فيلسوفٌ معروفٌ بأعمالِهِ عن أفلاطون – معالجةً أفضلَ بكثيرٍ لهذا الموضوع. يقولُ كرومبي: (إنَّ اللَّاهوتيِّين يعتقدونَ بغيبٍ يتجاوزُ التَّجربة). ولكن كرومبي يدَّعي أنَّ بمقدورِهِ تتبُّع بصماتِ هذا الغيب في التَّجرُبة. فضلاً عن ذلك، يؤكِّدُ المؤمنونَ بالإلهِ علىٰ أنَّهم عندما يُعبِّرونَ عن اعتقادِهِم، فإنَّهم مُجْبَرونَ علىٰ استعمالِ لُغةٍ محكومةٍ بقوانين فيها مفارقات[٢].

لاحظَ كرومبي أنَّه يُمكِنُكَ فهم العبارات اللَّاهوتية فقط عندما تكونُ منصفاً في ثلاثِ قضايا:

١ – المؤمنونَ بالإلهِ يعتقدونَ بأنَّ الإلهَ كائنٌ متعال، وأنَّ العباراتَ التي تتحدَّثُ عنه تنطبِقُ عليه، ولا تنطبِقُ علىٰ العالَمِ الخارجي.

---

(١) (١٩١٧ – ٢٠١١م)، فيلسوف إنجليزي، معنيٌّ بالمسيحية وفلسفة الدين.

(٢) I. M. Crombie, "The Possibility of Theological Statements," in Faith and Logic, ed Basil Mitchell (London: Allen & Unwin), 50.

٢ - المؤمنونَ بالإلهِ يؤمنونَ بأنَّ الإلهَ متعال، ولذا فهو يتجاوزُ الإدراك (لا يمكن إدراكُهُ).

٣ - بما أنَّ الإلهَ سِرٌّ (غيبٌ)، فلكي نعيهِ لا بدَّ أنْ نتحدَّثَ عنه بطريقةٍ مفهومة. فنحنُ يمكِنُنا فقط أنْ نتحدَّثَ عن الإلهِ من خلالِ صور. والعباراتُ اللَّاهوتية عبارةٌ عن صورٍ بشريَّةٍ للحقيقةِ المقدَّسةِ التي يمكنُ التعبيرُ عنها بالأمثال[١].

جاءت ردودٌ أُخرىٰ علىٰ مقالةِ (اللَّاهوتُ والتَّكذيب)، من ضمْنِها ردُّ ريبرن هيمْبِك (Raeburne Heimbeck)، والإنجيلي المقدَّس أريك مَسْكال (Eric Mascall) في كتابِهِ (اللَّاهوتُ والمعنىٰ Theology and Meaning).

اتَّهَمَ هيمْبِك - وهو أُستاذُ الفَلْسفةِ والدِّراسات الدِّينية بجامعةِ واشنطن الوسطىٰ - المقالةَ بارتكابِ ثلاثة أخطاء مهمَّة:

الخطأُ الأوَّل: أنهَّا افترضت أنَّ معنىٰ أيَّ جملة هو مضمونهُا التَّجريبي بذاتِهِ.

الخطأُ الثاني: أنهَّا تضمَّنت خطأً، وهو أنَّ ما يُؤخَذ علىٰ أنَّه ضدُّ معتقدٍ هو نفسُهُ ما لا يتوافق معه[٢].

أمَّا الخطأُ الثالث: فهو أنهَّا افترضت أنَّ العبارات المُتعلِّقة بالإله المُعبِّرة عن حُبِّهِ أو وجودِه، هي عباراتٌ لا يمكنُ تكذيبُها من حيثُ المبدأ.

---

(١) Crombie, "The Possibility of Theological Statements," 72 ,73.

(٢) يقصد (فلو) أنَّ هناك فرقاً بين القول بأنَّ مشكلة الشرِّ (لا تتوافق مع الاعتقاد) بقدرة الله المطلقة وحبِّه المطلق للبشر من ناحية، والقول بأنَّ مشكلة الشرِّ (ضدّ الاعتقاد) بوجود إله. فالأوَّل لا يُنكِره المؤمنون بالإله، ويسعون لرفع عدم التوافق، في حين أنَّهم يُنكِرون الثاني تماماً. وبالتالي مقالة (فلو) القديمة لم تُفرِّق بين هذين الأمرين. (المراجع).

ولكـن الخطـأُ الرَّئيســي - حسْـبَ وجهـةِ نظـرِهِ - أنَّ المقالـةَ حـدَّدَت أُسُس الاعتقاد بصحَّةِ أو كـذِبِ العبـارة مـع الشُّـروطِ التـي تجعلُهـا صـادقةً أو كاذبة[١].

نبَّـه ماسْـكال (Mascall) - مسـتعيناً بفكـرِ فتجنشـتين - إلىٰ أنَّنـا نستطيعُ اكتشافَ مـا إذا كـان للعبـارةِ معنـىٰ، فقـط مـن خـلالِ قـدرةِ النـاسِ علىٰ فَهْمِها في السِّياقِ اللُّغوي وأجواءِ الجماعةِ التي تُستعمَلُ فيه[٢].

استشـهدْتُ - بتوسُّـعٍ نوعـاً مـا - بهـذه الـرُّدود لأُوضِّـحَ دور مقالـة (اللَّاهـوتُ والتَّكـذيب) في تحفيـزِ ظهـور موجـاتٍ جديـدة مـن الأفكـارِ، سـاعدت في تحريـكِ الميـاه الرَّاكـدة للخطـابِ اللَّاهـوتي. وقـد استمرَّ هـذا النِّقاشُ حتَّىٰ يومنا هـذا. وفي الحقيقـةِ، صَـدَرَ عـن مجلَّـةِ ريتشـموند للفَلْسـفة (Richmond Journal of Philosophy) عـددٌ في عـامِ (٢٠٠٥م)، احتـوىٰ عـلىٰ مقالٍ يُناقِشُ فائدةَ حُجَجي التي قدَّمتُها منذُ عام (١٩٥٠م).

لقـد كـان لهـذه الـرُّدود أثـرٌ عـليَّ، وعـلىٰ آرائـي الفَلْسـفية. وكيـف لا تُـؤثِّرُ هـذه الـرُّدودُ إذا مـا كنْـتُ مُتَّسـقاً مـع نفسـي في اتِّبـاعِ الـدَّليل أينـما قادني؟ في الطَّبعةِ البرونزيـة للمقالـة، اعترفْـتُ بصـحَّةِ اثنـين مـن الانتقـاداتِ المُوجَّهـة للمقالـة. انتقـادُ باسِـل ميتْشِـل قـادني إلىٰ التَّفكـيرِ في غرابـةِ مـوقفي مـن اللَّاهـوتيِّين. فقـد بـيَّنَ ميتْشِـل أنَّ اللَّاهـوتيين لا يُنكِـرون حقيقـة أنَّ مسـألةَ الألم تُسـجِّل ضـدّ الحكـم بـأنَّ الإلـهَ يُحِبُّ البشـر، وهـي بالتَّحديـد التـي تُولِّـد مشـكلةَ الشَّـرِّ اللَّاهوتيـة. أنـا أعتقـدُ أنَّـه كـان عـلىٰ صـوابٍ في ذلك. كـما أدركْـتُ قـوَّةَ نقـد همْبِـك، وقُلْـتُ بـأنَّني كنْـتُ عـلىٰ خطـأ في عـدمِ

---

(١) Raeburne Heimbeck, Theology and Meaning (London: Allen & Unwin, 1969), 123 ,163.

(٢) Eric L. Mascall, The Openness of Being (Philadelphia: Westminster, 1971), 63.

التَّمييـز بـين (اعتبـارِهِ ضـدّ) وبـين القـولِ (بأنَّـه لا يتوافـق مـع). حُجَّتـي الأساسية تنصبُّ بشكلٍ مباشرٍ علىٰ الأمرِ الثاني لا الأوَّل.

* * *

الإله والفَلْسفة

(GOD AND PHILOSOPHY)

بعد إحدىٰ عشرة سنة من نَشْرِ (مقالات جديدة)، نَشَرْتُ كتابَ (الإله والفَلْسفة). كانت محاولةً منِّي لتقديمِ واختبارِ التَّوحيد المسيحي. لم أجِد أيَّ عرْضٍ سابقٍ كافياً ومقبولاً لهذه المسألة، بما في ذلك العَرْض الذي كان مقبولاً علىٰ نطاقٍ واسعٍ من قِبَلِ المعاصرين المعتقدين بالإله. وقد طلبْتُ من بعضِ الأصدقاء المسيحيِّين وبعضِ الزُّملاء أنْ يُقدِّموا لي اقتراحات في هذا الموضوع. ولكنِّي وجدْتُ القليلَ من الذي يستحقُّ الاهتمامَ به ضمْنَ ما قُدِّم، أو لم أجدُ مساحاتٍ مشتركةٍ بين تلك المقترحات. ولذلك قُمْتُ بتجميعِ أقوىٰ الحُجَج من عدَّةِ مصادر، ودعوتُ الذين لم يكونوا راضين بذلك إلىٰ تقديمِ ما لديهم، حتَّىٰ نستطيعَ إنتاجَ شيءٍ يُرْضيهم ويُرضي أمثالَهُم.

لقد تمَّ نَشْرُ كتاب (الإله والفلسفة) لأوَّلِ مرَّة في عام (١٩٦٦م). وأُعيدَ نَشْرُ هذا الكتاب في عام (١٩٨٤م) بعنوان (الإله: دراسةٌ نقديَّة God: A Critical Enquiry). أمَّا النُّسْخةُ الأخيرةُ من الكتاب، مع تمهيدٍ من قِبَلِ الناشرِ ومُقدِّمةٍ غير مقنعةٍ من قِبَلي، فصدرت عام (٢٠٠٥م) في كتابِ (الإله والفلسفة).

في كتابِ (الإله والفلسفة)، عرضْتُ طَرْحاً منهجياً للإلحاد. وبشكلٍ عام، دعوتُ إلىٰ أنْ تكونَ نقطة البداية في السُّؤالِ عن مفهومِ

الإلـه، في حـدودِ تماسُكِهِ وقابليَّتِـهِ للتَّطبيـقِ ومشـروعيَّتِهِ. عرضْـتُ في الفصـولِ الأُولىٰ مـن الكتـاب لحُجَـجِ اللَّاهـوت الطَّبيعـي[١]، بالإضـافةِ إلىٰ عـرْضِ ادِّعـاءات الـوحي المُقـدَّس. وفي الوقـتِ نفسِـهِ، حلَّلْـتُ فكـرةَ التَّفسـير، وفكـرةَ النِّظـام، وفكـرةَ الغايـة. والاعـتمادِ عـلىٰ ديفيـد هيـوم وآخـرين ممَّـن يشـاركونَهُ الـرَّأي، قلْـتُ بـأنَّ حجَّـةَ التَّصـميم[٢]، والحُجَّـةَ الكونيَّـة[٣]، والحُجَّـةَ الأخلاقيَّـة التـي تُستخدمُ لتأكيـدِ وجـودِ الإلـه حُجَـجٌ غـيرُ صـحيحة. كـما حاولـتُ أنْ أُبـيِّنَ اسـتحالةَ الاسـتنتاج بنحـوٍ صـحيح وجودَ كائنٍ مُتعالٍ مُقدَّس من خبرةٍ دينيةٍ جُزْئية.

ولكـن الإسـهامُ الأهـمُّ في الكتـاب، هـو الفَصْـلُ الـذي كـان بعنـوان (البدايـة مـن البدايـة). لقـد نبَّهـتُ فيـه إلىٰ أنَّ هنـاك ثلاثـةَ موضـوعاتٍ بالتَّحديد يجبُ الإجابةُ عنها فيما يخُصُّ مفهومَ الإله:

١ - كيف يمكنُ تعريفُ الإله؟

٢ - كيف يمكـنُ تطبيـقُ التَّعبـيرات الإيجابيـة والسَّـلْبية (غـير المادّيـة) علىٰ الإله؟

٣ - كيف يمكنُ تفسـير عـدم التوافُـق بـين تعريـفِ صـفات الإلـه مـع حقائِقَ لا يمكنُ إنكارُهـا؟ (مثـال: كيـف يمكـن تفسـير وجـود الأمـراض في العالَم مع وجودِ إلهٍ قادر؟).

---

(١) اللَّاهوت الطبيعي هو فرع من اللَّاهوت يعتمد علىٰ العقل والتجارب العادية. لذا فهـو يختلـف عن الوحي الديني الذي يقوم علىٰ أساس الكتب المقدَّسة والأنبياء. (المراجع).

(٢) حُجَّـة التَّصـميم هـي الحجَّـة المعروفـة في أدبياتِنـا الفلسـفية بـدليل الـنَّظْم أو دليـل النِّظـام. (المراجع).

(٣) الحُجَّـة الكونيـة تنـاظر في أدبياتنـا الفلسـفية دليـلَ الحـدوث، ودليـل الحركـة، ودليـل الإمكان. (المراجع).

تمَّ الرَّدُّ علىٰ السُّؤالينِ الثاني والثالث من قِبَلِ المؤمنين بالإله. فقد تمَّ الرَّدُّ من خلالِ نظرية التَّمثيل أو التَّشبيه عند الكلامِ عن صفاتِ الإله، ومن خلال حرّية الإرادة عند التَّعاطي مع مشكلة الشَّرِّ. لكن السُّؤالُ الأوَّلُ هو الذي لم يتمّ التطرُّق له بشكلٍ كافٍ علىٰ الإطلاق.

التَّعريفُ والتَّحديدُ هي أُمورٌ مهمَّةٌ في موضوعٍ يُرادُ البناءُ عليه، فتنظيمُ المعنىٰ وتثبيتُهُ لا محيصَ عنه في الخطاب. لكن لم يكن واضحاً كيف يمكنُ تعريفُ جوهرٍ فَرْدٍ مثل الإله الفُسيفِسائي (mosaic god)[1] كمُفارقٍ ومنفصلٍ عن الكونِ (المخلوق)؟ بأيِّ معنىٰ، إنْ كان ثَمَّة معنىٰ، يمكنُ أنْ نفهمَ أنَّ هذا الوجودَ هو واحدٌ علىٰ الدَّوام، وفي نفسِ الوقت فاعلٌ في الزَّمان أو - بشكلٍ مُحيِّرٍ أكثر - علىٰ نحوٍ ما (خارجُ) الزَّمان؟ ما لم يكن لدينا تصوُّرٌ أصيلٌ، متماسكٌ، قابلٌ للتَّطبيق (عن الإله)، لا يمكنُ إثارة السُّؤال حول وجود أو عدم وجود هذا الإله علىٰ نحوٍ مناسب. وبعبارةٍ أُخرىٰ: لا يمكنُنا البدءُ بنقاشِ الأسباب التي تجعلُنا نقول: إنَّ هناك إلهاً علىٰ نحوٍ ما هو موجود، قَبْلَ أنْ نُقرِّرَ كيف يمكنُ تعريفُ الإله الذي نتحدَّث عنه؟ ولا يمكنُنا أنْ نفهمَ بشكلٍ مقبول، كيف يمكنُ أنْ يُعادَ ويتعدَّدَ تعريفُ نفس الفَرْد بمرورِ الزَّمن. ومن ثَمَّ، علىٰ سبيلِ المثال، كيف يمكنُ لفرْدٍ (مجرَّدٍ عن المادَّةِ والجسد وموجودٍ في كلِّ مكان)، أنْ يُعرَّفَ ويُعادَ تعريفُهُ وأنْ يكون قابلاً كموضوعٍ لعدَّةِ توصيفات؟

يرُدُّ المؤمنون بالإلهِ علىٰ هذا النَّمطِ من التفكير بعدَّةِ طُرُق. أبرز هؤلاء ريتشارد سوينبيرن (Richard Swinburne) - الذي خلَفَني في

---

(١) كناية عن تعدُّد تصوُّرات الأديان للإله الكامل. (المراجع).

جامعةِ كييل ثُمَّ لاحقاً صارَ برفيسور في فَلْسفةِ الدِّين المسيحي في أكسفورد - في كتابهِ (تماسُك التَّوحيد The Coherence of Theism).

علَّلَ سوينبيرن ذلكَ بأنَّ القضيَّة (س) الذين رأيناهُم في وقتٍ سابقٍ أنَّهم (ص) لا تؤدِّي إلىٰ عدمِ تماسُكِ القضيَّة بأنَّ هناكَ (س) ليس (ص).

ويقول: ليس من حقِّ أحد أنْ يحتجَّ بأنَّ ما اعتادَ علىٰ رُؤيتِهِ - ولنَقُل: إنَّه (س) - يجب أنْ يكونَ (ص)، ولذا فإنَّ (ص) يجب أنْ تكونَ صفةً ذاتية (وليست عرضية) لأيِّ شيءٍ يُصنَّفُ علىٰ أنَّه (س)[1].

أمَّا فيما يخُصُّ الهويَّة، فإنَّ سوينبيرن يقول: إنَّ هويَّةَ الشَّخص جوهرية، ولا يمكن تحليلُها من خلالِ استمرارية الجسد أو الذَّاكرة أو الشَّخصية[2].

---

(١) هذه النقطة مرتبطة بمشكلة الاستقراء. ويُستشهد - عادة - لبيان هذه المشكلة بقصَّة الكابتن كوك (Captain Cook). فقبلَ زيارة الكابتن كوك إلىٰ استراليا عام (١٧٧٠م)، كان يُعتَقد في أُوربا أنَّ كلَّ الأوز هو أبيض، لأنَّ كلَّ الأوز الذي تمَّ ملاحظته هناك كان أبيض. لكن ما أنْ زار كوك منطقة بوتاني باي، حتَّىٰ رأىٰ أوزاً أسود يسبح في مائها.
في ضوء هذا المثال، القولُ بأنَّ (كلَّ الأوز أبيض) لكون كلِّ الأوز الذي رأيته في السابق كان أبيض، لا يؤدِّي منطقياً إلىٰ عدم تماسك القول بأنَّ (هناك أوز ليس بأبيض). فالقضيَّة (كلُّ الأوز أبيض) لا يمكن أنْ تصدق دائماً، بحيث تكون القضيَّة (هناك أوز ليس بأبيض) غير متَّسقة معها، إلَّا إذا كانت صفة البياض ذاتية بالنِّسبة للأوز، وليس عرضية. والحال أنَّها ليست كذلك. (المراجع).

(٢) يقصد سوينبيرن أنَّ (أنا) الإنسان جوهرية، ولا يمكن القول بأنَّها ما هي إلَّا استمرارية الجسد، أو استمرارية الذاكرة، أو استمرارية الشَّخصية. فهناك شيءٌ جوهري (ولنقل: نفْسٌ مثلاً) يتجاوز مفهوم استمرارية الجسد والذاكرة والشَّخصية. (المراجع).

قَبِلَ جيه. إل. ماكي (J. L. Mackie) – وهو فيلسوفٌ مُلْحِدٌ – بتعريفِ سوينبيرن للإله، بأنَّه روحٌ وأنَّه حاضرٌ في كلِّ مكان، وأنَّه علىٰ كلِّ شيءٍ قدير، وبكُلِّ شيءٍ عليم. وباختصار، اعتبرَ ماكي أنَّه (في الواقعِ لا مشكلةَ في ذلك) عندما يتعلَّق الأمرُ بالتَّعريفِ والتَّمييز[١].

أدركَ مؤرِّخُ الفَلْسفة فريدْرِك كوبْلِسْتون (Frederick Copleston)[٢] قَوَّةَ المشكلة التي أثرتُها فيما يخُصُّ تماسُك تصوُّر الإله، وردَّ بجوابٍ مختلف. يقولُ فريدْرِك: (لا أعتقدُ أنَّ من المُبرَّرِ الطَّلبُ من العقلِ البشري أنْ يكون قادراً علىٰ تعريفِ الإله كما يُعرِّفُ فراشةً واقفةً علىٰ صندوقٍ زُجاجي)[٣]. ووفقاً لكوبْلِسْتون: (الإله يصبحُ حقيقةً واقعةً للعقلِ البشري عند حركةِ الإنسان نحوَ التَّعالي. في هذه الحركة، الإلهُ يظهَرُ باعتبارِه هدفاً غير مرئي لهذه الحركة. وحيثُ إنَّ المُتعالي لا يمكن إدراكُ كُنْه ذاتِه، وإذا جازَ التعبير: وفقاً لخلفيَّتِنا التصوُّرية، فلا بدَّ للشَّكِّ أنْ ينشأَ ويظهر. ولكن، خلال حركة التَّعالي، الشَّكُّ يعودُ للتَّوازُنِ من خلالِ التوكيد (affirmation) المُتضمَّن بالحركةِ في ذاتِها. في ضِمْنِ سياق هذه الحركة الشَّخصية للرُّوحِ البشرية، يصبحُ الإلهُ حقيقةً واقعةً للإنسان)[٤].

ما الذي أعتقدُهُ اليوم عن الحُجَجِ المنصوصِ عليها في كتابِ (الإله

---

(١) J. L. Mackie, The Miracle of Theism (Oxford: Clarendon, 1982), 1.

(٢) بريطاني (١٩٠٧ – ١٩٩٤م).

(٣) يقصد كوبلستون: يكفي أنْ نطالب العقل بأن يُعرِّف الإله تعريفاً إجمالياً غامضاً، لأنَّ العقل البشري لا يرىٰ الإله بوضوح ودقَّة كما يرىٰ الفرّاشة الواقفة علىٰ صندوق زجاجي. (المراجع).

(٤) Frederick C. Copleston, Philosophers and Philosophies (London: Search Press, 1976), 76.

والفَلْسفة)؟ في رسالةِ عام (٢٠٠٤م) إلىٰ مجلَّةِ (الفَلْسفة الآن)، لاحظتُ أنَّني الآن أعتبرُ أنَّ الإلهَ والفلْسفةَ بقايا تاريخية (لكن، بطبيعةِ الحال، لا يمكن للمرءِ أنْ يكونَ متَّبعاً الدَّليل أينما يُؤدِّي إنْ لم يُعطِ الآخرين فرْصةَ إبداء وجهات نظرِهم في أُمورٍ لم يضَعْها في الحُسْبان). وآرائي الحالية في الموضوعاتِ التي تمَّ التطرُّق لها هناك، تمَّ عرْضُها في القِسْمِ الثاني من هذا الكتاب (اكتشافي للمُقدَّس).

❃ ❃ ❃

فرضيَّةُ الإلحاد

(THE PRESUMPTION OF ATHEISM)

بعد مرورِ عقدٍ من الزَّمن علىٰ نَشْرِ كتاب (الإله والفَلْسفة)، قُمْتُ بكتابةِ مقالة (فرضيَّة الإلحاد) نُشِرَت في الولاياتِ المتَّحدة تحتَ عنوان: (الإله والحُرِّية والخُلُود). في هذا الكتاب، جادلْتُ بأنَّ النِّقاشَ حول وجود الإله يجبُ أنْ يبدأَ من فرضيَّةِ الإلحاد، وأنَّ عبءَ الإثبات يجبُ أنْ يكونَ علىٰ المؤمنينَ بالإله. أشرْتُ إلىٰ أنَّ هذا النَّهجَ الجديد يضَعُ مسألةَ وجود الإله في منظورٍ جديد بشكلٍ كاملٍ. كما أنَّه يُساعِدُ في التخلُّصِ من المشاكلِ التصوُّرية عن الإيمانِ التي قد لا يتمُّ الاهتمامُ بها، ويجبُرُ اللَّاهوتيين علىٰ البدءِ من البدايةِ المطلقة. استخدامُ المؤمنين بالإله لكلمةِ (الإله) يجبُ أنْ يُقدِّم معنىٰ يجعلُ من الممكنِ نظرياً لهذا الكائن الواقعي أنْ يُوصَف. توصَّلْتُ إلىٰ نتيجةٍ مفادُها أنَّه مع هذا المنظورِ الجديد يظهَرُ مشروعُ الإيمان بالإله بأكملِهِ متزعزعاً أكثرَ عمَّا كان عليه من قبل.

فرضيَّةُ الإلحادِ يمكنُ تبريرُها عن طريقِ القول بأنَّ الاعتقادَ بوجودِ الإله يفتقرُ إلىٰ مُبرِّراتٍ وجيهة. حتَّىٰ نؤمن بأنَّ هناك إلهاً، لا بدَّ أنْ تكون لدينا مُبرِّرات جيِّدة للاعتقاد. لكن إنْ لم تكن لدينا مثلُ هذه المُبرِّرات، فإنَّه لا يوجدُ هناك سببٌ كافٍ للإيمانِ بوجودِ الإله، والموقفُ

المعقولُ الوحيدُ هو أنْ تكونَ مُلْحِداً سلْبيَّاً أو لا أدْريَّاً (agnostic)[١].

ولا بدَّ لي من الإشارةِ هنا إلىٰ ما لا تتضمَّنُهُ (الفرضيَّة). الفرضيَّةُ لا تتضمَّنُ حُكماً مُسْبقاً علىٰ نتيجةٍ يُرادُ إثباتُها. وإنَّما هي مبدأٌ إجرائيٌّ لتحديدِ من سيقع عليه عبءُ الإثبات، يشبَهُ كثيراً قاعدة (أصْل البراءة)، التي يستندُ عليها القانونُ العامّ الإنكليزي[٢].

أجدُ أنَّه - في أيِّ نظامٍ منهجيٍّ سليم - علىٰ اللَّاهوتيين أنْ يبدأوا، كما هو الحالُ في كلِّ فرضيَّةٍ وجوديَّةٍ، بتحديدِ التصوُّر الخاصِّ الذي سوف يُستَعمَلُ لوَصْفِ الإله، ثُمَّ بعد ذلك يُشيروا كيفَ للموضوعِ المُطابِق أنْ يُعرَّف. فقط بعد تلبيةِ هاتينِ المهَّمتينِ بشكلٍ مُرْضٍ، يصبحُ مقبولاً البدءُ بتقديمِ الأدلَّة المقصودة.

هذه الحُجَّةُ حفَّزت العديدُ من الرُّدود. باعتبارِهِ لا أدْريَّاً، كتَبَ الفيلسوفُ الإنجليزي أنتوني كيني (Anthony Kenny)[٣] قائلاً بأنَّه قد يكون هناك فرضيَّة لتبريرِ اللَّاأدريَّة (agnosticism)، لكن ليس لتبريرِ الإلحادِ السَّلْبي أو الإيجابي[٤]. لقد أكَّدَ كيني علىٰ أنَّ إظهارَ أنَّكَ تعرِفُ

---

(١) المُلْحد السَّلْبي هو الذي (لا يؤمن بالإله)، في حين أنَّ المُلْحد الإيجابي هو الذي (يؤمن بعدم وجود إله). وهناك فرقٌ بين عدم الإيمان، والإيمان بالعدم. لذا المُلْحد السَّلْبي يقترب كثيراً من اللَّاأدري، وهو الذي إذا سألته: هل الله موجود؟ أجابك: لا أدري. (المراجع).

(٢) يقصد (فلو) من أصل البراءة أنَّ كلَّ متَّهم بريء حتَّىٰ تثبُتَ إدانتُهُ. وهو ما يوازي عندنا الحديث المروي: «البيِّنةُ علىٰ من ادَّعىٰ». (المراجع).

(٣) فيلسوف بريطاني، وُلِدَ سنة (١٩٣١م)، وما زال علىٰ قيد الحياة، مهتمٌّ بفلسفة الذهن، وبرع في الفلسفة التحليلية، والمزج بين أفكار فتجنشتين وتوما الأكويني.

(٤) يقصد كيني هناك فرق بين أنْ تُبرِّر الموقف اللَّاأدري، وأنْ يكون موقفك بوصفك لا أدريَّاً مُبرَّراً. فعندما تريد أنْ تصبح لا أدريَّاً، فهذا يستبطنُ الادِّعاء بمعرفةِ شيء، ولو كان هذا الشيء هو عدم تماسُك تصوُّر الإله. لذا ليس المؤمن بالإله فقط يقع عليه عبءُ الإثبات، بل حتَّىٰ اللَّاأدري يقع عليه عبءُ تبرير موقفِهِ اللَّاأدري، هذا فضلاً عن المُلْحد. (المراجع).

شيئاً ما يتطلَّبُ جهداً أكبر من إظهارِ أنَّكَ لا تعرف (وهذا يَشْمَلُ حتَّىٰ الادِّعاء بأنَّ تصوُّر الإله غيرُ متماسك). لكنَّه قال: إنَّ هذا لا يُخلِّص اللَّاأدْري من الورطة؛ فالمُتقدِّمُ للاختبار يمكنُهُ تبريرُ عدم معرفتِهِ بإجابةِ أحد الأسئلة، لكن هذا لا يمنحهُ القُدْرة علىٰ اجتيازِ الاختبار[١].

كاي نيلْسون (Kai Nielsen)[٢]، هو زميلٌ مُلْحِدٌ زاملتُهُ سابقاً، قَدَّمَ نقداً زعمَ فيه أنَّ الموقفَ الأخلاقي المتميِّز هو أنْ تبقىٰ غير ملتزم تماماً حتَّىٰ تتوفَّرَ أسبابٌ كافيةٌ لذلك. نيلْسون ذهبَ للقولِ بأنَّ عليَّ أنْ أُبيِّن أنَّ المعتقدينَ بالإله والمتشكِّكين لديهم تصوُّرٌ مشتركٌ عن العقلانيةِ (rationality) مع المعاييرِ المطلوبة لتقييمِ مزايا ادِّعاءاتهم المختلفة[٣]. وأضافَ بأنَّ هناك (علامةَ استفهامٍ كبيرة) علىٰ (فرضيَّةِ الإلحاد)[٤] إنْ لم أُنتج تصوُّراً شاملاً مقبولاً لتصوُّر العقلانية.

---

(١) Anthony Kenny, Faith and Reason (New York: Columbia University Press, 1983), 86.

(٢) فيلسوف وُلِدَ سنة (١٩٢٦م)، وما زال علىٰ قيد الحياة، مهتمٌّ بفلسفة الأخلاق، وفلسفة السياسة، وفلسفة الدين.

(٣) العقلانية (rationality) تصوُّرٌ حيوي وبالغ الأهمّية في الفكر الغربي الحديث والمعاصر، وله تعريفاتٌ متعدِّدة، ومواقف الفلاسفة منه مختلفة. لكن التصوُّر المشهور عن العقلانية أنَّه الموقف الرَّشيد الذي يستندُ إلىٰ مبرِّراتٍ موضوعية. فالاعتقادُ أو القرارُ العقلاني هو الذي يقفُ علىٰ أرضيةٍ صَلْبة ومعطياتٍ كافية، في مقابل الاعتقاد أو القرار غير العقلاني الذي يكونُ ذاتياً، ولا يقفُ علىٰ أرضيةٍ صَلْبة ومعطياتٍ كافية. لذا يريد نيلسون أنْ يقول هنا: قبل أنْ نتَّخذ موقفاً من الإيمان بالإله، لا بدَّ أنْ نتَّفق علىٰ تصوُّرٍ شاملٍ للعقلانية، ثمَّ علىٰ ضوئه نُقيِّم المعطيات والمبرِّرات، لنرىٰ أنَّها تقف لصالح هذه الفرضية أو تلك. (المراجع).

(٤) Kai Nielsen, review of The Presumption of Atheism by Antony Flew, Religious Studies Review 3 (July 1977): 147.

أكبرُ تحدٍّ للحُجَّةِ جاءَ من أمريكا. حيثُ قدَّمَ أُستاذُ المنطق الجهاتي (Modal Logic) ألْفِن بلانتِينْغا (Alvin Plantinga)[١] فكرةً مفادُها أنَّ الإيمانَ بالإلـهِ هـو اعتقادٌ أساسيٌّ تماماً. وأكَّدَ علىٰ أنَّ الاعتقادَ بالإلـهِ مشابهٌ للاعتقادِ بالحقائقِ الأساسية، مثلُ الاعتقاد بالعقولِ الأُخرىٰ أو المدرَكات الحسِّية (رؤية شجرة) أو الذَّاكرة (الاعتقاد بالماضي). في جميعِ هذه الحالات، أنتَ تثِقُ بقُدُراتِكَ الإدراكية، علىٰ الرَّغمِ من أنَّكَ لا تستطيعُ إثباتَ صِدْق الاعتقاد محلّ التَّساؤل. وبالمثل، فإنَّ النَّاسَ يعتقدونَ بقضايا معيَّنة (كوجودِ العالَمِ مثلاً) كأُسُسٍ، ثُمَّ تُشتقُّ اعتقاداتٌ أُخرىٰ من هذه الاعتقادات الأساسيَّة. هذه الفرضيَّةُ تقول: إنَّ المعتقدينَ بالإلـهِ يأخذونَ وجود الإله كقضيَّةٍ أساسية[٢].

الفيلسوفُ التُّوماوي (نسبةً إلىٰ توما الأكويني) رالف ماكلنيرني (Ralph McInerny)[٣] يرىٰ أنَّ من الطَّبيعي للإنسانِ أنْ يعتقدَ بالإلـهِ بسببِ النِّظام، والتَّرتيب، والقوانين التي تحكُمُ الأحداثَ التي تقعُ في الطَّبيعة. ولذلكَ كثيراً ما يقول: إنَّ فكرةَ وجود الإله هي فكرةٌ فطريَّةٌ، وتبدو كمُسلَّمةٍ تقفُ ضدَّ الإلحاد. لذا فإنَّه في حين جادلَ بلانتِنْغا بأنَّ الموحِّدينَ لا يتحمَّلونَ عبءَ الإثبات، ذهبَ ماكلنيرني أبعدَ من ذلكَ بالقولِ أنَّ المُلْحدينَ هم من يتحمَّل عبءَ الإثبات!

---

(١) فيلسوف أمريكي تحليلي كبير، وُلِدَ (١٩٣٢م)، وما زال علىٰ قيد الحياة، وهو أُستاذ فخري للفلسفة في جامعة نوتردام. بلانتينغا معروف علىٰ نطاق واسع لعمله في فلسفة الدين، نظرية المعرفة، الميتافيزيقيا واللَّاهوت، وله بصمة واضحة في الدفاع عن الإيمان بوجود الله في العالم الغربي اليوم.

(٢) لتوضيح هذه النقطة راجع: أفي الله شكٌّ؟ لمرتضىٰ فرج: ٢٠ - ٢٦/ ط ١/ ٢٠١٣م/ دار الانتشار العربي/ بيروت. (المراجع).

(٣) فيلسوف أمريكي، (١٩٢٩ - ٢٠١٠م).

ينبغـي أنْ أُشـيرَ هنـا إلىٰ أنَّـه عـلىٰ خـلافِ حُجَجـي المضـادَّة للَّاهـوت، فـإنَّ الاحتجـاجَ لفرضـيَّةِ الإلحـاد يمكـنُ قبولُـهُ بنحـوٍ متَّسـقٍ مـن قِبَـلِ الموحِّـدين. لأنَّنـا إذا افترضـنا وجـود مُـبرِّرات مناسـبة للاعتقـادِ بالإلـه، فالموحِّـدونَ لا يرتكبـونَ أيَّ خطـأٍ فلسـفيٍّ في مثـلِ هـذا الاعتقـاد[1]! لأنَّ فرضيَّةَ الإلحـاد في أحسَـنِ الأحـوال نقطـةُ انطـلاقٍ منهجيَّـة، وليسـت نتيجـةً وجوديَّة.

* * *

(١) يريد (فلو) أنْ يقـول: إنَّ الموحِّـدين طالما قبلـوا الاحتجـاج بالأدلَّـة عـلىٰ وجـود الإلـه، فهـم يقبلـون بالاحتجـاج بالأدلَّـة عـلىٰ عـدم وجـوده، لأنَّهـم لجـأوا إلىٰ العقـل واحتكمـوا إليـه. ومن الناحية العملية لم يُرتِّبوا أثـراً عـلىٰ القـول بـأنَّ الإيـمانَ بـالله فطـريٌّ، حتَّـىٰ يقولـوا: نحـن نرفض الاحتجاج عـلىٰ وجـود الإلـه أو عـدم وجـوده، لأنَّ الإيـمانَ بـه فطـريٌّ. لـذا ففرضـية الإلحاد تكـون هنـا بمثابـة مُحفِّـز للعقـل، ونقطـة انطـلاق للبحـث عـن وجـود الإلـه أو عـدم وجوده. (المراجع).

تغييرُ وجهة نظري
(CHANGING MY MIND)

كفيلسوفٍ محترف، قُمْتُ بتغييرِ وجهةِ نظري أكثرَ من مرَّةٍ في المسائلِ المختلفِ عليها. ينبغي أنْ لا يكونَ ذلك مُسْتغرباً، بالطَّبع، إذا أخذْنا بالاعتبارِ اعتقاداتي المُتعلِّقة بإمكانيةِ إحراز تطوُّر في الفَلْسفة، وبمبدأ اتِّباعِ الدَّليل أينما قادني.

عندما كنْتُ أقومُ بالتَّدريسِ في جامعةِ كييل في عامِ (١٩٦١م)، كتبْتُ كتاباً عن بحثِ هيوم (تحقيقٌ في الفهمِ الإنساني)[١]، بعنوان (فَلْسفة هيوم في الاعتقاد). حتّىٰ ذلك الحين، كان يتمُّ التعامل مع تحقيقِ هيوم (عادةً يُقالُ له: الـ (تحقيق) الأوَّل لتمييزِهِ عن كتابِهِ اللاحق (تحقيقٌ في مبادئِ الأخلاق)) علىٰ عكسِ ما جالَ في ذهنِ المؤلِّفِ بوصفِها مجرَّد مقتطفات. لكن الآن، هذه المقتطفات تُعدُّ أعظمَ أعمال هيوم.

بخصوصِ كتابي عن هيوم، كَتَبَ جلْبرت رايل قائلاً: (أُقَدِّرُ عالياً ما جاءَ في الكتاب. فهو مملوءٌ معرفةً وحيويةً). في حين كَتَبَ جون باسمور (John Passmore)[٢] قائلاً: (أيُّ مناقشةٍ لاحقةٍ لعِلْمانيةِ هيوم عليها أنْ تبدأَ من فلو).

---

(١) مرَّ علينا أنَّ ديفيد هيوم أصدر سنة (١٧٥٨م) كتابه (تحقيق في الفهم الإنساني) ترجمه د. موسىٰ وهبة/ دار الفارابي/ ٢٠٠٨م/ بيروت، بعنوان (مبحث في الفاهمة البشرية)، وفي سنة (١٧٥١م) أصدر كتابه (تحقيق في مبادئ الأخلاق). (المراجع).

(٢) فيلسوف أسترالي (١٩١٤ - ٢٠٠٤م).

رغمَ هذه الإشادات، إلَّا أنِّي كنْتُ أرغبُ دائماً بعملِ تعديلاتٍ جوهريةٍ في كتابي (فَلْسفة هيوم في الاعتقاد). مسألةٌ واحدةٌ بالتَّحديد كانت تحتاجُ إلىٰ تصحيحاتٍ كبيرة. الفصولُ الثلاثة: (فكرةُ الاتِّصال الضَّروري) و(الحرِّيةُ والضَّرورة) و(المعجزات والمنهجيَّة)، جميعُها كان بحاجةٍ إلىٰ إعادةِ صياغة، في ضوءِ إدْراكي المَبْنِيِّ حديثاً بأنَّ هيوم كان مخطئاً تماماً بالقولِ: إنَّنا ليس لدينا خِبْرة، ومن ثَمَّ ليس لدينا أفكارٌ أصيلة، وليس في قُدْرتِنا جعلُ بعضِ الأشياء تحدُث ومنْعُ البعض الآخر من الحدوث، أي ثَمَّةَ ضرورةٌ فيزيائية واستحالةٌ فيزيائية.

ونتيجةً لخطأ هيوم هذا، تمَّ تضليلُ أجيالٍ من أتْباعِ هيوم بتقديمِ تحليلٍ في غايةِ الضَّعف للسَّببيَّةِ والقانونِ الطَّبيعي، لأنَّه لم يكن هناك أساسٌ إمَّا للقبولِ بوجودِ السَّبب والنتيجة أو بوجودِ قوانين الطَّبيعة. وفي الوقتِ نفسِهِ، فإنَّ هيوم ذاتَهُ في الفصلِ (في الحُرِّية والضَّرورة Of Liberty and Necessity)[١] والفصلِ (في المعجزات Of Miracls)[٢] كان يَسْعىٰ للكشْفِ عن أفكارٍ تتعلَّق بأسبابٍ تأتي بنتائجَ، أقوىٰ من تلك التي كان هيوم مستعدَّاً لاعتبارِها مشروعة[٣].

في كتابِهِ الـ (تحقيق) الأوَّل، أنكر هيوم السَّببيَّة، وادَّعىٰ أنَّ كلَّ ما يتضمَّنهُ العالَمُ الخارجي في الواقعِ هو مجرَّدُ ترابُطٍ دائم. أي عبارةٌ عن أحداثٍ من هذا النوع، يتْبَعُها بانتظامٍ أحداثٌ من ذلك النوع. وعندما

---

(١) وهو الفصل (VIII) من كتابه (تحقيق في الفهم الإنساني). (المراجع).

(٢) وهو الفصل (X) من كتابه (تحقيق في الفهم الإنساني). (المراجع).

(٣) يقصد (فلو) أنَّ هيوم رغمَ رفضِهِ للعلاقات السببية في حوادث الطبيعة، إلَّا أنَّ المفارقة أنَّه كان يبحث في هذين الفصلين من كتابه عن أفكارٍ سببية، سَبَقَ وأنْ رَفَضَ ما هو أبسط منها تتعلَّق بحوادثِ الطبيعة. (المراجع).

نلاحظُ هذا التَّرابُطَ الدَّائم، يتكوَّنُ لدينا عاداتٌ قويَّةٌ تستدعي فيها أفكارٌ من هذا أفكاراً من ذاك. فنحنُ نرىٰ الماءَ يغلي عندما يتمُّ تسخينُهُ، فنربطُ بين تسخينِ الماء وغليانِهِ، فنربطُ بين الاثنين (تسخين الماء والغليان). ونعتقدُ أنَّ هناك علاقةً واقعيَّةً بين الاثنين، في حين أنَّنا بذلك نُسقِطُ بنحوٍ خاطئ تداعياتنا النَّفْسية الدَّاخلية. يتخلَّصُ هيوم من تشكيكِهِ في السَّببِ والنَّتيجةِ ولا أدريَّتِهِ بالنِّسبةِ للعالَمِ الخارجي في اللَّحظةِ التي يترُكُ فيها البحث، بل حتَّىٰ قبلَ أنْ ينتهي من البحث. في الحقيقة، هيوم يتخلَّىٰ عن تشكيكِهِ بالسَّببيةِ حتَّىٰ قبلَ أنْ ينتهي من البحث. لذا، ليسَ هناك علىٰ سبيلِ المثال في فَصْلِ (في المعجزات) في كتابِهِ الـ (تحقيق) الأوَّل أثرٌ لأُطروحتِهِ عن العلاقاتِ السَّببيَّةِ وما كان يقولُهُ من أنَّ الضَّرورات ليست سوىٰ إسقاطاتٌ كاذبةٌ علىٰ الطَّبيعة[1].

ومرَّةً أُخرىٰ، في كتابِهِ (تاريخ إنكلترا)، لم يُقدِّم هيوم أيَّ إشارة

---

(١) يريد (فلو) أنْ يقول - وهو محقٌّ تماماً في ذلك - أنَّ هناك انفصاماً غريباً في الفصولِ الأُولىٰ من كتاب (تحقيق في الفهم الإنساني) التي يتحدَّث فيها هيوم عن أصلِ الأفكار وتداعيها والاقتران الضروري، مع فصل (في المعجزات). ففي فصل (في المعجزات) استبعَدَ المعجزات - في ضوءِ الإخبارات والشَّهادات البشرية عن وقوعِها - لأسبابٍ متعدِّدة، منها: عدمُ وجودِ عددٍ كافٍ من الشُّهود نضمنُ عدم كذبِهم أو وقوعهم فريسةً للوهم، ومنها: تعارُض الشَّهادات، ومنها: أنَّ أغلب من ينقل تلك المعجزات هي شعوب جاهلة غير متحضِّرة... الخ. وهي أسباب تبدو عقلانية تماماً، لكن بالنسبة لمن يؤمن بوجود علاقة ضرورة بين السَّبب والنتيجة. أمَّا بالنسبة لمن لا يؤمن بوجود ضرورة بين السَّبب والنتيجة، الموقف الطبيعي المترقَّب منه هو أنْ يتسامح مع المعجزات المنقولة. فما المانع العقلي من انكسارِ قانون الطبيعة في العلاقاتِ السَّببية، طالما أنَّها مجرَّد تداعيات ذهنية لا واقعية لها، وإنَّما نحنُ من يُسْقِطُها علىٰ الواقع، كما يدَّعي هيوم!؟ (المراجع).

عن شكِّهِ في السَّببيَّةِ أو في العالَمِ الخارجي. وبهذا يُذكِّرُنا هيوم ببعضِ المعاصرين الذين يُنكِرُونَ لمُبرِّراتٍ اجتماعيةٍ أو فَلْسفيةٍ إمكانيةَ المعرفة الموضوعية. ثمَّ هُمْ بعدَ ذلك يستثْنونَ من هذا التَّآكُل للموضوعيةِ الشَّاملة، خُطَبَهُم السِّياسيَّة العنيفة، وعمَلَهُم البحثي، وفوقَ كلِّ ذلك، وحيَهُم الأوَّليِّ الخاصّ بعدمِ وجود معرفة موضوعية[١].

الموضوعُ الآخر الذي غيَّرْتُ رأيي فيه هو الإرادة الحرَّة، وحرِّية الإنسان. هذا الموضوعُ مهمٌّ، لأنَّ السُّؤالَ عمَّا إذا كُنَّا أحراراً أو لا يكمُنُ في قَلْبِ أغلَبِ الأديانِ الرَّئيسية[٢]. وقد أشرْتُ من قبلُ إلىٰ تعارُضِ فكرة الشَّر في العالَمِ الذي خلقَهُ إلهٌ علىٰ كلِّ شيءٍ قدير وبكُلِّ شيءٍ عليم[٣]. كان

(١) يريد (فلو) هنا أنْ يُظهِرَ الموقف الفلسفي المتناقض لأُولئك الذين يُنكِرون المعرفة الموضوعية. فهم من ناحية، يُنكِرون إمكانية الظفر بحقائقَ موضوعية، لكنَّهم يضطرُّون – حتَّىٰ يُقنِعوا الآخرين بصحَّةِ موقفهم – أنْ يؤكِّدوا أنَّ خُطبَهُم، وبحثَهُم، وإنكارَهُم للمعرفة الموضوعية، هي حقيقة موضوعية. (المراجع).

(٢) لأنَّ الأديان عادةً تؤيِّد الحرّية الإنسانية. فمن دونها تنتفي المسؤولية الأخلاقية والقانونية. إنْ لم يكن الإنسان حُرَّاً في أفعاله، فكيف يصحُّ للإله أنْ يُدينَهُ عندما يرتكبُ شرَّاً!؟ (المراجع).

(٣) بمعنىٰ أنَّ الإلهَ لو كان بكلِّ شيءٍ عليم، لكان عالماً بالشَّرِّ الذي يقع في العالَم. والإله لو كان علىٰ كلِّ شيءٍ قدير، لكان قادراً علىٰ منعِ الشَّرِّ في العالَم، لكن لم يفعل. فوجودُ الشَّرِّ يكشفُ إمَّا عن عدم علمِهِ به، أو عدم قدرتهِ علىٰ منعِ وقوعِهِ.

ومشكلةُ الشَّرِّ تارةً ترتبط بالظواهر والكائنات الطبيعية؛ كالزلازل والبراكين والأمراض والثعابين والحيوانات المفترسة، وتارةً أُخرىٰ ترتبطُ بأفعالِ الإنسان، كالحروب بسبب البغي والجشع والانتقام، وكالفقر والجهل بسبب الكسل والتواكل... الخ.

ما يتحدَّث عنه فلو هنا هو الشُّرور المرتبطة بأفعالِ الإنسان. أمَّا الشُّرور المرتبطة بالطبيعة، فراجع: العدل الإلهي لمرتضىٰ المطهَّري/ الفصل الأربعة الأُولىٰ. (المراجع).

ردُّ الموحِّدين علىٰ هذا التَّعارُضِ المُشاهَد بالقولِ بأنَّ الإلهَ وهبَ الإنسانَ الإرادةَ الحرَّة، وأنَّ كلَّ أو معظمَ الشُّرور الصَّارخة ترجعُ بشكلٍ رئيسيٍّ أو جزئيٍّ إلىٰ سوءِ استخدام هذه الهدية الخَطِرة، إلَّا أنَّ المحصِّلةَ النِّهائيةَ ستكونُ في إدراكِ أنَّ الخيراتَ المتحقِّقة من هِبةِ الحرِّية أعظم بكثيرٍ من سَلْبِها. كنْتُ في الواقعِ أوَّلُ من سمَّىٰ هذه الحُجَّة (دفاع الإرادة الحرَّة).

وبغضِّ النَّظَر عمَّا يمكنُ تسْميةُ هذه الجدل بين (الإرادةِ الحرَّة والجبرية)، أو بالتَّعبيرِ العِلْماني بين (الإرادةِ الحرَّة والحَتْمية)، فإنَّ السُّؤالَ عمَّا إذا كُنَّا أحراراً في أفعالِنا له أهميَّةٌ رئيسيَّة. ردِّي علىٰ ذلك تمثَّلَ بمحاولةِ سُلُوك طريقين:

أوَّلاً بعَرْضِ الموقف الذي أصبحَ يُعرَفُ بـ (التوافقية compatibilism). فغيرُ التَّوافقيِّين يزعمون أنَّه لا يمكنُ الجَمْعُ بين الإرادةِ الحرَّةِ والحتْمية[١]. التَّوافقيُّون، من جهةٍ أُخرىٰ، لم يكتفوا بالقولِ بإمكانيَّةِ الجَمْع بينهما، أي إنَّ الإرادةَ الحرَّةَ لشخصٍ ما لا تتعارضُ مع كونِ مستقبلِهِ محتومٌ حتَّىٰ قبلَ أنْ يقومَ بالعمل، بل ذهبوا إلىٰ أبعدِ من ذلكَ بالقولِ بأنَّ الأفعالَ الإراديةَ يمكنُ أنْ تكونَ حرَّةً حتَّىٰ لو كان وقوعُها حَتْمياً من الناحيةِ الفيزيائية، بمعنىٰ حتَّىٰ لو كان وجودُها محكوماً بقوانينِ الطَّبيعة[٢].

(١) فأتباع هذا الاتِّجاه يظلُّون مُصرِّين علىٰ أنَّ التسيير لا يتلاءم مع التخيير، والجبر لا ينسجم مع التفويض. (المراجع).

(٢) فأتباع هذا الاتِّجاه يفهمون الإرادة الحرَّة علىٰ ضوء الحتمية الفيزيائية، ويرون أنَّ الضرورةَ مهيمنةٌ علىٰ أحداثِ العالَم، وعلىٰ هذا الأساس تصبح الإرادة الحرَّة مجرَّد وهمٍ من الأوهام. (المراجع).

ورغمَ استمراري بالاعتقادِ بأنَّ الناسَ يقومون باختياراتٍ حرَّة، إلَّا أنَّني في الأعوامِ اللاحقة بدأتُ ألحَظُ أنَّه لا يمكنُكَ الاعتقادُ في الوقتِ نفسِهِ وبنحو متَّسق بأنَّ الاختيارات الحرَّة لها أسبابها الفيزيائية. بكلمةٍ أُخرىٰ: الجمْعُ والتَّوفيقُ هنا لا يَصُحُّ. قانونُ الطَّبيعة ليس عبارةً عن حقيقةٍ عمياء صِرْفة بحيث أنَّ نمطاً خاصَّاً من الإرادةِ بمجرَّدِ أنْ يحدُث، فإنَّ نمطاً آخرَ من الحُدُوثِ يتْبَعُهُ أو يتزامن معه[١]. بل هو ادِّعاءٌ بأنَّ حدوثَ حادثةٍ من نمطٍ خاصٍّ بنحوٍ فيزيائي يُحتِّمُ بالضَّرورةِ حدوثَ الشَّيء الآخر، ممَّا يجعلُ عدمَ حدوثِهِ أمراً مستحيلاً. ومن الواضح أنَّ الحالَ ليس كذلك في الإرادةِ الحرَّة.

أيضاً نحنُ بحاجةٍ إلىٰ تمييزٍ حاسمٍ بين معنيينِ من معاني (السَّبَب)، وبحاجةٍ إلىٰ تمييزٍ موازٍ بين معاني (الحَتْمية). أسبابُ الأفعالِ البشرية تختلفُ بشكلٍ جوهريٍّ عن أسبابِ الحوادث غير البشرية. فعندَ توفُّرِ السَّبب الكامل لحُدُوثِ انفجارٍ ما، فإنَّه يصبحُ من المستحيلِ علىٰ أيَّةِ قوَّةٍ في هذا العالَمِ منعُ حدوث الانفجار[٢]. ولكن إذا أعطيتُكَ سبباً كافياً لإظهارِ الفرَحِ والابتهاج، فإنَّ هذا لا يعني أنَّك بالضَّرورةِ ستطْلِقُ صوتَ الفرَحِ والابتهاج. ويترتَّبُ علىٰ هذا أنَّه ليس كلُّ حركةٍ إنسانيةٍ يمكنُ إرجاعُها بشكلٍ كاملٍ إلىٰ أسبابٍ فيزيائية.

---

(١) فمثلاً أنت لا تستطيع أنْ تقول كقانون من قوانين الطبيعة: إنَّ إرادةَ الانتقام سوف يتبعها بالضرورةِ نمطٌ معيَّنٌ من الحوادث. فقد يكبتُ صاحبُ هذه الإرادة رغبتَهُ في الانتقام، بل قد يتعامل مع الطرفِ الآخر بلُطفٍ بالغ، لسببٍ أو آخر. (المراجع).

(٢) بعبارةٍ أُخرىٰ: إذا اجتمعت كلُّ شروط تحقُّق الانفجار (تحقَّقت علَّته التامَّة)، فإنَّ منعَ تحقُّقِهِ يصبحُ مستحيلاً من الناحيةِ الواقعية، إلَّا إذا نجحنا في تعطيلِ شَرْطٍ من شروط تحقُّق الانفجار (جزء من أجزاء العلَّة التامَّة). لكن طالما افترضْتَ أنَّ كلَّ شروط تحقُّق الانفجار قد اجتمعت، ففي هذه الحالة يصبح وقوعه ضرورياً. (المراجع).

يمكنُ التَّمييزُ بين معنيينِ للفظِ (السَّبَب)، من خلالِ استخدامِ مصطلح هيوم: الأسبابُ المادِّية والمعنوية (أو الأخلاقية). فعندما نتحدَّثُ بشكلٍ كاملٍ عن أحداثٍ غير بشرية - الكسوف علىٰ سبيلِ المثال - فإنَّنا نستخدمُ كلمةَ (السَّبَب) بالمعنىٰ الذي يتضمَّنُ الضَّرورةَ الفيزيائية والاستحالةَ الفيزيائية (أي: ما حدَثَ كان يجب أنْ يحدُث، وعدَمُ حدوثِهِ مستحيل).

ولكن هذا بالتأكيد ليس الحالُ عندما نتكلَّم عن الأسبابِ (الدَّوافعِ أو البواعث) في حالةِ الأفعال البشرية. لنستخدمَ المثالَ السَّابق، افترض أنَّني أخبرتُكَ بأخبارٍ مفرحة. فإذا كان ردُّ فعلِكَ هو الابتهاج، فإنَّ من المحتملِ جدّاً أنْ تصِفَ إخباري لكَ بهذه الأخبار بأنَّه (سببٌ) لابتهاجِك. ولكنَّني في الواقع لم أكن سبباً في ابتهاجِكَ[1]؛ فهو لم يكن ضرورياً وكان بالإمكانِ تجنُّبُهُ. فقد تُقرِّرُ أنْ لا تبتهجَ، لأنَّنا كنَّا حينَها، لنَقُل: في المكتبة[2]. وبعبارةٍ أُخرىٰ: قد يكونُ نقلي أخباراً مفرحةً دفعَكَ لإطلاقِ صوت الابتهاج، لكنَّني أيضاً لم أمنعكَ من أنْ تبكي. ولنستخدم تعبيرَ الفيلسوف الرِّياضي جوتْفرِدْ لَيبْنِتْزْ (Gottfried Leibniz) أسبابُ هذه اللَّحظة تُرجِّحُ، لكن لا تُحتِّم.

ولـمَّا كان هيوم منكراً لمشروعيةِ تصوُّر الضَّرورة الفيزيائية، لذا لم يكن قادراً علىٰ إقامةِ هذا التَّمييزِ بين المعنيين بالطَّريقةِ التي أشرنا إليها هنا. ومع ذلك، فإنَّ طريقةَ هيوم في العنْونةِ تُؤشِّرُ إلىٰ الفَرْقِ الجوهري

---

(١) فهو مجرَّد مثير خارجي. (المراجع).

(٢) حيث يتطلَّب الوجود في المكتبة الهدوء، وعدم إطلاق أصوات البهجة حتَّىٰ لا يتأذّىٰ الآخرون. (المراجع).

بين العُلُومِ الطَّبيعيةِ من جهة[١]، والعُلُوم الاجتماعيةِ والنَّفسيةِ من جهةٍ أُخرىٰ[٢].

انطلاقاً من المعنيينِ المختلفينِ الأساسيينِ لكلمةِ (السَّبب)، يصبحُ من الواضحِ - علىٰ الأقلِّ عندما نتحدَّث عن السُّلوكِ البشري - أنَّنا نحتاجُ إلىٰ تمييزٍ موازٍ بين معنيينِ مختلفينِ لـ (الحَتْمية): الحتْميةُ الناتجةُ عن أسبابٍ فيزيائية، والحتميةُ الناتجةُ عن أسبابٍ معنوية (أو أخلاقية). من المؤكَّدِ أنَّه إذا كان هناك سلوكٌ ما يتحقَّقُ بنظامِ الأسباب الفيزيائية، فإنَّ فاعلَ السُّلوك لم يكن حرَّاً في هذا السُّلوك، ولم يكن بمقدورِهِ أنْ يمنَعهُ من الحدوث[٣]. لكن الحتميةُ الناتجةُ عن أسبابٍ معنوية (أو أخلاقية) هي شيءٌ آخر. فأنْ تُفسِّرَ سلوكَ فرْدٍ من خلالِ الإشارةِ إلىٰ دوافعِهِ للفعلِ كما وَقَعَ، يعني أنَّكَ تفترضُ ضمناً أنَّه كان بمقدورِهِ أنْ يتصرَّفَ بنحوٍ آخر[٤].

---

(١) المحكومة بقوانين طبيعية لا أثرَ للإرادة الإنسانية فيها. (المراجع).

(٢) التي تعتبرُ الإرادةَ الإنسانية عنصراً أساسياً ومحورياً فيها. (المراجع).

(٣) فمثلاً سلوك زهرة دوَّار (عبَّاد) الشَّمس، التي تتحرَّك مع حركةِ الشمس، لا يمكن القول: إنَّ حركتَها إرادية، لأنَّها تقع ضمن نظام الأسباب الفيزيائية. (المراجع).

(٤) في ضوء هذا التمييز، يمكن القول: إذا كان وقوعُ حادثةٍ ما في العالَم الفيزيائي (بنحوٍ محتوم) يتطلَّبُ اجتماعَ شروط متعدِّدة معيَّنة (علَّة تامَّة)، فإنَّ الإرادةَ الحرَّة قد تكون شرطاً فريداً من تلك الشُّروط (الجزء الأخير من العلَّة التامَّة). فمثلاً إذا كان وقوع حادثة إطلاق نار من مسدَّس يتطلَّبُ اجتماع شروط متعدِّدة، كوجود مسدَّس، وصلاحيته للعمل، ووجود طلقات بداخلِهِ، وسلامتي البدنية، فتكون إرادتي الحرَّة حينئذٍ بإطلاق النار هو الشَّرط الأخير، والفريد بطبيعتِهِ، الذي يُحقِّق وقوع هذه الحادثة.

وإلىٰ هذا المعنىٰ أشارَ أئمَّةُ أهل البيت عليهم السلام قبلَ أكثر من ألفِ عام بقولِهم: «لا جبرَ ولا تفويض، ولكن أمرٌ بين أمرين». وقبْلُهُم القرآنُ الكريم في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ ⇦

من المؤكَّدِ أنَّ الفشلَ في تشخيصِ هذه التَّمييزات الأساسية سوف يُضلِّلُ الكثيرَ من الناسِ ويقودُهُم للاستنتاجِ بأنَّ تفسيرَ وقوع حدثٍ ما بأسبابٍ فيزيائيةٍ أو معنويةٍ يُؤيِّدُ مبدأَ الحتْمية الكونية الفيزيائية[١]. وهذا يعني أنَّه كان من المستحيلِ علىٰ أيِّ فاعلٍ أنْ يسلُكَ خلافَ السُّلوك الذي صدَرَ منه.

ما نحتاجُهُ لتجنُّب مثل هذه الأخطاء (كما فعلْتُ في كتابِ (الحياة الاجتماعية)، و(الحكم الأخلاقي)) هو التحليلُ المنطقي لثلاثةِ أفكار مترابطة: (الفاعل)، (حرِّية الاختيار)، (القُدْرة علىٰ اختيارِ غير ما اخترناهُ في الواقع). عندما نستطيعُ التَّمييز بين التحرُّكات (movings) والحركات (motions)، فإنَّه يمكنُنا أنْ نُفسِّرَ التصوُّر الأساسي: (الفعل action)[٢]. التحرُّك (moving) هو حركةٌ يتمُّ القيامُ بها اختيارياً، وأمَّا الحركة (motion) فهي حركةٌ لا يمكنُ تجنُّب القيام بها. فالقُدْرةُ علىٰ التحرُّكِ هي خاصيَّةٌ للبشَرِ فحَسْب، أمَّا الكائنات التي لا تمتلكُ الإدراكَ والقصْد فإنَّ ما تقوم به هو مجرَّدُ حركة (motion).

⇦ اللهَ رَمىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، حيثُ أثبتَ له الرَّمي في عين نفيهِ، ونفاهُ في عين إثباته. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، فللإنسان - بخلافِ بقية الكائنات - مشيئة وإرادة حرَّة، لكنَّها مُعلَّقة علىٰ مشيئةِ الله وإرادته. ولا تناقُضَ في ذلك، فالمسألةُ مرتبطةٌ بزاويةِ النَّظر، فإنْ نظرْتَ من زاويةِ الإنسان الفرد الواعي القادر، رأيتَ تجلِّياً للإرادةِ الإنسانيةِ الحُرَّة، وإنْ نظرْتَ من زاويةِ المشهد الكُلِّي، لتسلْسُل وسير الأحداث المُعقَّد بنحوٍ مذهل، رأيتَ يدَ الغيب والحتمية والضَّرورة المرتبطة بالإرادةِ الإلهية. (المراجع).

(١) يقصد بذلك حتمية جميع حوادث الكون الشَّاملة لأفعال الإنسان الإرادية. (المراجع).

(٢) كلمة (الفعل action) تُستَخدمُ في هذا السِّياق في الأفعال الصادرة من الإنسان بالتحديد. (المراجع).

الفاعلونَ هم المخلوقات القادرة علىٰ حرِّيةِ الاختيار في أنْ تفعل أو لا تفعل: الاختيار بين عدَّةِ بدائلٍ للفعلِ أو عدم الفعل، وهي البدائلُ التي تتغيَّرُ من وقتٍ لآخرَ حسب الظُّروف. والفاعلون - من خلالِ دورِهم كفاعلين - ليس بوسعِهم تجنُّب الاختيار بين بديلين، أو غالباً أكثر، من البدائلِ المتاحة لهم في وقتِ الحدث.

التَّمييزُ الحاسمُ بين التحرُّكاتِ المتضمَّنة في (الفعل)، والحركة التي تُشكِّلُ السُّلوكَ الضَّروري، يكمُنُ في أنَّ السُّلُوكَ الأخير هو ضروريٌّ فيزيائياً. بينما معنىٰ، واتِّجاه، وخاصية الـ (فعل) لا يمكن أنْ يكونَ ضرورياً من الناحيةِ الفيزيائية. ويترتَّبُ علىٰ ذلك استحالة القول بمذهبِ الحَتْميةِ الفيزيائية الشَّاملة في الكون، بنحوٍ يشمل حركة جسَد الإنسان، من خلالِ القول: إنَّ (التحرُّكات) بالإضافةِ إلىٰ (الحركاتِ) هي معاً محكومةٌ بأسبابٍ فيزيائيةٍ حتمية.

في ضوءِ تراجُعي عن القولِ بالتَّوافقيَّةِ الكاملة، فإنَّ الكثيرَ ممَّا كتبتُهُ عن الإرادةِ الحرَّة أو الاختيار، في سياقِهِ العِلْماني أو الدِّيني، يحتاجُ إلىٰ تعديلٍ وتصحيح. إنْ أخذنا بالاعتبار أنَّ هذا الأمرَ يتعلَّقُ بالسُّؤالِ الثاني من أسئلةٍ كانت الفَلْسفية الثلاثة الأساسية: (الإله والحرِّية والخلود)، فإنَّ تغيير قناعتي بشكلٍ جوهريٍّ في الحرِّية، يُماثِلُ التَّغيير الجوهري لوجهةِ نظري في السُّؤالِ الأوَّل عن الإله.

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث:

إعادةُ النَّظَرِ في الإلحادِ بهدوء

ATHEISM CALMLY CONSIDERED

كان جورج هيرْمان روث (George Herman Ruth)[1] أفضـلَ لاعـبٍ في الدَّوري، وكان في بدايتِهِ أفضلَ ضاربٍ، وبعد ذلك أصبحَ لاعبَ وسطٍ يُسجِّلُ (٢٩) هدفاً في المباراةِ الواحدة، وفي الوقتِ نفسِـهِ لعـبَ في مركـزِ الضَّـاربِ في (١٧) مباراة، وكان ذلك في عام (١٩١٩م). بعد ذلك باعَ مالكُ نادي بوسـطن رد فوكس، هاري فريـزي (Harry Frazee) - الـذي قيـلَ في وقتِهـا إنَّـه يحتـاجُ للأموال - باعَ روث إلىٰ نادي نيويورك مقابلَ (١٢٥,٠٠٠) دولار. قادَ روث نادي نيويورك للبطولةِ الأمريكيةِ في سبعةِ مواسـم، وقـادَهُ أيضـاً أربـع مـرَّات لبطولةِ العالَم. ولم يستطع نادي رد فوكس أنْ يحصُلَ بعـدَها عـلىٰ البطولـةِ إلَّا في عام (٢٠٠٤م)، أي بعد خمسٍ وثمانينَ سنة.

مـن المثـيرِ أنَّ (٢٠٠٤م) كـان العـام الـذي أعلنْـتُ فيـه في نيويـورك أيضاً عن (تحوُّلي) إلىٰ التوحيدِ بعدَ أكثـرَ مـن سـتَّةِ عقـودٍ مـن الإلحـاد، حيـثُ أعلنْتُ أنَّـني غـيَّرْتُ (فريقـي) إنْ صـحَّ التعبـير. ولكنَّـني بـدأتُ أيضـاً أنظُـرُ إلىٰ الأُمورِ مـن زاويـةٍ أُخـرىٰ، لأنَّـني كنْـتُ لا أزالَ أُمـارسُ (اللُّعبـةَ) بـنفسِ الحماسِ والمبادئِ كما كُنْتُ في السَّابق.

* * *

---

(١) (١٨٩٥ - ١٩٤٨م)، يُعتَـبر أعظـم لاعــب كـرة القاعـدة (بيسـبول) في تـاريخ الولايـات المتَّحدة.

واجبٌ تجاهَ الحوار

(A DUTY TO DIALOGUE)

توجَّـتُ رحلتـي نحـو التَّوحيـد بنَشْـرِ كتـاب (فرضيَّة التَّوحيـد The Presumption of Qtheism). وفي كتابـاتي اللَّاحقـة تناولْـتُ عـدَّة موضـوعات بشـكلٍ مختلـفٍ تمامـاً. في الواقـعِ، كتبْـتُ في مقالـةٍ نُشِـرَت ضـمْنَ كتـاب صـدَرَ في عـام (١٩٨٦م) تحـتَ عنـوان (الفَلْسـفةُ البريطانيَّـةُ اليـوم British Philosophy Today)، أَنَّنـي أرغـبُ بعمـلِ أشـياءٍ أُخـرىٰ إنْ سـمحَ لي الوقـتُ بـذلك. أودُّ، علىٰ سـبيلِ المثـال، أنْ استكشِـفَ النِّزاعـات التَّاريخيـة الكبـيرة حـولَ بُنْيـةِ الثَّـالوث (structure of the Trinity)[1]، وحـولَ مـا يجـري في القُرْبـانِ المُقـدَّس (Eucharist)[2]. مـع ذلـك، وبحلـولِ أواخـر السـتِّينات مـن القَرْنِ الماضي، أصبحَ واضـحاً لي أنَّ الحاجـةَ لجهـودي ماسَّـةٌ في مكـانٍ آخـر. كُنْتُ علىٰ قناعةٍ بأنَّ علـيَّ في بقيَّـةِ حيـاتي تركيـز طاقـاتي في المجـالاتِ العِلْمانيـة الواسعة لفَلْسفةِ العُلُوم الاجتماعية والفَلْسفة الاجتماعية.

بما أَنَّني قُلْتُ الكثيرَ حـولَ فَلْسـفة الـدِّين خـلالَ سـنواتٍ طويلـة، فـإنِّي أجـدُ نَفْسـي مُلْزمـاً مـن الناحيـةِ الفكريـة بـأنْ أَرُدَّ علىٰ أيِّ انتقـادٍ قَـدْرَ

(١) العقيـدة المسـيحية في الثـالوث، أي الاعتقـاد بالإلـه الواحـد الـذي لـه أقـانيمٌ ثلاثـة: الأب، الابن، الرُّوح القُدُس.

(٢) أحـد الأسرار السـبعة المقدَّسـة في الكنيسـتين الكاثوليكيـة والأُرثوذكسـية، و هـو تـذكيرٌ بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشيَّة آلامه.

الإمكان، إمَّا بالاعترافِ بأنَّني كنْتُ مخطئاً أو ببيانِ سببِ عدمِ اتِّفاقي مع مُنتقديّ. ولذلك ظَلَلْتُ في النِّقاشِ مع المدافعينَ عن التَّوحيد الذين استمرُّوا هم أيضاً في نقدِ وتحدِّي حالةَ إلحادي، حتَّىٰ بعد انتقالي إلىٰ مواضيعَ فَلْسفيةٍ أُخرىٰ.

لم يكن هذا التحدِّي شيئاً جديداً بالنِّسبةِ لي. في الواقعِ، لقد أمضيْتُ مسيرتي الفَلْسفية كلَّها في حواراتٍ حماسيَّةٍ ونقاشٍ عامٍّ مع مُفكِّرينَ يختلفونَ معي في العديدِ من الموضوعاتِ التي تتراوحُ ما بين الفَلْسفةِ الاجتماعية، مشكلة الجسد/ العقل، مشكلة الإرادة الحرَّة/ الحَتْمية، فيما يتعلَّق بوجودِ الإله. لقد استغرَقَ النِّقاشُ في هذه الموضوعاتِ أكثرَ من نصْفِ قَرْنٍ من حياتي الفكرية.

في عامِ (١٩٥٠م) سعيْتُ لتحديدِ ماذا يُقصَدُ بالقولِ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّكَ)؟ وفي عامِ (١٩٧٦م) حاولتُ أنْ أُوضِّحَ (هل مفهومُ الإله مُتماسِكٌ؟)، وفي عامِ (١٩٨٦م) كنْتُ أُحاولُ أنْ أُحدِّدَ علىٰ من يقعُ عبءَ تقديمِ الدَّليلِ؟ وفي عامِ (١٩٩٨م) كنْتُ أُناقِشُ تداعيات الانفجار الكوني الكبير.

خلالَ كلِّ ذلك، لم يُساعِد اشتراكي في المناظراتِ والنِّقاشاتِ اللَّاهوتية علىٰ تقويةِ آرائي فحسب، بل أتاحَ لي فرْصةَ التعرُّفِ علىٰ العديدِ من الزُّملاءِ والخصوم الذين يستحِقُّونَ الاحترام رغمَ اختلافي معهم.

* * *

الاحتفاظ بأسلِحتي

(STICKING TO MY GUNS)

من بينِ جميعِ المناظرات التي شاركْتُ فيها، كانت هناك مناظرتانِ في عامي (١٩٧٦ و١٩٩٨م) اعتبرُهُما الأفضل.

الأُولىٰ مناظرةُ عام (١٩٧٦م) مع توماس وارِن (Thomas Warren) في مدينةِ دينْتون بولايةِ تكساس، حيث كان الحضورُ ولعدَّةِ أيّامٍ يتراوحُ ما بين خمسة إلىٰ سبعةِ الآلاف متابع. أمَّا مناظرةُ عام (١٩٩٨م) فكانت مع وليام لين كريج (William Lane Craig)[1] في مدينةِ مديسون في ولايةِ ويسْكِنْسن، وكان الحضورُ يُقدَّرُ بأربعةِ الآلاف. فقط في هاتينِ المناظرتين لعبْتُ دورَ البطل في مناظرةٍ عامَّة.

تُعقَدُ المناظراتُ في المملكةِ المتَّحدةِ عادةً بحضورٍ أكاديميٍّ قليل. لذا، تجرُبتي الأُولىٰ في مواجهةِ جمهورٍ كبيرٍ في سياقِ مناظرةٍ، كانت في مواجهةِ البروفيسور الرَّاحل الفيلسوف المسيحي توماس وارِن (Thomas B. Warren)[2]. وقد عُقِدَت المناظرةُ في حرمِ جامعةِ شمال تكساس في مدينةِ دينْتون، علىٰ مدىٰ

(١) فيلسوف أمريكي مسيحي، وُلِدَ في (١٩٤٩م)، ويُعتَبر من أشهر اللَّاهوتيين المدافعين عن المسيحية في العالم، عُرِفَ بمناظراته المفعمة بالحماسة. قام بمناظرة أشهر أعلام الإلحاد في العالم، مثل: ريتشارد دوكينز وسام هاريس، وغيرهم كثير. مناظراته مرفوعة علىٰ اليوتيوب. (المراجع).

(٢) فيلسوف أمريكي ولاهوتي مسيحي، (١٩٢٠ - ٢٠٠٠م).

أربعِ ليالٍ متتالية، بدايةً من (٢٠) سبتمبر من عام (١٩٧٦م)، وهو التاريخ الذي تزامنَ مع المناظرةِ الرِّياسيَّةِ الأُولىٰ بين جيمي كارتر (Jimmy Carter) وجيرالد فورد (Gerald Ford). أمامَ جمهورٍ متحمِّسٍ، قدَّمَ البروفيسور وارِن مجموعةً مؤثِّرةً من الرُّسومِ واللَّوحاتِ التَّوضيحية.

والمثيرُ أنَّ جزءاً كبيراً من محاضرتِهِ ذهبَ للهُجومِ علىٰ نظريةِ التطوُّر (theory of evolution)، التي كانت بالنِّسبةِ لي في ذلك الوقت مهمَّةً غير مألوفة. وعندما سألني البروفيسور وارِن عمَّا إذا كُنْتُ أعتقدُ بأنَّ هناك موجوداً نِصْفُ قِرْد (ape) ونِصْفُ إنسان، كان ردِّي بأنَّ ذلك يشبهُ السُّؤال عمَّا إذا كان شخصٌ ما أصْلَعاً أم لا. كان رأسُ المُشْرف علىٰ رسالتي في الدُّكتوراه جلْبرت رايل يشبهُ البيضة (لم يكن علىٰ رأسِهِ أيَّة شعرة)، وليس هناك شكٌّ بأنَّ أيَّ شخصٍ لا بدَّ أنْ يقولَ: إنَّه أصْلَع. ولكن في زمنِ تساقُط الشَّعر، ليس من السَّهلِ تعريف من هو الأصلع، ومن هو غير الأصلع[١].

ومع ذلك، وأخذاً لآرائي الحالية بالاعتبار، ربَّما كان عددٌ قليلٌ من عباراتي الإخبارية (declarative statements)[٢] (الجُمَل التي ليست سؤالاً أو أمراً أو استفهاماً) في تلك المناظرة مهمَّاً، في توضيحِ قوَّة اعتقاداتي الإلحادية، من قبيل:

---

(١) يقصد (فلو) أنَّه في ضوء نظرية التطوُّر، التي تفترضُ أنَّ الإنسان تطوَّرَ من كائنٍ بدائيٍّ يشبه القرد (ape)، من الصعب تحديد لحظة انتقالهِ من فئةٍ إلىٰ فئة أُخرىٰ، لأنَّ التطوُّرَ تدريجيٌّ وبطيءٌ جدَّاً. كما هو الحال عند تساقط الشَّعر، فعندما يبدأ الشَّعر بالتساقط من رأس إنسان، من الصَّعب الحكم عليه أنَّه متىٰ صار أصلعاً. (المراجع).

(٢) العبارات الإخبارية هي العبارات التي تحتملُ الصِّدْقَ أو الكذب، وتأتي في مقابلِ العبارات الإنشائية التي تنطوي علىٰ سؤالٍ أو أمرٍ أو استفهام...الخ، ولا تحتمل في ذاتِها الصِّدْق أو الكذب، إلَّا إذا تمَّ تحويلُها إلىٰ عباراتٍ إخبارية. (المراجع).

(أنا أعرفُ أنَّه ليس هناك إلهٌ).

(نظامُ الاعتقاد المتعلِّق بالاله) يتضمَّنُ (التَّناقُضَ) نفسَهُ الموجود في (الأزواجِ غير المتزوِّجين أو المربَّعات الدَّائرية).

(أَنا أميل إلىٰ الاعتقادِ بأنَّ الكونَ لا بدايةَ له وسيظلُّ دونَ نهايةٍ. وفي الحقيقةِ، أعرفُ أنْ لا جدوىٰ من تحدِّي أيٍّ من هذينِ الاعتقادين).

(أعتقدُ أنَّ الكائنات الحيَّة تطوَّرت علىٰ مدىٰ فترةٍ طويلةٍ لا يمكنُ حسابُها من موادٍّ غير حيَّة).

لقد تأثَّرْتُ بالاستقبالِ الحافلِ من قِبَلِ المسْتضيفين، ولكن المناظرة انتهت بتمسُّكي وتمسُّك وارِن بأسلحتِنا.

* * *

إطلاقُ نارٍ على زريبة[1]
(SHOOTOUT AT THE O.K. CORRAL)

مناظرتي التَّالية كانت بعد عَشْرةِ سنواتٍ من تلك المناظرة. وكانت أيضاً في تكساس، وعُقِدَت في دالاس في عام (١٩٨٥م)، وشَعَرْتُ بأنَّ الوضْعَ يبدو كإطلاقِ النار المَشْهور علىٰ الزَّريبة (O.K.) اشترَكَ معي في المناظرةِ ثلاثةٌ من مشاهيرِ المُلْحدين: والاس ماتْسون (Wallace Matson) وكي نلْسن (Kai Nielsen) وبول كيرتز (Paul Kurtz)، وقد واجهنا مجتمعين مجموعةً من كبارِ الفلاسفة اللّاهوتيين: ألفِن بلانتينْغا (Alvin Plantinga) ووليام ألسْتون (William P. Alston) وجون مافرودِس (George Mavrodes) ورالف ماكْلنيرني (Ralph McInerny).

علىٰ عكسِ المعاركِ المَشْهورة، لم تَشْهد هذه المناظرة أيَّةَ ألعابٍ ناريَّةٍ لأنَّ كلا الفريقين لم يرغب بجَذْبِ الانتباه لخَصْمِهِ. وكلا الفريقين تمسَّكَ برأيِهِ بأنَّ مهمَّةَ تقديم الدَّليل تقعُ علىٰ عاتقِ الطَّرفِ الآخر. لقد أصرَرْتُ علىٰ أنَّ فرضيَّةَ الإلحاد مشتقَّةٌ من المبدأِ القانوني القديم القائل بأنَّ (تقديمَ الدَّليل هي مسؤوليَّةُ المُدَّعي، وليس مسؤوليَّة المنكر). أمَّا علىٰ الطَّرفِ المُوحِّد، فإنَّ بلانتينغا أصرَّ علىٰ أنَّ الاعتقادَ بالإلهِ أمرٌ أساسيٌّ، وهو ما يعني أنَّ الموحِّدينَ ليسوا ملْزمينَ بتقديمِ الحُجَجِ علىٰ

---

(١) قصَّة تُصوِّر تبادل إطلاق النار بين أحد رعاة البقر الخارجين عن القانون وبين رجال الشرطة قرب زريبة خيول في الريف الأمريكي، وتمَّ إنتاج فيلم بنفس اسم هذه القصَّة.

صحَّةِ ادِّعائِهم، كما أنَّهم ليسوا مُلْزمينَ فيها بتقديمِ حُجَج لتأييدِ اعتقاداتٍ أساسيَّةٍ مثل وجود العالَم(١). أمَّا من جانِبنا المُلْحِد، فإنَّ نلسون اعتبرَ أنَّ فَلْسفةَ الدِّين مملَّة، في حين اعتبر ماتسون أنَّ الحُجَجَ التَّقليديةَ علىٰ وجودِ الإلهِ معيبة، أمَّا كيرتز فادَّعىٰ أنَّه ليس من الممكنِ استنتاج وجود مُوحِي مُقدَّس (إله) اعتماداً علىٰ الادِّعاءِ بوجودِ وحيٍّ مُقدَّس.

بينما كُنْتُ في دالاس، قابلْتُ اثنين من فلاسفةِ المسيحيَّةِ الإنجيلية، تيري ميثي (Terry Miethe) وهو يعمَلُ في مركزِ دراسات أكسفورد، وغاري هيبرماس (Gary Habermas) من كليَّةِ لينتشبيرغ (Lynchburg) بولايةِ فرجينيا، واللَّذانِ أصبحا صديقاي منذُ ذلك الوقت. في السَّنواتِ التي تلت ذلك، نُشِرَت لي مناظرتين: مناظرةٌ عن قيامةِ المسيح مع هيبرماس، ومناظرةٌ عن وجودِ الإله مع ميثي.

من جهتي - في مناظرتي مع ميثي - أعدْتُ تأكيدَ مجموعةٍ من مواقفي التي طوَّرْتُها خلالَ سنواتٍ عن انسجامِ تصوُّر الإله وفرضيَّة الإلحاد(٢). أمَّا ميثي فقدَّمَ صياغةً عميقةً للحُجَّةِ الكونية المبنيَّة علىٰ المقدِّمات التالية:

---

(١) لأنَّ بلانتينغا - كما مرَّ - يرىٰ أنَّ (الاعتقادات الأساسية) لا حاجة لتقديم الأدلَّة علىٰ صحَّتِها، مثل الاعتقاد بالعالم الخارجي، وعقول الآخرين، والاعتقاد بوقوع أحداث ماضية اعتماداً علىٰ الذاكرة، كذلك هو الحال في الاعتقاد بالله، لأنَّه من نمط الاعتقادات الأساسية. ويوازي مصطلح (الاعتقادات الأساسية) عند بلانتينغا، مصطلح (التصديقات البديهية) في أدبياتنا. (المراجع).

(٢) يقصد (فلو) الانسجام بين تصوُّر الإله وعدم الإيمان به. فمن الممكن أنْ يحمِلَ الإنسانُ تصوُّراً عن الإله دون أنْ يؤمن به، لأنَّه يرىٰ أنَّ الأدلَّة علىٰ وجوده غير كافية. (المراجع).

بعضُ الكائناتِ المُتغيِّرة بنحوٍ محدود، موجودةٌ.

الوجودُ الحاضِرُ لكُلِّ كائنٍ متغيِّرٍ بنحوٍ محدود، ناتجٌ عن آخر.

لا يمكن أنْ يكون هناك تسلسلٌ (تراجعٌ) لا نهائي لأسبابِ الكائنات، لأنَّ التَّسلسلَ اللَّانهائي للكائناتِ المتناهية لن يكون (سبباً) لوجودِ أيِّ شيء.

إذاً، يوجدُ سببٌ أوَّلٌ للوجودِ الحاضِرِ لهذه الكائنات.

السَّببُ الأوَّلُ يجب أنْ يكون لا متناهياً، ضرورياً، خالداً، وواحداً.

السَّببُ الأوَّلُ الذي لا سببَ له، متطابقٌ مع إلهِ التَّقليد اليهودي/ المسيحي[1].

هذه الحُجَّةُ لا تستندُ إلىٰ مبدأِ العلَّةِ الكافية (**sufficient reason**)[2] الذي رفضْتُهُ، وإنَّما تستندُ إلىٰ مبدأِ السَّببيَّة الوجودية. لقد رفضْتُ هذه

(١) هذه الحجَّة يُقالُ لها: (دليل الحركة والتغيّر)، وهو دليلٌ موروثٌ من أُرسطو، حيث ذكر بأنَّ المُحرِّك الأوَّل يجب أنْ يكون غير متحرِّك، وإلَّا وقع محذور الدُّور أو التسلسل. فالتسلسل في العِلَل مُحال. ثمَّ طرح الفلاسفة المسلمون في مباحث العلَّة والمعلول أدلَّة كثيرة علىٰ امتناع الدور والتسلسل، أنهاها صدر الدِّين الشِّيرازي إلىٰ عشرة براهين. (المراجع).
للاطِّلاع علىٰ تفاصيل مهمَّة تتعلَّق بإثبات استحالة وامتناع التسلسل من خلال كلمات الفارابي وابن سينا والسهروردي والفخر الرازي ودبيران الكاتبي وعضد الدين الإيجي وصدر الدين الشيرازي، ومعرفة البراهين التي أقاموها لإثبات قاعدة (التسلسل محال)، راجع: القواعد الفلسفية العامَّة في الفلسفة الإسلاميَّة للدكتور غلام حسين الديناني ١: ١٣٥ - ١٤٣/ ط ١/ ٢٠٠٧م/ دار الهادي/ بيروت. (المراجع).

(٢) العلَّة الكافية قضيَّة أو مجموعة قضايا معروف أنَّها صادقة، منها يمكن اشتقاق النتيجة منطقياً.

الحُجَّة علىٰ أساسِ أنَّ الأسبابَ الفاعلةَ في الكون تكونُ فاعلةً بذاتِها دونَ الحاجة إلىٰ سببٍ فاعلٍ أوَّل. مع ذلك، قُلْتُ: إنَّه (رغمَ صعوبة الاعتقاد بالوجودِ المستمرِّ للكونِ الفيزيائي - وهو ما يحتاجُ إلىٰ تفسيرٍ خارجي - فإنَّ من السَّهلِ اقناعَ العامَّة بأنَّ الانفجارَ الكبير يستلزمُ وجودَ سببٍ أوَّل)[1].

* * *

(١) يقصد (فلو) أنَّه كان يعتقد أنَّ مهمَّة المؤمنين بالإله مع عامَّة الناس سهلة، لأنَّه من السهل إقناعهم بأنَّ الانفجار الكبير يستلزم وجود سبب أوَّل، في حين أنَّ مهمَّته كمُلْحد يؤمن آنذاك بالوجودِ المستمرِّ لهذا الكون (لا بداية له)، هي مهمَّة صعبة. لذا سنرىٰ لاحقاً أنَّ فلو غيَّرَ رأيه وصار يؤمن بالانفجار الكبير، الذي دفعه للتساؤل عن سببه الأوَّل. (المراجع).

الاستمرارُ بسُرْعة

(HOLDING FAST)

في الوقــتِ الــذي كُنْــتُ أقــومُ فيــه بالتَّــدريسِ عــام (١٩٨٠م)، في جامعــةِ بولِنْــغ غــرين (Bowling Green) بولايــةِ أُوهــايو، كانــت لي منــاظرةٌ طويلـةٌ مـع ريتْشـارد سـوينْبيرن، وهـو كـما ذكـرْتُ سـابقاً خلَفَنـي في جامعـةِ كييل، وبعد ذلك أصبحَ أُستاذاً في أكسفورد.

سوينْبيرن أصبحَ أشهرَ مُدافعٍ عن التَّوحيدِ في الدُّولِ الناطقة بالإنكليزية. وقد أشادَ أحدُ زملائي السَّابقين مـن التيَّـارِ الشـكِّي تِـرِنْس بيـنِلْهَم (Terence Penelhum) بكتابِ سوينْبيرن وهو بعنوان (اتِّساق التَّوحيـد The Coherence of Theism) بقولِهِ: (أنا لا أعرفُ أيَّ دفاعٍ ضدَّ الفَلْسفة الشـكِّية المعـاصرة يمكـن مقارنتُهُ بهذا الكتاب من حيثُ النوعيةِ والوضوح في الفِكْر).

أحدُ التصوُّرات التي دافعَ عنها سوينْبيرن بقوَّةٍ هو تصوُّر روح غير مادِّية عالِـة بكُـلِّ شيء، وهـو أحـدُ أهـمّ التصـوُّرات التـي تناولْتُهـا في كتـابِ (الله والفَلْسفة). وكما هو الحال في مناظرتي مع بلانتينْغا، فإنَّ مناظرتي مع سـوينْبيرن انتهت إلىٰ طريقٍ مسدود، حيثُ تمسَّكَ كلانا بموقفِهِ. لم أجـد أيَّ مُـبرِّرٍ لتصـوُّر روح غير مادِّية، بينما لم يجد سوينْبيرن مُبرِّراً لأيِّ شخصٍ في رفضِ تلك الفكرة. حواراتي مع سوينْبيرن لم تنْتَهِ إلىٰ هذا الحدِّ، كما سيتَّضِحُ لاحقاً في هـذا الكتـاب، بل استمرَّت إلىٰ اليوم. بالمناسبةِ، عندما انتشَـرَ خـبرُ تحـوُّلي إلىٰ التَّوحيـدِ علَّـقَ بلانتينْغا علىٰ ذلكَ بالقول: (إنَّ هذا يدُلُّ علىٰ صِدْقِ وأمانةِ البروفيسور فلو. فهو

بعد كلِّ هذه السِّنين من معارضةِ فكرةِ الخالِق، ها هـو يُغـيِّرُ موقِفَـهُ اسـتناداً إلىٰ الدَّليل).

تلَـت المنـاظرة مـع سـوينْبيرن منـاظرة أُخـرىٰ مـع وليـام لـين كـريج (William Lane Craig) في عـــام (١٩٩٨م) في ميدســـون بولايـــةِ ويسكنســـون. وقـد عُقِـدَت المنـاظرةُ بمناسـبةِ الـذِّكرىٰ الخمسـين لمنـاظرةِ الإذاعـة البريطانيـة بي بي سي (BBC) الشَّـهيرة بـين برْترانـد رَسِـل وفريـدْرِك كوبْلِسْتون (Frederick Copleston). جـادَلَ كـريج بـأنَّ أصـلَ الكـون والنِّظـامَ المعقَّد فيه يمكـن تفسـيرُهُ بأفضـلِ نحـوٍ بوجـودِ إلـه. وقـد قُمْـتُ بـالرَّدِّ عليـه بـأنَّ معرفتَنـا عـن الكـونِ يجـبُ أنْ تتوقَّـفَ عنـد الانفجـارِ الكبـير، والـذي ينبغي رؤيتُهُ علىٰ أنَّـه الحقيقـة النِّهائيـة (Ultimate fact). أمَّـا مـا يتعلَّـق بحُجَّـةِ التَّصـميم، فـأشرْتُ إلىٰ أنَّـه حتَّـىٰ أعظـمَ الكائنـات المُعقَّـدة في الكـون - البشـر - هي نتاجُ قوىٰ فيزيائية وميكانيكية.

في هذه المنـاظرة، كـرَّرْتُ مـوقفي بـأنَّ الإلـهَ الـذي هـو عـلىٰ كـلِّ شيءٍ قدير، يمكـنُ أنْ يجعَـلَ البشَــرَ يطيعونَـهُ باختيـارِهِم. وهـذا يعنـي أنَّ الـدِّفاعَ التَّقليدي عـن الإرادةِ الحُـرَّة لا يسـتطيع تجنُّـب مـا يترتَّـب عـلىٰ ذلـك مـن أنَّ الإلـهَ قـد حَـدَّدَ مصـيرَ جميـع الأشـياء، بـما فيهـا الاختيـارات الحُـرَّة. كنْـتُ أرفُـضُ عـلىٰ الـدَّوام الاعتقـاد بفكـرةِ المصـير المُسْـبق، والتـي تـنُصُّ عـلىٰ أنَّ الإلـهَ حـتَّمَ الخطيئـة عـلىٰ معظَـمِ البشـر[1]. مـن خصـائصِ هـذه المنـاظرة،

(١) في ضوء هذا المنطق، لا فرق سواءٌ قُمْنا بالطاعات أم بالمعاصي، جئنا بأعمال حسنة أم قبيحة، لأنَّ كلَّ شيء مقدَّر مسبقاً! وهي فكرة رائجة حتَّىٰ في أذهـان بعـض المسـلمين، ومفادهـا: (رُفِعَـت الأقلام وجفَّت الصُّحُف، فكلُّ أعمالنا مكتوبة ومقدَّرة، وبالتالي إرادتنا الحرَّة لن تُغيِّر شيئاً مـن مصيرنا!). ⇦

رَفْضُ كريج لأفكارِ المصيرِ المُسْبق التَّقليدية ودفاعُهُ عن الإرادةِ الحرَّة اللِّيبرالية. ذهبَ كريج إلىٰ أنَّ الإلهَ يتدخَّلُ مباشرةً في النتائج (المسبَّبات)، ولا يتصرَّفُ كعاملٍ ثانوي، ولذلك فقد كان من المستحيلِ أنْ يخلُقَ الإلهُ عالمَاً مُكوَّناً من كائناتٍ حُرَّةٍ تفعلُ الأمرَ الصَّائب. واستشهَدَ كريج بنصوصٍ من الكتابِ المقدَّس تُؤكِّدُ رغبةَ الإلهِ في أنْ (يظفَرَ جميعُ الناسِ بالنَّجاة (الخلاص)) (مثال: رسالة بطرس الثانية ٣: ٩)[١]. حديثاً وجدْتُ أنَّ جون ويسْلي (John Wesley) - الذي أعتبرُهُ أحدُ أعظم أبناء بلدي - قادَ حملةً ضدَّ فكرة المصير المُسْبق وتأييداً للبديلِ (الأرمني Arminian alternative)[٢]، خصوصاً في ورقتِهِ البحثية العظيمة (إعادةُ النَّظَرِ بهدوء في المصيرِ المُسْبق). أتفهَّمُ أيضاً أنْ يتعاطىٰ الكثير من المفسِّرين اليوم مع كتاباتِ القدِّيس بولس (St. Paul) في فكرةِ المصير

⇦ هؤلاء لم يستوعبوا الموقف العميق للإسلام تجاه القضاء والقدر. فالقضاء فيما يتعلَّق بمصير البشر - وفقاً لمدرسة أهل البيت عليهم السلام - علىٰ نحوين: محتوم وغير محتوم. إرادة الله في قضائه المحتوم، يتمثَّل في أُمِّ الكتاب. أمَّا إرادة الله، في قضائه غير المحتوم، فتتغيَّر تبعاً لتغيُّر إرادة البشر في اختياراتهم الحرَّة. لذا قال تعالىٰ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾ (الرعد: ٣٩). (المراجع).

(١) وردَ في هذا الموضع من رسالةِ بطرُس الثانية (من العهد الجديد في الكتابِ المقدَّس): (لا يتباطأ الربُّ عن وعدِهِ كما يحسَبُ قومٌ التباطؤ، لكنَّه يتأنَّىٰ علينا، وهو لا يشاءُ أنْ يهلِكَ أُناسٌ، بل أنْ يُقبلَ الجميعُ إلىٰ التوبة).
وهذا المعنىٰ يُذكِّرنا بدعاء الإمام زين العابدين في (الصَّحيفة السجّادية) ليوم الجمعة والعيد: «رزقُكَ مبسوطٌ لمن عصاكَ، وحلمُكَ معترضٌ لمن ناواك، عادتُكَ الإحسانُ إلىٰ المسيئين، وسُنَّتُكَ الإبقاءُ علىٰ المعتدين، حتَّىٰ لقد غرَّتْهُم أناتُكَ عن الرُّجوع، وصدَّهُم إمهالُكَ عن النُّزوع، وإنَّما تأنَّيتَ بهم ليفيئوا إلىٰ أمرِكَ». (المراجع).

(٢) تعني عودة المسيح.

المُسْبق[١] بوصفِها مرجعية لدورِ أفرادٍ محدَّدين في أعمالِ الكنيسة، وليس إلىٰ خلاصِهم أو هلاكِهم[٢].

* * *

(١) يقصد (فلو) رسالة بولس إلىٰ أهل أفسس (١: ٣ - ١٤)، رسالته إلىٰ أهل رومية (٨: ٢٨ - ٣٣)، رسالته الثانية إلىٰ تيموثاوس (٢: ١٠)، رسالته الثانية إلىٰ أهل تسالونيكي: ١٣ ...، كلُّ هذه المقاطع من رسائل بولس تُؤسِّس لفكرة المصير المُسْبق، وأنَّ الله قد حكم في قضائه القديم أنَّ بعضَ الناس (وهم مُحدَّدون) سيحظون بالخلاص والنعيم الأبدي، وبعضَهُم الآخر (وهم مُحدَّدون) سينتهي به المطاف إلىٰ الموت الأبدي. (المراجع).

(٢) بمعنىٰ أنَّ الكثيرَ من المُفسِّرين يُفسِّرون كلمات بولس في المصيرِ المُسْبق، بمعنىٰ أنَّ الله قد انتجبَ في قضائه القديم بعضَ الأشخاص، واصطفاهم لخدمةِ الكنيسة، ولا يُفسِّرونَ كلامه علىٰ أنَّ الله قد قضىٰ بشأنهم أنَّهم من أهل السعادة والخلاص، أو من أهل الشَّقاء والموت الأبدي. وعلىٰ هذا الأساس، فعلينا - وفقاً لفلو - أنْ لا نتزمَّت في فهم ظاهر كلمات بولس، لأنَّها يمكن أنْ تُفهَم بطريقةٍ لا تنتهي إلىٰ محذور المصير المُسْبق بشأن جميع البشر، كما يفعل الكثير من مُفسِّري كلمات بولس اليوم. (المراجع).

ظهوري الأوَّل في نيويورك
(MY NEW YORK DEBUT)

المناظرةُ العموميةُ الأخيرة لي، كانت في ندوةٍ في جامعةِ نيويورك، وتمَّتْ في مايو من عام (٢٠٠٤م). المشاركونَ الآخرون كانوا هم العالِمِ الاسرائيلي جيرالد شرويدر (Gerald Schroeder)[١]، مؤلِّف أفضل الكُتُب مبيعاً في مجالِ العِلْمِ والدِّين، وهو بعنوان (عِلْمُ الإله The Science of God)، أيضاً كان من ضِمْنِ المشاركين الفيلسوفُ الأسكتلندي جون هالدين (John Haldane)[٢]، الذي كان مشاركاً في مناظرةِ (التَّوحيد والإلحاد) حولَ وجود الإله إلىٰ جانبِ صديقي جاك سمارت (Jack Smart)[٣].

وكمفاجأةٍ لجميعِ المهتمّين، أعلنْتُ في البدايةِ أنَّني الآن بِتُّ أقبل

---

(١) فيزيائي وعالم نووي، مهتمٌّ بالتوفيق بين العلم والدين.

(٢) فيلسوف أسكتلندي، وُلِدَ سنة (١٩٥٤م)، وما زال علىٰ قيد الحياة.

(٣) فيلسوف أسترالي (١٩٢٠ - ٢٠١٢م)، متخصِّص في فلسفة الذهن، من أبرز القائلين بنظرية الهويَّة (Identity Theory)، سُمِّيت كذلك لأنَّها ترىٰ أنَّ العقل هو الدماغ وتسوِّي بينهما، وأنَّ الحالات النفسية والعمليات العقلية ليست إلَّا تغيُّرات فسيولوجية معيَّنة تحدُث في الجهاز العصبي المركزي أو حتَّىٰ في الدماغ فقط، وليس العقل أكثر من ذلك. هذه النظرية حديثة العهد، إذ بدأت في أواخر الخمسينات من هذا القرن، لكن الدعوىٰ قديمة نادىٰ بها فلاسفة قدماء مثل دموقريطس ومحدَثون مثل هوبز. ولعلَّ الجديد في النظرية المعاصرة أنَّ أصحابها جعلوا أقوالهم متَّسقة مع التطوّرات العلمية لعلم وظائف الأعضاء، وأفادوا من أخطاء السلوكية وثغرات السيبرنطيقا وتجنَّبوها. (المراجع).

بوجودِ إله. ما اعتُبِرَ في وقتِهِ تبادُلاً حادّاً لوجهاتِ النَّظر المتعارضة أثناءَ المناظرة، انتهىٰ إلىٰ أنْ يُصبِحَ بحثاً مشتركاً في التطوُّراتِ العِلْمية الحديثة، التي يبدو أنَّها تشيرُ إلىٰ ذكاءٍ خارق. في الفيديو الذي عُرِضَ في الندوة، ادَّعىٰ عرِّيفُ الندوة أنَّ أعظَمَ اكتشافات العِلْم الحديث هو الإله.

وعندما سُئِلْتُ في هذه الندوةِ إنْ كان بحثي حولَ أصل الحياة يُشيرُ إلىٰ ذكاءٍ إبداعي، أجبْتُ بالقول:

(نعم، أنا الآن أعتقدُ بذلك... بشكلٍ كاملٍ تقريباً بسببِ اكتشافات الحمض النووي (DNA). ما قدَّمَهُ اكتشافُ الحمض النووي - كما اعتقد - هو أنَّه أوضَحَ التَّعقيدَ الشَّديد غير القابل للتَّصديق للترتيباتِ اللازمة لخَلْقِ (حياة)، وهو الأمرُ الذي يوجبُ أنْ يكون هناك ذكاءٌ خارقٌ يجعلُ هذه العناصر المختلفة تعملُ معاً. إنَّه التَّعقيدُ الخارقُ لهذه العناصر والدِّقَّةُ الهائلةُ في الطُّرُقِ التي تتفاعل فيما بينها. اجتماعُ هذينِ الأمرين (التَّعقيد والدِّقَّة) في الوقتِ المناسب بالصُّدفةِ أمرٌ - بكلِّ وضوح - مستحيلٌ. لا بدَّ من أنَّ الأمرَ يتعلَّقُ بتعقيدٍ هائلٍ أنتجَ ما وصلْنا إليه، وهو ما بدا لي أنَّه نتاجُ ذكاء).

هذا التَّصريحُ مثَّلَ تغيُّراً كبيراً بالنِّسبةِ لي، لكنَّه مع ذلك كان يتَّسِقُ مع المبدأِ الذي تبنَّيتُهُ منذُ بدايةِ مسيرتي الفَلْسفية في اتِّباعِ الحُجَّة حيثما قادتني.

لقد تأثَّرْتُ بشكلٍ خاصٍّ بالتَّفنيدِ المُفصَّل الذي قامَ به جيري شرويدر (Gerry Schroeder) لما أسميْتُهُ (مُبرْهنةُ القِرْد monkey theorem). هذه الفكرةُ، التي قُدِّمَت بطُرُقٍ مختلفة، تُدافِعُ عن احتمالِ حدوث الحياة بالصُّدفة، من خلالِ استخدام مثال قيام مجموعة من القِرَدة بالعبَثِ علىٰ

لوحـةِ مفـاتيح الكمبـويتر، ليُنْـتِجَ هـذا العبـث في النِّهايـةِ كتابـة قصـيدة السُّونيتة (sonnet) لشكسبير.

أشارَ شرويدر في البدايةِ إلىٰ تجرُبـةٍ قـامَ بهـا المجلسُ الـوطني البريطـاني للفنون. حيثُ تمَّ وضْعُ كمبيوتر في قفصٍ بداخلِهِ ستَّةُ قُرُود. وبعـد شـهرٍ مـن العبَثِ بالكمبيوتر (بالإضافةِ لاستخدامِهِ كمرحاض!) أنتجت القـرودُ خمسـينَ صفحة مكتوبة، لكن دون كلمة واحدة تامَّة. وقد علَّـقَ شرويـدر بـالقول: (**إنَّ هذه كانت هي النتيجة، بالرَّغمِ من أنَّ الكلمةَ باللُّغةِ الإنجليزية يمكن أنْ تتكوَّنَ من حرْفٍ واحدٍ فقط (a) أو (I). فالحرْفُ (A) يمكنُ أنْ يُمثِّـلَ كلمـةً إذا كـان هناك مسافة إمَّا عن يمينِهِ أو يسارِهِ. فإذا أخذنا بالاعتبارِ أنَّ هناك ثلاثـينَ حَرْفـاً ورقماً علىٰ لوحةِ المفاتيح، فإنَّ احتمالَ الحصول علىٰ كلمةٍ مُكوَّنةٍ من حَرْفٍ واحد هو (٣٠ × ٣٠ × ٣٠)، أي (٢٧, ٠٠٠). وعندها يكونُ احتمالُ الحصول عـلىٰ كلمةٍ من حَرْفٍ واحدٍ هو أي (١: ٢٧, ٠٠٠)**).

بعد ذلك قامَ شرويـدر بتطبيـقِ قـوانين الاحـتمال عـلىٰ مثـالِ السُّـونيتة. وتسائَل: (**ما هي فُرْصَةُ الحصول علىٰ قصيدةِ السُّونيتة لشكسبير؟**).

وأكملَ قائلاً: (**كلُّ بيتٍ من أبياتِ القصيدة مُكوَّنٌ من العـددِ نفسِـهِ مـن الحروف، والقصيدةُ مُكوَّنةٌ من (١٤) بيتاً. وقد اخترْتُ البيتَ الذي يبدأُ بجملةٍ: (Shall I compare thee to a summer's day?)، وقُمْتُ بحسابِ عدد الحُرُوف، فكان عدَدُها (٤٨٨) حَرْفاً. ما هي احتمالية أنْ تعبَثَ القرود علىٰ لوحةِ المفاتيح وتكتُبُ (٤٨٨) حرفاً لتظهَر لكَ هذه الجملة بتعاقُبِ الأحـرُفِ نفسـها (أي تترتَّـب الــ (٤٨٨) حَرْفاً بالتَّرتيبِ نفسِهِ الذي نجِدُهُ في البيت)؟ النَّتيجةُ هي واحدٌ مقسـومٌ علىٰ (٢٦) مضـروبةٌ في نفسِها (٤٨٨) مرَّة. أو بكلمةٍ أُخرىٰ: هي (26^{-488})، وهو ما يُعادِل (10^{-690})**).

(الآن) عندما أحصىٰ العُلماءُ عددَ الجُسيماتِ في الكون (الكترونات، برتونات، ونيوترونات)، وجدوا أنَّها (10^{80})، أي واحد وعلىٰ يمينِهِ (٨٠) صفراً. معنىٰ ذلك أنَّه ليس هناك جسيماتٌ تكفي لإجراءِ المحاولات، وسنحتاجُ إلىٰ المزيدِ من الجُسيماتِ بمقدار (10^{600}).

وإذا حوَّلنا مادَّةَ الكون كلَّها إلىٰ رقاقاتِ كمبيوتر (computer chips)، تزِنُ كلٌّ منها جُزْءاً من المليون من الجرام، وافترَضْنا أنَّ كلَّ رقاقةٍ تستطيعُ أنْ تُجري المحاولات، بدلاً من القِرَدة، بسُرْعةِ مليون محاولة في الثانية، نجدُ أنَّ عددَ المحاولات التي تمَّت منذُ نشاة الكون هي (10^{90}) محاولة. أي إنَّكَ ستحتاجُ مرَّةً أُخرىٰ كوناً أكبر بمقدار (10^{600})! وهذا يعني أنَّك لن تحصل أبداً علىٰ السُّونيتة عن طريقِ الصُّدفة. فلا بدَّ أنْ يكون الكونُ أكبر بمقدارِ عشرة أُسّ ستّمائة مرَّة. ومع ذلكَ ما زالَ البعضُ يتوهَّم أنَّ القِرَدةَ بمقدورِها فعلُ ذلك كلَّ مرَّة)[١].

بعد أنْ استمعتُ إلىٰ محاضرةِ شرويدر (Schroeder) قُلْتُ له: إنَّه توصَّلَ بصورةٍ مُرْضيةٍ وحاسمةٍ إلىٰ أنَّ (مُبرْهنةَ القِرْد) ما هي إلَّا كومةٌ من القمامة، وأنَّ اختيارَ قصيدة السُّونيتة كمثالٍ كان مناسباً، لأنَّ البعضَ يتوهَّم أنَّ القِرَدةَ بإمكانِها كتابةُ روايةٍ كاملةٍ لشكسبير، مثل هاملْت أو عطيل، أو حتَّىٰ أعمال شكسبير بأسْرِها. فإذا كانت (مُبرْهنةُ القِرْد) غيرُ قادرةٍ علىٰ الصُّمودِ في قصيدةٍ واحدة، فمن المؤكَّد أنَّ من المستحيل القول بأنَّ عملاً رائعاً مثل أصْل الحياة (أي نشأة حياة من مادَّةٍ غير حيَّة) حدَثَ بالصُّدفة.

* * *

(١) Gerald Schroeder, “Has Science Discovered God?” http://science. lenicam.com.

مبارزة مع دوكينز

(DUELING WITH DAWKINS)

بالإضافةِ إلىٰ مناظراتي العامَّة، اشتركْتُ في مناقشاتٍ جدليَّةٍ كتابيَّةٍ متعدِّدة. ومن الأمثلةِ البارزة علىٰ هذه المناقشاتِ، السِّجال الذي حصَلَ مع العالِمِ ريتْشارد دوكينز (Richard Dawkins). فرغمَ أنَّني كُنْتُ من المِمْتدِحينَ لأعمالِهِ الإلحادية، إلَّا أنَّني كُنْتُ من الناقدينَ أيضاً لجينِهِ الأناني في مدرستِهِ الفكرية[1].

في كتابي (التطوُّر الدَّاروني)، أشرْتُ إلىٰ أنَّ الانتخابَ الطَّبيعي لا يُنْتِجُ بنحوٍ إيجابي أيَّ شيء. وأنَّه فقط يتخلَّص (يُقْصي)، أو يميل للتخلُّصِ، من كلِّ الأشياء غير القادرة علىٰ المنافسة. تحقُّق التنوُّع في الكونِ ليس بحاجةٍ لتنشيطِ أيِّ مَزِيَّة واقعية تنافُسية لتفادي الإقصاء؛ فمن الكافي أنْ لا تكونَ المزِيَّةُ عِبْئاً علىٰ حامِلِها وأنْ لا تُضعِف موقِفَهُ التَّنافُسي. لتقديمِ شرحٍ مُيسَّر، افترضوا أنَّني أملِكُ أجنحةً لا فائدةَ منها تحتَ ملابسي، لكن هذه الأجنحة من الضَّعفِ بحيث لا تستطيع رَفْعي عن الأرض. ونظراً لكونِ الأجنحة ضعيفة، لذا هي لا تُمكِّنني من الهُرُوبِ من الحيواناتِ المفترسة، ولا تُمكِّنني من جَمْعِ الطَّعام. لكنَّها ما دامت لا تجعلني (أكثرَ) عُرْضة للحيواناتِ المفترسة، لذا من المرجَّحِ أنْ أبقىٰ حيَّاً

---

(١) يشير (فلو) إلىٰ كتاب دوكينز (The Selfish Gene/ ١٩٨٩م)، وقد تُرجِمَ الكتاب بعنوان: (الجينة الأنانية)، ترجمة تانيا ناجيا/ ٢٠٠٩م/ دار الساقي/ بيروت. (المراجع).

وأحتفظَ بها وأُورِّثُها إلىٰ أحفادي. خطأ داروون كان يكمُـنُ في المبالغـةِ في تقـديرِ حُجَّتِهِ، حيثُ قال: إنَّ الانتخابَ الطَّبيعي يُنْتِجُ شيئاً مـا، والمبالغـةُ تـأتي بسـببِ توظيفه لتعبيرِ (الانتخاب الطَّبيعي) أو (البقاء للأصْلح) بدلاً من تعبيرِهِ المُفضَّل في نهايةِ مقالتِهِ (الحماية الطَّبيعية natural preservation).

لقد ذهبتُ للإشارةِ إلىٰ أنَّ كتابَ دوكينز (الجين الأناني) كان تدريباً رئيسياً علىٰ ممارسة التَّضليل الشَّعبي. كفيلسوفٍ مُلْحِـد، اعتـبرْتُ أنَّ هـذا النـوعَ مـن العمَلِ الشَّعبوي مُدمِّرٌ بحدِّ ذاتِهِ إمَّا (كقِرْدٍ عارٍ) أو (كحديقةِ حيـوانٍ بشـرية) اللَّذينِ كتبَهُما ديسموند موريس (Desmond Morris). قـدَّمَ مـوريس في أعمالِـهِ، كنتيجةٍ لأبحاثِهِ الحيوانية، قَدْراً إضافياً من الإنكارِ المُـنظَّم لفكـرةِ أنَّ المُكوِّنـات المُميِّزة لنا تبدو كظاهرةٍ بيولوجيـة. لكنَّـه تجاهـلَ الاختلافـات الواضـحة بـين الكائناتِ البشرية وبقيَّةِ الأنواع.

مـن ناحيـةٍ أُخـرىٰ، اجتهـدَ دوكينـز في التَّقليـلِ والانتقـاصِ مـن ثمـرةِ أكثر من خمسينَ عامـاً مـن الأبحـاثِ في مجالِ الجينـات، التـي توصَّـلَتْ إلىٰ أنَّ قَسْماً كبـيراً مـن الصِّـفاتِ الظَّـاهرة للكائنـاتِ الحيَّـة تتكيَّـفُ نتيجـةً للتَّفاعُـلِ الـدَّاخلي فـيما بـين مجموعـةٍ مـن الجينـات، في حـين أنَّ معظـمَ الجينـات لهـا تـأثيراتٌ متعـدِّدةٌ عـلىٰ هـذه الصِّـفات. بالنِّسـبةِ لـدوكينز، الأمـرُ الأسـاسي الذي يُنْتِجُ السُّـلُوكَ البشـري يعـودُ إلىٰ خصـائص الجينـات التـي يمكـن أنْ تُعزىٰ إلىٰ الأشـخاص. وبالتـالي، بعـد أنْ أصرَّ عـلىٰ أنَّنـا جميعـاً مخلوقـاتٌ غـير مختارة نتيجةً لنوِّعِ جيناتِنـا، اسـتنتَجَ أنَّ كـلَّ مـا نسـتطيعُ فعلُـهُ هـو أنْ نتقاسَـمَ صفاتَنا غير المُحبَّبَة مع الكائناتِ أحاديَّة الخليَّة.

الجيناتُ، بالطَّبعِ، لا يمكن أنْ تكونَ أنانيةً ولا غير أنانية أكثرَ ممَّا هو حالُ بقيَّة الكائنات غير الواعية المنخرطة في المنافسةِ أو الاختيار. (الانتخابُ الطَّبيعي

المتداول، ليس انتخاباً، بل هو بنحوٍ ما حقيقةٌ منطقيةٌ غير مألوفة، تحتَ المستوىٰ البشـري، فالصِّـراعُ من أجلِ الوجود ليس (تنافُسيَّاً) بالمعنىٰ الحقيقي للكلمة). ولكن ذلك لم يمنع دوكينز من الادِّعاء بأنَّ كتابَهُ (ليس كتاباً في قصـصِ الخيـال العِلْمي؛ إنَّه عِلْمٌ ... نحنُ آلاتٌ قادرةٌ عـلىٰ البقـاء، روبوتـاتٌ مبرمجـةٌ بشـكلٍ أعمىٰ للحفاظِ علىٰ مُكوِّناتٍ أنانيةٍ تُعرَف كجينات)[1]. ورغمَ أنَّ دوكينـز أنكـرَ ذلك بعضَ المرَّات، إلَّا أنَّه يُحذِّرُ في كتابِهِ من أخذِ كلامِهِ بصُورةٍ حرفية. وأضافَ بشكلٍ مثيرٍ بأنَّ (حُجَّةَ الكتـاب أنَّنـا، وكـلّ الحيوانـات الأُخـرىٰ، مجـرَّد آلات صُنِعَت بواسطةِ جيناتِنا).

إنْ كـان ثمَّـة صـحَّة لهـذا الكـلام، فـلا حاجـةَ للاسـتمرارِ في النِّقـاش، كما فعلَ دوكينز بالتَّبشـيرِ بقولِـهِ: (دعونـا نـتعلَّم الكـرَمَ والإيثـارَ لأنَّنـا وُلِـدْنا كأنانيِّين). لا بلاغـة بمقـدورِها تحريـكُ روبوتـات مبرمجـة. لكـن في الحقيقـة، لـيس فـيما ذكـر شيءٌ مـن الصَّـحة. فالجينـاتُ، كـما نُشـاهد، لا تجعَـل ولا يمكـن أنْ تجعـل أعمالَنـا حَتْميَّـة. ولا هـي قـادرة عـلىٰ حسـابِ واسـتيعابِ متطلَّبات التصرُّف بأنانيةٍ أو برحمةٍ مضحِّية.

اعتـزلَ بيبـي روث كـرةَ البيسـبول في عمـرِ الأربعـين. وأنـا الآن لي ضِعْفُ عمُرِهِ، في الثَّمانـين مـن عمـري. ورغـمَ أنَّنـي غـيَّرتُ مـوقفي المتعلِّـق بوجـودِ إلـه، إلَّا أنَّنـي آمـلُ أنْ يكـون دفـاعي عـن الإلحـادِ ومنـاظراتي مـع المُوحِّـدين والآخـرين قـد أوضـحا اهتمامـي الـدَّائم بالأسـئلةِ اللَّاهوتيـة واسـتعدادي لمواصـلةِ البحـث عـن إجابـاتٍ مُتعـدِّدة. ليقُـلْ المُحلِّلـون والأطبَّاء النَّفْسيُّون ما يشاؤون، ولكـن الحماسـة التـي في داخـلي سـوف تظلُّ كما كانت، تَسْعىٰ دوماً إلىٰ الحُجَجِ السَّليمة والاستنتاجاتِ الصَّادقة.

---

(١) Richard Dawkins, The Selfish Gene (New York: Oxford University Press, 1976), x.

آمـلُ أنْ ألعـبَ دوراً وأُؤدِّي مهمَّتـي بالقَـدْرِ نفسِـهِ مـن الشَّـغَفِ والمبدئيـة، التـي أنـا عليهـا دومـاً، في القِسْـمِ القـادمِ مـن الكتـاب، حيـثُ سأعرِضُ لموقفي الحالي والأدلَّة التي قادتني للتمسُّكِ به.

* * *

القسم الثاني:

اكتشافي للمقدَّس

الفصل الرابع:

حَجُّ العَقْل

PILGRIMAGE OF REASON

لنبدأ بحكايةٍ رمزيةٍ. تخيَّل أنَّ هاتفاً محمولاً مرتبطاً بقمرٍ صناعي، سَقَطَ علىٰ ساحلِ جزيرةٍ نائية، تَسْكُنُها قبيلة لم يكن لها أيَّ اتِّصالٍ مع الحضارةِ الحديثة. بدأ السُّكَّانُ الأصليُّونَ بالعبَثِ بالأزرارِ الموجودة علىٰ سَطْحِ الهاتف، فسمعوا أصواتاً مختلفةً عند الضَّغطِ علىٰ تَسَلْسُلٍ معيَّنٍ للأرقام[1]. افترضوا في البدايةِ أنَّ الهاتفَ المحمول هو من يُصْدِرُ هذه الأصوات. بعضُ السُّكَّان الأصليِّين الأذكياء، ولنَقُل عُلماءُ هذه القبيلة، أعادوا الضَّغْطَ علىٰ تَسَلْسُلِ الأرقامِ نفسِهِ. وسمعوا الصَّوتَ نفسَهُ. الاستنتاجُ بدا واضحاً بالنِّسبةِ لهم. فهذا المُركَّبُ المُكوَّنُ من بلُّوراتٍ ومعادن ومواد كيمائية يُصْدِرُ صوتاً يُشْبِهُ صوتَ الإنسان، وهذا يعني بوضوح أنَّ هذه الأصواتَ هي من خصائصِ الهاتف المحمول.

استَدْعىٰ حكيمُ القبيلةِ عُلماءَها لمناقشةِ الأمر. أخبرَهُم أنَّه قد فكَّرَ كثيراً فيما نقلوهُ إليه من أخبار، وتوصَّلَ إلىٰ النَّتيجةِ التالية: إنَّ الأصواتَ التي تَصْدُرُ من الجهازِ يجب أنْ تكونَ صادرةً من بَشَرٍ مثلُهُم، يعيشونَ في مكانٍ ما ويتمتَّعونَ بالوعي، لكنَّهم يتكلَّمونَ بلُغةٍ مختلفة. وبدلاً من افتراضِ أنَّ الأصواتَ صادرةٌ من سمَّاعةِ الهاتف المحمول، طالبَ الحكيمُ العُلماءَ ببَذْلِ الجهد من أجلِ استكشاف إمكانية أنَّهم ومن خلالِ شبكةِ اتِّصالاتٍ غامضة هم الآن علىٰ (اتِّصالٍ) مع أُناسٍ آخرينَ. وربَّما

---

(١) يقصد (فلو) أنَّهم اتَّصلوا دون قصد علىٰ إنسانٍ معيَّن، بدأ يتحدَّث معهم ويطلقُ أصواتاً. (المراجع).

من خلالِ متابعة هذا الأمر بدراساتٍ إضافية، قد يتمكَّنونَ من الوصولِ إلىٰ فهمٍ أكبر للعالَمِ الذي يتجاوز جزيرتَهُم. ولكن علماءُ القبيلةِ ضحكوا أمامَ حكيم القبيلة قائلين: (انْظُر، إذا كسَرْنا هذه الأداة فإنَّ الأصواتَ ستختفي. وهذا يعني بوضوح أنَّ هذه الأصواتَ ليست سوىٰ أصوات صادرة من خليطٍ من اللِّيثيوم وشريحة طباعة أرقام وصمَّامات ثنائية باعثة للضَّوء).

في هذه الحكايةِ الرَّمزية، رأينا كيف أنَّ النَّظريات المُسْبقة تُشكِّلُ الطَّريقةَ التي نرىٰ بها الدَّليل، بدلاً من أنْ ندَعَ الدَّليلَ يُشكِّلُ نظرياتَنا. عندها يمكنُ تجنُّب القفزة الكوبرنكية (نِسْبةً إلىٰ كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus)[1]، من خلال الآلاف من أفلاكِ التدوير البَّطْلميَّة. (المُدافعونَ عن نظريةِ بَطْليموس القائلة بأنَّ الأرضَ هي مركزُ الكون، يقاومون نموذج كوبرنيكوس الشَّمسي، من خلالِ استخدام تصوُّر أفلاك التدوير، لتفسيرِ طريقة ملاحظة حركة الكواكب التي تتعارض مع نموذَجِهم).

وهنا، كما يبدو لي، تكمُنُ الخطورةُ، والشَّرُّ المُسْتشري، في الإلحادِ الجزمي. تأمَّل في كلامٍ من قبيل: (علينا أنْ لا نطْلُبَ تفسيراً للكيفيةِ التي وُجِدَ بها العالَمَ؛ إنَّه موجودٌ وكفىٰ)، أو (بما أنَّنا لا نستطيعُ القبولَ بمصدرٍ متعالٍ للحياة، فإنَّنا نختارُ الإيمانَ بالاستحالةِ: بأنَّ الحياةَ انبثقت فجأةً بطريقِ المصادفة من المادَّة)، أو أنَّ (القوانينَ الفيزيائية هي (قوانينُ اللَّاقوانين) التي ظهرت من النِّهايةِ الفارغة للنِّقاش). في البدايةِ قد تبدو هذه العبارات كحُجَجٍ عقلانيةٍ لها سُلْطة خاصَّة. لكن بالطَّبع، هذا ليس

(١) نيكولاس كوبرنيكوس أوَّل من صاغ نظرية مركزية الشمس، وكون الأرض جرماً يدور في فلكها، في كتابه (في ثورات الأجواء السماوية).

أكثر من أنْ تكون إشارة إلىٰ أنَّ هذه العبارات إمَّا عقلانية أو حُجَج[١].

الآن، كي نُقدِّم حُجَّة عقلانية بأنَّ كذا هو كذا، من الضَّروري أنْ نُقدِّمَ مُبرِّرات تدعَمُ ذلك. لكن لنفترض أنَّنا شَكَكْنا بكلام أحدِهِم لوجودِ ثغرةٍ في كلامِهِ، أو لنكُن أكثرَ تطرُّفاً ونقول: إنَّا شَكَكْنا بأنَّ كلَّ ما قالُوهُ لا قيمةَ له أصلاً، فمِنْ طُرُقِ فهم ما يقصد هؤلاء، هو محاولةُ البحث عن دليلٍ يُقدِّمونَهُ، إنْ كان ثمَّة دليلٍ، يدْعَم ما يدَّعون.

لأنَّ الكلامَ إنْ كان في الحقيقةِ عقلانياً وحُجَّةً، فلا بدَّ من تقديم مُبرِّرات تقِفُ لصالحِهِ تُسْتقىٰ من العِلْم أو الفَلْسفة. وأيُّ شيءٍ يمكن أنْ يُحسَبَ داحضاً لهذا الكلام، أو يمكن أنْ يُقنِعَ المُتحدِّثَ ليسْحَبَ كلامَهَ ويتراجَعَ عنه ويعترفَ بأنَّه كان مخطئاً، يجبُ أنْ يُوضَعَ في الحُسْبان. لكن إنْ لم تكن هناك مُبرِّرات أو أدِلَّة مطروحة تدْعَمُ الكلام، فإنَّه ليس هناك ما يَدْعونا للقولِ بأنَّ هذا الكلامَ حُجَّةٌ عقلانية[٢].

عندما قالَ حكيمُ القبيلةِ للعُلماء بأنَّ عليهم أنْ يسكتشفوا جميعَ أبعاد الدَّليل، فإنَّه كان يعني أنَّ الفَشَلَ في استكشافِ ما يُعتبرُ لأوَّلِ وهلةً معقولاً ومقبولاً يُعيقُ إمكانيةَ الظَّفر بفهمٍ أفضَلَ للعالَمِ الذي يتجاوزُ الجزيرةَ التي تَسْكُنُها القبيلة.

---

(١) أي هذه العبارات إمَّا أنْ تكون عقلانيةً، لكنَّها ليست بحُجَج. أو تكون حُجَجاً، لكن ليست عقلانية. وحتَّىٰ تجتمع لها صفة العقلانية وكونها حُجَجاً، فلا بدَّ أنْ تستوفي شروطاً خاصَّة. (المراجع).

(٢) يقصد (فلو) أنَّ الحُجَّة حتَّىٰ تكون عقلانية لا بدَّ أنْ تكون مستندة إلىٰ مُبرِّرات موضوعية، ومعطيات، تدعم النتيجة التي تدَّعيها تلك الحُجَّة. ولا بدَّ أنْ يوضع في الحسبان، ليست فقط المعطيات الدَّاعمة، بل أيضاً المعطيات الدَّاحضة للحُجَّة. أمَّا إنْ كانت الحُجَّة تفتقدُ لمُبرِّراتٍ موضوعية، ومعطياتٍ تدعمُ النتيجة، فلا يمكن اعتبار هذه الحُجَّة عقلانية. (المراجع).

الآن، غالباً ما يبدو للناسِ غير المُلْحدين كما لو لم يكن لديهِم دليلٌ يمكن تصوُّرهُ يكونُ مقبولاً عند أصحابِ التَّفكير العِلْمي الجَزْمي الإلحادي حتَّىٰ يكونَ سبباً كافياً للقول: (قد يكونُ هناك إلهٌ في نهايةِ المطاف). ولذا فأنا أسأَلُ زميلي السَّابق المُلْحد السُّؤالَ المَرْكزي الواضح: (ماذا تتوقَّع أنْ يحدُثَ أو ما الذي يجب أنْ يحدُثَ لكي يكونَ مُبرِّراً بحدِّهِ الأدنىٰ لأخذِ وجود عقل خارق في الحُسْبان؟)[1].

* * *

(١) بعبارةٍ أُخرىٰ: السُّؤال الذي ينبغي أنْ يُوجَّه للمُلْحِد: ما المطلوبُ حتَّىٰ تأخُذَ فرضية وجود إله علىٰ محمَلِ الجدِّ؟ (المراجع).

وضْعُ الأوراق على الطَّاولة

(LAYING THE CARDS ON THE TABLE)

سأتْرُكُ الحكايةَ الرَّمزيةَ جانباً، فقد حان الوقتُ كي أُلقي أوراقي علىٰ الطَّاولة، وأعرِضُ أفكاري والمُبرِّرات التي تَدْعَمُ ذلك. أنا الآن أُؤمِنُ بأنَّ الكونَ قد جاء إلىٰ الوجودِ بواسطةِ ذكاءٍ لا محدود. أنا أُؤمِنُ بأنَّ قوانينَ الكونِ المُعقَّدة تُبيِّنُ ما أسْماهُ العلماء (عَقْلُ الله). أنا أُؤمِنُ بأنَّ الحياةَ وإعادةَ الخَلْقِ أساسُها مصدْرٌ إلهي.

لماذا أُؤمِنُ بذلك، مع الأخذِ بالاعتبار أنِّي دافَعْتُ عن الإلحادِ لأكثرَ من نصْفِ قَرْن؟ الجوابُ المختصر هو هذا: هذه هي صورةُ العالَم، كما أراها، التي انبثقت من العِلْمِ الحديث. العِلْمُ سلَّطَ الضَّوءَ علىٰ ثلاثةِ أبعادٍ للطَّبيعة تُشيرُ إلىٰ الإله:

الأوَّلُ هو حقيقةُ أنَّ الطَّبيعةَ تخضَعُ لقوانين.

الثاني هو بُعْدُ الحياة، في الكائناتِ الذَّكيةِ المُنظَّمة والمسوقة بغاياتٍ، والتي نتجَت عن المادَّة.

الثالثُ هو الوجودُ الفعلي للطَّبيعة.

ولكن ليسَ العِلْمُ فقط هو من قادني إلىٰ ذلك. أنا استَفَدْتُ أيضاً من الدِّراسةِ المُسْتحدثة للحُجَجِ الفَلْسفيةِ التقليدية.

إنَّ تَرْكي للإلحادِ لم يكن بسببِ أيِّ ظاهرةٍ أو حُجَّةٍ جديدة. فخلال العقدين الماضيين، كان إطاري الفكري ككُلٍّ في حالةِ تبدُّل.

وهـذا كـان نتيجـةَ تقييمـي المُتواصِـل لأدِلَّـة الطَّبيعـة. وعنـدما وصـلْتُ في النِّهايـةِ إلىٰ الإيـمانِ بوجـودِ إلـه، لم يكـن ذلـك تبـدُّلاً للنَّمـوذجِ الإرْشـادي (Paradigm Shift)، لأنَّ نمـوذجي الإرْشـادي مـا زالَ باقيـاً عـلىٰ حالِـهِ، وهـو كما قال أفلاطون في كتابِـهِ (الجمهوريـة) عـلىٰ لسـانِ سـقراط: (يجـبُ أنْ نتَّبِـعَ الدَّليل أينما قادَنا).

قـد تسـأل: كيـف أنَّنـي، كفيلسـوف، أتحـدَّثُ في موضـوعاتٍ عالجَهـا العُلماء[١]؟ إنَّ أفضلَ جوابٍ عـلىٰ هـذا السُّـؤال هـو بطَـرْحِ سـؤالٍ آخـر: هـل نحـنُ الآن منخرطـون في العِلْـم أم بالفَلْسـفة؟ عنـدما تـدرُس التَّفاعُـل الدَّاخلي المُتبادل بـين جِسْـمينِ مـادِّيَّيْن، ولنقُـل عـلىٰ سـبيلِ المثـال، اثنـين مـن الجُسَيْمات دون الذرِّية، فأنـتَ منخـرطٌ بـالعِلْم. وعنـدما تسـأَل: كيـف ولمـاذا توجد هـذه الجُسَـيْمات - أو (أيّ) جِسْـم مـادِّي - فأنـتَ منخـرطٌ بالفَلْسـفة. وعنـدما تسـتنتجُ نتـائجَ فَلْسـفية مـن معطيـاتٍ عِلْميَّـةٍ، فأنـتَ تُفكِّـرُ كفيلسوف.

* * *

(١) من الواضح أنَّ (فلو) يتحدَّث عن العلماء في الحقول التجريبية. (المراجع).

التَّفكير كفيلسوف

(THINKING AS A PHILOSOPHER)

إذن دعونا نُطبِّق هذه النَّظْرة هنا. في عام (٢٠٠٤م) قُلْتُ: إنَّ أصْلَ الحياة لا يمكن تفسيرُهُ إذا انطلَقْتَ من المادَّةِ فقط. ردَّ المنتقدون بروحِ المنتصر قائلين بأنَّني لم أقرأ قطُّ مقالاً في مجلَّةٍ عِلْميَّةٍ ولا تابعْتُ التطوُّرات العِلْمية الحديثة المتعلِّقة بالتولُّدِ التلقائي (التولُّد الذَّاتي للحياةِ من كائناتٍ غير حيَّة). هُمْ بهذا النَّقْد لم يفهموا الهدف الرَّئيسي من كلامي. فاهتمامي لم يكن مُنْصبَّاً علىٰ هذه الحقيقةِ أو تلك في الكيمياء أو عِلْم الجينات، بل كان اهتمامي مُنْصبَّاً علىٰ السُّؤالِ الرَّئيسي عن معنىٰ أنْ يكون شيءٌ ما حيَّاً[١]، وما علاقةُ ذلك بالحقائقِ الكيميائية والجينية ككلٍّ؟ أنْ تُفكِّرَ علىٰ هذا المستوىٰ، فهذا يعني أنَّك تُفكِّر كفيلسوف. وحتَّىٰ لا أبدو متواضعاً أكثر من اللازم، يجب أنْ أقولَ: إنَّ هذا هو عمَلُ الفلاسفة وليس عمَلُ العُلَماء كعُلَماء. التخصُّصُ الدَّقيق للعُلَماءِ لا يُعطيهِم أيَّةَ ميزةٍ عند مناقشةِ هذا السُّؤال، كما أنَّ لاعبَ البيسبول ليس من شأنِهِ أنْ يُحدِّدَ أيَّ نوعٍ من معاجينِ الأسنان أفضل.

بالطَّبْع، للعُلَماءِ وللفلاسفة، ولأيِّ شخصٍ الحُرِّية الكاملة في أنْ

---

(١) أي متىٰ يكون الشَّيءُ حيَّاً؟ بعبارةٍ أُخرىٰ: ما هي معايير التي علىٰ أساسها نحكم علىٰ كائنٍ ما بأنَّه حيٌّ أو غيرُ حيٍّ. (المراجع).

يقولَ ما يُريد. وبالتأكيد لن يتَّفِقَ جميعُ العُلماء معي في تفسيري الخاصّ للحقائقِ التي يتوصَّلُونَ إليها. لكن اختلافُهُم معي يجب أنْ يقومَ علىٰ قدَميْنِ فَلْسفيَّتين. وبعبارةٍ أُخرىٰ: إذا انخرَطَ العُلماءُ في تحليلٍ فَلْسفي، فلا سُلْطَتُهم ولا خِبْرَتُهُم بوصْفِهِم علماء، ذاتُ صِلْة. هذا لا بدَّ أنْ يكون ذلك واضحاً. عندما يعرضون رأيَهُم في اقتصاد العِلْم، مثل تقديم ادِّعاءات حول عدد الوظائف التي يُوفِّرُها العِلْمُ والتكنولوجيا، فإنَّ عليهم أنْ يُقدِّموا تحليلَهُم في إطارِ التَّحليل الاقتصادي. وكذلك العُلماء الذين يتحدَّثونَ كفلاسفة، عليهم أنْ يطرحوا رأيَهُم في الإطارِ الفَلْسفي. وكما قالَ ألْبِرْت آينشْتين (Albert Einstein): (رجُلُ العِلْمِ هو فيلسوفٌ ضعيف)[١].

لحُسْنِ الحظِّ، الأمرُ ليس كذلك دائماً. فقادةُ العِلْمِ خلال مئات السِّنين الأخيرة، بالإضافةِ إلىٰ بعضِ العُلماء المعاصرين الأكثر تأثيراً، بنوا رؤيةً فَلْسفيةً لكونٍ عقلانيٍّ انبثَقَ من عقلٍ إلهي. وكذلك الحالُ معي، فهذه هي رُؤيتي الخاصَّة عن العالَم، التي أَجِدُها الآن قائمةً علىٰ تفسيرٍ فَلْسفيٍّ للعديدِ من الظَّواهرِ التي واجَهَها العُلماءُ والناسُ العاديُّونَ علىٰ حدٍّ سواء.

ثلاثةُ أبعادٍ من التَّحقيقِ العِلْمي كانت علىٰ وجهِ الخصوص مهمَّةً بالنِّسبةِ لي، سأضَعُها في الحُسْبانِ كلَّما تقدَّمْتُ في هذا الكتاب في ضوءِ الأدلَّة المتداولة اليوم:

أوَّلُ هذه الأبعاد هو السُّؤالُ الذي حيَّرَ ولا زالَ يُحيِّرُ الكثيرَ من العُلماءِ اللَّامعين، وهو من أينَ جاءت قوانينُ الطَّبيعة؟

---

(١) Albert Einstein, Out of My Later Years (New York: Philosophical Library, 1950), 58.

والثاني هو السُّؤالُ الواضحُ للجميع: كيف جاءت الحياةُ كظواهر عضوية من اللَّاحياة؟

والثالثُ هو السُّؤالُ الذي يُوجِّهُهُ الفلاسفةُ لعُلماءِ الكون: كيف جاءَ الكونُ - بكُلِّ ما يحتويهِ من أشياء مادِّية - إلىٰ الوجود؟

* * *

عودةُ الحكمة

(A RECOVERY OF WISDOM)

بناءً علىٰ موقفي الجديد من نقاشِ الفَلْسفة التقليدية فيما يتعلَّق بوجودِ إله، فإنَّ أكثرَ ما أقنعني في هذا الحقلِ هو حُجَّةُ الفيلسوف ديفيد كونوي (David Conway)[1] المؤيِّدة لوجودِ إلهٍ في كتابِهِ (عودةُ الحكمة: من هنا إلىٰ البحثِ عن الحكمة The Recovery of Wisdom: From Here to Antiquity in Quest of Sophia). كونوي فيلسوفٌ بريطانيٌ مميَّزٌ في جامعةِ ميدِلْسيكس (Middlesex)، وهو معروفٌ بالخصوص في مجالَي الفَلْسفة التَّقليدية والحديثة معاً.

الإلهُ الذي دافَعَ كونوي عن وجودِهِ، وأنا كذلك، هو إلهُ أُرسطو، فقد كتَبَ كونوي قائلاً:

(خلاصةُ القول: إنَّ أُرسطو قد حدَّدَ الصِّفاتَ التاليةَ للكائنِ الذي يُفسِّرُ وجودَ العالَمِ بمعناهُ الواسع: الثَّبات (غير متحرِّك)، التَّجريد (غيرُ ماديّ)، القُدْرة علىٰ كلِّ شيء، العِلْمُ بكُلِّ شيء، الوحدانية، غيرُ قابلٍ للتجزئة (البساطة)، الخيرُ المُطْلَق، ووجوب الوجود. هناك تشابُهٌ عجيبٌ بين هذا الصِّفات وتلك الصِّفات التي ذُكِرَت للإلهِ في التَّقليدِ اليهودي/ المسيحي[2]. وهذا ما يُبرِّر تماماً قولَنا بأنَّ أُرسطو كان في ذهنِهِ

(١) فيلسوف إنجليزي، وُلِدَ سنة (١٩٤٧م)، وما زال علىٰ قيد الحياة.

(٢) وتوافر هذه الصِّفات في إله المسلمين أوضح. (المراجع).

الكائن المقدَّس نفسه كمُسبِّبٍ للعالَم، وهو الإلهُ نفسُهُ المعبودُ في كلا الدِّيانتين)[١].

في كتابِهِ، حاولَ كونوي أنْ يُدافِعَ عما وصَفَهُ بـ (التصوُّر التقليدي للفَلْسفة). وهذا التصوُّر يرىٰ أنَّ تفسيرَ (وجود العالَم ينبَثِقُ من أنَّ الإلهَ كُلِّيُّ القُدْرةِ وكُلِّيُّ العِلْمِ لكي توجد ويستمرّ وجود الكائنات العاقلة)[٢]. خلَقَ الإلهُ الكونَ من أجلِ أنْ يخلُقَ الكائنات العاقلة. يعتقدُ كونوي، وأنا أُشارِكُهُ في ذلك، أنَّه من الممكن معرفة وجود وطبيعة هذا الإله الأُرسطي عن طريقِ المُمارسة (المِران علىٰ التأمُّل الذِّهني) دون الحاجة إلىٰ استدلال بشري.

لا بدَّ أنْ أُؤكِّدَ علىٰ أنَّ اكتشافي للأُلوهيَّةِ مبنيٌّ علىٰ أساسٍ طبيعيٍّ صرْف، دون الرُّجوع إلىٰ أيَّةِ ظواهر تتجاوزُ الطَّبيعة (خارقة). لقد كان اكتشافي للإلهِ عبارةٌ عن ممارسةِ ما يُسمَّىٰ تقليدياً بـ (اللَّاهوت الطَّبيعي). وليس له صِلَة بأيِّ نوعٍ من أنواعِ الوحي الدِّيني. ولا أدَّعي أنَّه حصلت لي أيَّة تجربة شخصيَّة مع الإله، أو أيَّة تجربة يمكن اعتبارُها إعجازية أو تتجاوز الطَّبيعة. باختصار، اكتشافي للأُلوهيَّةِ كان عبارةً عن رحلةِ عَقْل وليست رحلة إيمان.

* * *

---

(١) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 74.

(٢) Conway, The Rediscovery of Wisdom, 2 – 3.

الفصل الخامس:

مَنْ كَتَبَ قوانينَ الطَّبيعة؟

WHO WROTE LAWS OF NATURE

لعلَّ أكثر الحُجَج الدَّاعمة لوجودِ الإله شُهرةً وقبولاً من الناحيةِ الحَدْسية تلك التي تُسمَّىٰ بـ (حُجَّةِ التَّصميم Argument from design)[1]. وفقاً لهذه الحُجَّة، التَّصميمُ الواضحُ في الطَّبيعةِ يدُلُّ علىٰ وجودِ مُصمِّمٍ للكون. كثيراً ما أكَّدْتُ علىٰ أنَّها في الواقعِ حُجَّةٌ من النِّظامِ إلىٰ التَّصميم، لأنَّ هذه الحُجَّةَ مستمدَّةٌ من النِّظامِ المُشاهَد في هذا العالَم، ومن خلالِ هذا النِّظام نستدِلُّ علىٰ التَّصميم، ومن ثَمَّ علىٰ المُصمِّم. علىٰ الرَّغمِ من أنَّني كنْتُ منتقداً بحدَّةٍ الاحتجاجَ بالتَّصميم، إلَّا أنَّني منذُ ذلك الوقت بدأتُ أقتنِعُ بأنَّه إذا ما تمَّ صياغة الحُجَّة بطريقةٍ صحيحةٍ فإنَّها ستنهضُ كحُجَّةٍ مقنعةٍ لإثباتِ وجودِ إلهٍ. التطوُّرات التي حدثَتْ في مجالينِ بالخصوص جعلَتْني أنتهي إلىٰ هذه النتيجة. المجالُ الأوَّلُ هو السُّؤالُ عن أصلِ قوانين الطبيعة والاستبصارات ذات الصِّلة للعُلماءِ المُحدَثين. المجالُ الثَّاني هو السُّؤالُ عن أصلِ الحياة والتَّكاثُر.

ماذا أعني بقوانينِ الطَّبيعة؟ باختصار، أعني بالقانون: الاطِّراد والتَّماثُل في الطَّبيعة. بعضُ أمثلة الكُتُب الدِّراسية قد تُوضِّحُ ما أقصد:

(قانونُ بويل ينُصُّ علىٰ أنَّ حَجْمَ عيِّنة غازية عند درجةِ حرارة ثابتة، يتناسَبُ عكسياً مع الضَّغطِ الواقعِ عليها).

(وفقاً لقانونِ نيوتن الأوَّل للحركة: يظلُّ الجِسْمُ في حالتِهِ الثابتة (إمَّا السُّكونُ التَّام أو التحرُّك في خطٍّ مستقيمٍ بسُرْعةٍ ثابتة) ما لم تُؤثِّر عليه قوَّةٌ خارجيةٌ تُغيِّرُ من هذه الحالة).

---

(١) ويُقالُ لها في بعض الأحيان: (دليل النَّظْم) أو (دليل النِّظام). (المراجع).

(طبقاً لقانونِ الحفاظ علىٰ الطَّاقة: في أيِّ نظامٍ معزول، الطَّاقةُ لا تفْنىٰ ولا تُستحدَثُ من العدَمِ، ولكن يمكنُ تحويلُها من صورةٍ لأُخرىٰ).

النُّقطةُ المهمَّةُ ليس أنَّ هناكَ اطِّرادات في الطَّبيعة، ولكن المهمُّ أنَّ هذه الاطِّرادات جميعُها دقيقةٌ من الناحيةِ الرِّياضية، وهي كونيةٌ وشاملةٌ و(مترابطةٌ فيما بينها). آينشتين تحدَّثَ عن هذه القوانين بوصفِها (السَّببُ المُجسَّد). السُّؤالُ الذي ينبغي أنْ نطرَحَهُ هو كيف جاءت هذه القوانين كحِزْمةٍ واحدة؟ هذا هو بالتأكيد السُّؤالُ الذي طرحَهُ العُلماءُ من نيوتن إلىٰ آينشتين إلىٰ هيزنبرغ وأجابوا عنه. وجوابُهُم كان هو عَقْلُ الإله.

الآن، هذا النَّوعُ من التَّفكير لم يقتصر علىٰ العُلماءِ القُدماء، أمثال إسحاق نيوتن (Newton) وجيمس ماكسويل (James Maxwell)، بل علىٰ العكسِ من ذلك، لقد امتدَّ ليَشْمَلَ العديدَ من العُلماءِ البارزين في العَصْرِ الحديث الذين اعتبروا أنَّ قوانينَ الطَّبيعة تُعبِّرُ عن أفكارٍ لعَقْلِ الإله. ختَمَ ستيفن هوكنج (Stephen Hawking) كتابَهُ (تاريخ موجز للزَّمان A Brief History of Time)[١] - وهو من أكثرِ الكُتُبِ مبيعاً - بالفقرةِ التالية:

(لو اكتَشْفنا نظريةً كاملة، فإنَّه ينبغي بمرورِ الوقت أنْ تكونَ قابلةً لأنْ يفهَمَها كلُّ فَرْدٍ بالمعنىٰ الواسع، وليس فقط مجرَّد علماء معدودين. وعندها فإنَّنا كُلُّنا، فلاسفة وعُلماء وحتَّىٰ أُناساً عاديِّين، ستتمكَّن من المساهمةِ في مناقشةِ السُّؤال عن السَّبَبِ في وجودِنا نحنُ والكون؟ ولو

(١) للكتاب ترجمة عربية، ترجمه د. مصطفىٰ إبراهيم فهمي/ دار الثقافة الجديدة/ ط ١/ ١٩٩٠م/ القاهرة. (المراجع).

وجَـدْنا الإجابـةَ عـن ذلـك، فسـيكونُ ذلـك الانتصـار النِّهـائي للعقـلِ البشري، لأنَّنا وقتها سنتعرَّفُ علىٰ عَقْلِ الإله).

وفي الصَّفْحةِ التـي تَسْـبِقُ الفقـرة السَّـابقة تسـائَلَ هـوكنج (حتَّـىٰ لـو لم يكن هناك إلَّا نظريَّـة مُوحَّـدة واحـدة ممكنـة، فإنَّهـا تظـلُّ مجـرَّد مجموعـةً مـن القوانينِ والمعادلات. مـا الـذي ينفُـثُ النِّـيرانَ داخـل المعـادلات ويجعـل لهـا كَوْناً تُوصِّفُهُ؟)[1].

كـان لـدىٰ هـوكنج المزيـد ليقولَـهُ في المقابلـةِ التـي تلَتْهـا[2]: (الانطبـاعُ الطَّـاغي هـو أنَّ هنـاك نظامـاً. وكلَّـما ازدادَ اكتشـافُنا لهـذا الكـون، ازْدَدْنـا قناعةً بـأنَّ الكـونَ محكـومٌ بقـوانين عقلانيـة. لكـن يظـلُّ السُّـؤالُ قـائماً: لمـاذا وُجِـدَ العـالَمَ؟ وإنْ أحبَبْـتَ، فبمقـدورِكَ أنْ تـدافِع عـن الله ليكـونَ هـو الجواب عن هذا السُّؤال)[3].

❋ ❋ ❋

---

(١) Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 174 ,175.

(٢) Gregory Benford, "Leaping the Abyss: Stephen Hawking on Black Holes, Unified Field Theory and Marilyn Monroe," Reason 4.02 (April 2002): 29.

(٣) كان هذا هو موقف الفيزيـائي هـوكنج السَّـابق، لكـن بعـدما نشـر كتابـه الأخـير (التصـميم العظـيم The Grand Design) الـذي حـاول فيـه تفسـير نشـأة الكـون دون الحاجـة لافـتراض وجود إله، تغيَّر موقفه بنحوٍ واضـح. تـرجم كتابه الجديـد أيمـن أحمـد عيـاد/ دار التنـوير/ ٢٠١٣م/ بيروت. (المراجع).

من الذي كتَبَ كلَّ هذه الكُتُب؟
(A BRIEF HISTORY OF TIME)

قبلَ زمنٍ طويل من هوكنج، استخدَمَ آينشتين اللُّغةَ ذاتَها، حيثُ كتَبَ: (أُريدُ أنْ أعرِفَ كيف خلَقَ الإله العالَمَ.. أُريدُ أنْ أعرِفَ أفكارَهُ، أمَّا الباقي فمجرَّد تفاصيل)[١]. في كتابي (الإله والفَلْسفة)، كتبْتُ بأنَّنا لا نستفيدُ كثيراً من هذه الفقرات، لأنَّ آينشتين قال: إنَّه يُؤمِنُ بإلهِ باروخ سبينوزا (Baruch Spinoza)[٢]. ولأنَّ كلمة (الإله) و(الطبيعة) مترادفتان عند سبينوزا، لذا يمكنُ القولُ بلا تردَّد بأنَّ آينشتين في نظَرِ اليهود، والمسيحيِّين، والمسلمين كان مُلْحِداً، بل كان (الأبَ الرُّوحي لجميعِ المُلْحِدين)[٣].

ولكن صدَرَ حديثاً كتابٌ بعنوان (آينشتين والدِّين Einstein and Religion) لماكس جامِر (Max Jammer) – وهو أحدُ أصدقاء آينشتين – يُقدِّمُ صورةً مختلفةً تماماً عن تأثيرِ سبينوزا علىٰ قناعاتِ آينشتين

---

(١) Albert Einstein, quoted in Timothy Ferris, Coming of Age in the Milky Way (New York: Morrow, 1988), 177.

(٢) Antony Flew, God and Philosophy (New York: Dell, 1966), 15.

(٣) (فلو) يريد أنْ يقول: إنَّه في كتابه القديم (الإله والفلسفة)، عندما كان مُلْحداً، كان ينظر إلىٰ موقف اليهود والمسحيين والمسلمين تجاه آينشتين، علىٰ أنَّهم يرونه وفقاً لمنطلقاتهم، مُلْحداً. وفي الفقرات التالية سيُبيِّن (فلو) أنَّه أعاد النظر في ذلك. (المراجع).

الشَّخصية. بيَّنَ جامِر أنَّ آينشتين كان يعرفُ القليلَ عن سبينوزا، وأنَّه لم يقرأ لسبينوزا سوىٰ كتابَ الأخلاق (Ethics)، وقد رفَضَ طلبات متكرِّرة للكتابةِ عن فَلْسفةِ سبينوزا. وفي ردِّهِ علىٰ أحدِ الطلبات، قال آينشتين: (إنَّه لا يملِكُ معرفةً متخصِّصةً ليكتُبَ مقالةً عِلْميَّةً عن سبينوزا). رغمَّ أنَّ آينشتين يشترِكُ مع سبينوزا في الإيمانِ بالحَتْميَّة (Determinisim)، إلَّا أنَّ جامر يرىٰ أنَّه (من المُصْطنَع وغير المُسوَّغ) الافتراض بأنَّ أفكارَ سبينوزا أثَّرت علىٰ فِكْرِ آينشتين[١]. لحَظَ جامر أيضاً أنَّ (آينشتين شعَرَ بأنَّه قريبٌ من سبينوزا، لأنَّهما يشتركانِ في حاجتيهما إلىٰ الانعزال، بالإضافةِ إلىٰ قدَرِهما بأنْ يتمَّ قراءتهُما ضمن التُّراث اليهودي، لكن في النِّهايةِ يَبْقيا غرباء عن التُّراثِ الدِّيني)[٢].

ورغمَ أنَّ آينشتين أشارَ إلىٰ إيمانِ سبينوزا بوحدةِ الوجود، إلَّا أنَّه في الحقيقةِ عبَّرَ عن إنكارِهِ أنْ يكون مُلْحِداً أو مؤمناً بوحدةِ الوجود، فقد كتَبَ:

(أنا لَسْتُ مُلْحِداً، ولا يمكن أنْ أعتبرَ نَفْسي مؤمناً بوحدةِ الوجود. نحن في موقفِ طِفْلٍ صغيرٍ دخَلَ إلىٰ مكتبةٍ كبيرةٍ مملوءةٍ بكُتُبٍ بلُغاتٍ مختلفة. والطِّفلُ يعرِفُ أنَّه يجب أنْ يكون هناكَ شخصٌ ما كتَبَ هذه الكُتُب. ولكنَّه لا يعرف كيف؟ هو لا يفهَمُ اللُّغةَ التي كُتِبَت بها هذه الكُتُب. الطِّفلُ يظُنُّ بنحو خافت بأنَّ هذه الكُتُب مرتَّبةً بطريقةٍ غامضة، لكنَّه لا يعرف ما هي هذه الطَّريقة. وهذا، كما يبدو لي، هو اتِّجاهُ أذكىٰ شَخْصٍ تجاهَ الإله. نحنُ نرىٰ العالَمَ مُنظَّماً بطريقةٍ رائعة، ويتَّبع

---

(١) Max Jammer, Einstein and Religion (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999), 44.

(٢) Jammer, Einstein and Religion, 45.

قوانينَ معيَّنة، لكنَّنا نفهمُ بنحوٍ خافتٍ فقط هذه القوانين. عقولُنا المحدودة تدرِكُ القوَّةَ الغامضةَ التي تُحرِّكُ هذه الكويكبات)[١].

في كتابِهِ (وهمُ الإله The God Delusion)، شاطَرَني ريتشارد دوكينز في موقفي القديم بأنَّ آينشتين كان مُلْحِداً. وبفعلِهِ ذلك، هو يتجاهل كلام آينشتين المشار إليه أعلاهُ بأنَّه لم يكن مُلْحِداً ولا مؤمناً بوحدةِ الوجود. وهذا مُحيِّر لأنَّ دوكينز استشهَدَ في إحدىٰ المرَّات بجامر، لكنَّه ترَكَ عدداً كبيراً من عباراتِ جامر وآينشتين الحاسمة في هذا الشَّأن. جامر لاحظَ، علىٰ سبيلِ المثال، أنَّ (آينشتين احتجَّ بنحو متواصل ضدَّ اعتبارِهِ مُلْحِداً. وقد أعلَنَ في محادثةٍ مع الأميرِ هيبرتس أمير لونشتين (Hubertus of Lowenstein) قائلاً: (ما يجعلُني أشعُرُ بالغضَبِ فعلاً هو أنَّ النَاسَ الذين يقولونَ بأنَّ الإله لا وجودَ لَهُ يسْتشهِدُونَ بكلامي لتأييدِ آرائِهم). نفىٰ آينشتين اعتناقَهُ الإلحاد لأنَّه لم يجِد أنَّ إنكارَهُ للإلهِ الشَّخصي (Personal God) يعني أبداً إنكاراً لوجودِ إله)[٢].

آينشتين، بالتأكيد، لم يُؤمِن بالإلهِ الشَّخصي. لكنَّه قال:

(إنَّه سؤالٌ مختلفٌ عمَّا إذا كان الاعتقادُ بالإلهِ الشَّخصي لا بدَّ أنْ يكونَ محلَّ نقاش. فرويد دعَمَ هذا الرَّأي في آخِرِ مؤلَّفاتِهِ. بالنِّسبةِ لي لن أنخرِط أبداً في مهمَّةٍ كهذه. لأنَّ مثلَ هذا الاعتقاد يبدو لي أفضل من الافتقارِ لأيَّةِ نظرة متعالية للحياة، وأنا أتساءل بدهشةٍ عمَّا إذا كان بمقدورِ أحد أنْ ينجَحَ في تقديمِ وسائلَ عظيمة للبشرية تُلبِّي حاجاتهم الميتافيزيقية)[٣].

(١) Jammer, Einstein and Religion, 45 – 46.

(٢) Jammer, Einstein and Religion, 48.

(٣) Jammer, Einstein and Religion, 150. 218 .

وكمُلخِّصٍ ينتهي جامر إلىٰ أنَّ آينشتين - كما هو حال موسىٰ بن ميمون (maimonides)[١] وسبينوزا - يرفُضُ بشكلٍ قاطعٍ أيَّ نوعٍ من التَّجسيم في الفكرِ الدِّيني[٢]. ولكن علىٰ خلافِ سبينوزا، الذي رأىٰ أنَّ النَّتيجةَ المنطقية لإنكارِ الإله الشَّخصي يجعل الإله في هويَّةٍ مشتركةٍ مع الطَّبيعة، آينشتين أصرَّ علىٰ أنَّ اللهَ يكشِفُ عن ذاتِهِ (في قوانين الكون كرُوحٍ أعظم من تلك التي للإنسان، وعلىٰ المَرْءِ في مواجهةِ ذلك - بما يملِكُ من قوىٰ هزيلة - أنْ يشْعُرَ بالتَّواضع). آينشتين اتَّفَقَ مع سبينوزا في أنَّ من يعرِف الطَّبيعة يعرِفُ الإله، لكن ليس لأنَّ الطَّبيعة هي الإله، بل لأنَّ مواصلةَ العِلْم في دراسةِ الطَّبيعة تقودُ إلىٰ الدِّين[٣].

* * *

باستشهاده بكلمات آينشتين، يريد (فلو) أنْ يقول: إنَّ آينشتين، وإنْ لم يؤمن بالإله الشَّخصي الذي يؤمن به التقليد اليهودي/ المسيحي (أي ذات لها صفات)، لكنَّه لم يرتضِ الإلحاد، بل كان يرىٰ أنَّ الإيمانَ بالإله الشَّخصي الذي يمنح المرء نظرة متعالية للحياة أفضل من الإلحاد. لذا آمن آينشتين بإلهٍ مجرَّدٍ غير شخصي، يشبه الإله الذي آمن به سبينوزا. (المراجع).

(١) فيلسوف يهودي، وُلِدَ في قرطبة/ إسبانيا، وتوفِّي سنة (١٢٠٤م) في مصر، تأثَّر بالمسلمين، وكان له أثر بالغ في تطوير الفهم الديني اليهودي، من أهمّ مؤلَّفاته (دلالة الحائرين). (المراجع).

(٢) بمعنىٰ أنَّه يرفض أيَّ نحوٍ من أنحاء تشبيه الإله بالبشر أو أيّ من المخلوقات. وهذا ما يؤكِّد عليه القرآن في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ: ١١)، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ۝٤﴾ (الإخلاص: ٤). (المراجع).

(٣) Jammer, Einstein and Religion, **148**.

عقلُ آينشتين المُتفوِّق

(EINSTEIN’S “SUPERIOR MIND“)

آينشتين اعتقَدَ بوضوح بمَصْدَرٍ مُتعالٍ لعقلانيةِ العالَم، والذي يُسمِّيهِ (العقْلُ الفائق) أو (الرُّوحُ الفائقة)، (القوىٰ المنطقية الفائقة) و(القوَّةُ الغامضةُ التي تُحرِّكُ الكويكبات).

وهذا كان واضحاً في عددٍ من عباراتِهِ:

(لم أجِد علىٰ الإطلاق تعبيراً أفضَلَ من (مُتديِّن religious) لهذه الثِّقة بالطَّبيعةِ العقلانية للواقِعِ، وقُدْرتِها الخاصَّة علىٰ الوصولِ إلىٰ العقلِ البشري. في حين أنَّ هذه الثِّقة يفتقِرُ إليها العِلْمُ، حيثُ ينحطُّ إلىٰ إجراءٍ لا روحَ فيه. إنْ أرادَ الكهنةُ جعلُ هذا هو رأسُ مالِهم فهذا شأنُهُم. فليس هناك علاجٌ لذلك[1].

بالتأكيد إنَّها هي القناعةُ، القريبةُ من الشُّعورِ الدِّيني، لعقلانيةِ وذكاءِ هذا العالَمِ والتي تكمُنُ خلْفَ النَّشاط العِلْمي... هذا الاعتقادُ الرَّاسِخ، المرتبطُ بشعورٍ عميق، بأنَّ هناك عقلاً مُتفوِّقاً يكشِفُ عن ذاتِهِ في عالَمِ الخبرة، هو ما يُمثِّلُ تصوُّري عن الإله.

كلُّ الذين أسهموا بنصيبٍ فيما تحقَّقَ من خطواتٍ ناجحةٍ في هذا

---

(١) Albert Einstein, Lettres a Maurice Solovine reproduits en facsimile et traduits en francais (Paris: Gauthier-Vilars, 1956), 102 – 3.

عبارة آينشتين هنا غير واضحة المعنىٰ تماماً، لكن يبدو أنَّه يقصد أنَّ رجال الدين قد يسيئوا الاستفادة من الثقة التي تثيرها عقلانية الطبيعة في العقل البشري. (المراجع).

المجـال (العِلْمـي)، قـد أحسُّـوا في قـرارةِ أنفُسِـهِم إجـلالاً وتكبـيراً عميقـين تجاهَ عظمة العقل المتأصِّـل في الوجـود، والـذي لا يقـوىٰ الإنسـانُ عـلىٰ سَـبْرِ أغوارِه[١].

تديُّني يتضـمَّنُ تقـديراً خاضـعاً للـرُّوحِ المتفوِّقـة اللَّانهائيـة التـي تُظهِـرُ نفسَـها في أدقِّ التفاصـيل التـي نسـتطيعُ إدراكَهـا بعقـولٍ واهيـةٍ وضـعيفة. هذه القناعةُ العاطفيةُ العميقـةُ بوجـودِ القـوَّة المنطقيـة الفائقـة التـي تـتجلَّىٰ في الكونِ الذي لا يمكن الإحاطةُ به، هو الذي شكَّلَ فكرتي عن الإله)[٢].

* * *

---

(١) (Jammer, Einstein and Religion, 93.) ألـبرت آينشـتين، أفكـار وآراء، ترجمـة د. رمسـيس شحاته: ٢٥١/ ١٩٨٦م/ الهيئة المصرية العامَّة للكتاب.

(٢) Albert Einstein, The Quotable Einstein, ed. Alice Calaprice (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005), 195 – 6.

وهناك عبـارات لآينشـتين تُوضِّـح أكثـر وجهـة نظـره، حيـث يقـول: (إنَّ أجمَـلَ مـا نتمتَّـع بـه هو الناحية الغامضة من الحيـاة، إنَّـه الإحسـاس الصـافي العميـق الـذي يفـيضُ مـن نبـع الفـنِّ والعِلْـم... إنَّ مـن تبلَّـد شـعورُهُ وأصـبح لا يحـسُّ بالدَّهشـةِ أو العَجَـب، هـو ميِّـتٌ حقَّـاً انطفأَ نـورُ عينيـه... إنَّ الإحسـاسَ بـالغموضِ ممتزجـاً بـالخوفِ خَلَـقَ الدِّيانـةَ أيضـاً، فـالعِلْمُ بـأنَّ هنـاك حُجُبـاً لا يمكننـا تخطِّيهـا، والوقـوف عـلىٰ مظـاهرِ الانسـجام العميـق والجـمال البـارع الخـلَّاب الـذي لا تسـتوعبها عقولنـا، إلَّا في أبسـطِ صـورة مـن صـورهما، هـذه المعرفة وهذا الشُّعور هما جوهرُ التقوىٰ والزُّهد والعبادة الحقيقيان.

وبهذا المعنىٰ، وعلىٰ هـذا النَّحـو وحـده، أعـدُّ نفسـي واحـداً مـن أعمـقِ المتـديِّنين... يكفينـي أنْ أستمتعَ بهـذا الغمـوض الـذي يكتنـفُ أبديـة الحيـاة، وأنْ أحـسَّ وأعـي البنـاء الـذي يثـيرُ العَجَب، لكلِّ ما هو موجود، وأُجاهـدُ قـدرَ طـاقتي حتَّـىٰ أُلِـمَّ بقبسٍ مهـما كـان ضـئيلاً مـن النـور أو الفكـر الـذي يـتجلَّىٰ في الطَّبيعـةِ جمعـاء). ألـبرت آينشـتين، أفكـار وآراء، ترجمـة د. رمسيس شحاته: ٢٢٠/ ١٩٨٦م/ الهيئة المصرية العامَّة للكتاب. (المراجع).

قفزات كوانْتُميَّة (جبَّارة) نحو الإله
(QUANTUM LEAPS TOWARD GOD)

آينشـــتين، وهـــو مكتشِــفُ النظريـــة النِّســبية، لــيس العـــالِمِ العظـــيم الوحيــد الــذي رأىٰ رَبْطــاً بــين قــوانين الطَّبيعــة وعقــلِ الإلــه. رُوَّاد فيزيــاء الكــوانتم، وهــم عظــماء آخــرون مــن المكتشــفين في الــزَّمنِ الحــديث، أمثــال مــاكس بلانــك (Max Planck)، وِرْنِــر هيــزنبيرغ (Werner Heisenberg)، إرْوِن شرونــدجر (Erwin Schrödinger)، وبــول ديــراك (Dirac Paul)[1]، كــلُّ هــؤلاء صــدرت عــنهم عبــارات متشــابهة (بخصــوص الــرَّبط بــين قــوانين الطَّبيعة وعقلِ الإله)، سأُوردُ بعضاً ممَّا قالوه بعد قليل.

وِرْنِر هيزنبيرغ (Werner Heisenberg)، وهو الذي اشتُهِرَ بسببِ مبدأ عدم اليقين وميكانيكا المصفوفات (Uncertainity Principle and Matrix Mechanics)، قال: (خلال مسيرة حياتي، اضطرِرْتُ بشكلٍ متكرِّر إلىٰ التأمُّـل في العلاقــةِ بــين هذينِ الحقلين من الحقولِ الفكرية (الحقل العِلْمي والحقل الدِّيني)، لأنِّي لم أكن قادراً علىٰ الإطلاق علىٰ الشكِّ بذلك الواقع الذي يُشيرونَ إليه)[2].

---

(١) For the most part, these quotations are taken from Roy Abraham Varghese, The Wonder of the World (Fountain Hills, AZ: Tyr, 2003).

(٢) Werner Heisenberg, Across the Frontiers, trans. Peter Heath (San Francisco: Harper & Row, 1974), 213.

وفي موضعٍ آخر يقول: (لقد سألني وولفجانج (بايولي) (Wolfgang Pauli))[١] علىٰ نحوٍ مفاجئ: هل تؤمنُ بالإلهِ الشخصي؟... فقُلْتُ له: هل لي أُعيدَ صياغة سؤالك؟ شخصياً أُفضِّلُ صياغةَ السُّؤال علىٰ النَّحوِ التالي: هل يُمكِنُكَ، أو يُمكِنُ لأيِّ شخصٍ آخر، أنْ يصِلَ إلىٰ النِّظامِ المركزي للأشياءِ والأحداث، التي وجودُها يبدو خارجَ إطار الشَّك، كوصولِكَ علىٰ نحوٍ مباشر إلىٰ روحِ (عقل soul) إنسان آخر؟[٢] أنا أستخدِمُ لفظةَ (روح soul) بشكلٍ متعمِّدٍ حتَّىٰ لا يُساء فهمي. إذا وضعْتَ سُؤالَكَ علىٰ هذا النَّحو، فإنَّ جوابي سيكونُ نعم... إذا كانت القوَّةُ المغناطيسية هي التي وجَّهَت (وأرشدَت) هذه البوصلة، فمن سيكونُ مصدر ذلك سوىٰ النِّظام المركزي؟ إذا كان مُقرَّراً لنا أنْ ننقرِض، فإنَّ أُموراً فظيعة يمكن أنْ تحدُث للجِنْسِ البشري، أكثر من مخيَّمات الغاز أو القنبلة الذرّية)[٣].

رائدٌ آخر من رُوَّاد الكوانتم، إرْوِن شرودنجر، الذي اكتشفَ الموجات الميكانيكية، يقول:

(الصُّورةُ العِلْميةُ للعالَمِ من حولي ناقصةٌ جدّاً. إنَّها تعطيني الكثيرَ

---

(١) (١٩٠٠ - ١٩٥٨م) فيزيائي نمساوي، من أبرز روّاد فيزياء الكوانتم، عُرِفَ واشتُهر بمبدأ بايولي.

(٢) يشير أنتوني فلو هنا إلىٰ المشكلة الفلسفية المعروفة بـ (مشكلة العقول الأُخرىٰ)، فكما أنَّنا نُدرِكَ أنَّ للآخرينَ عقولاً علىٰ نحوٍ مباشر، دون أنْ نحسَّ بتلك العقول، وإنَّما نتعرَّف علىٰ وجودِها من خلال رصد مؤشِّرات كثيرة، فكذلك الأمر بالنسبةِ إلىٰ وجود الإله، ندركُهُ علىٰ نحوٍ مباشرٍ كما ندرُكُ عقولَ الآخرين. (المراجع).

(٣) Werner Heisenberg, Physics and Beyond (San Francisco: Harper & Row, 1971), excerpted in Timothy Ferris, ed., The World Treasury of Physics, Astronomy and Mathematics (New York: Little, Brown, 1991), 826.

من المعلومات الواقعية، وتضَعُ كلَّ خبراتنا في نظامٍ رائعِ الاتِّساق، ولكن الصَّمت الرَّهيب الذي يلامسُ قلوبَنا، هو ما يهُمُّ حقَّاً. إنَّها لا تستطيعُ أنْ تقولَ كلمةً واحدةً عن الإحساسِ باللَّونِ الأحمر والأزرق، عن المُرِّ والحلو، عن مشاعرِ البهجة والحُزْن. إنَّها لا تعرفُ شيئاً عن الجمالِ والقُبْح، عن الخيرِ والشَّرِّ، عن الإلهِ والخلود. تتظاهرُ العلوم بقُدْرتِها علىٰ الإجابةِ عن الأسئلةِ في هذه الأبعاد، ولكن الإجابات غالباً ما تكونُ سخيفةً جدَّاً بحيث إنَّها تجعلنا نميلُ إلىٰ عدمِ أخذِها علىٰ محمَلِ الجدِّ.

العِلْمُ هو أيضاً متحفِّظٌ عندما يكونُ السُّؤالُ عن الوحدةِ العظيمة، التي ننتمي إلىٰ جُزءٍ منها. والاسمُ المشهورُ في زمانِنا لهذه الوحدة هو (الإله). في العادةِ، العِلْمُ يوصفُ بأنَّه إلحاديٌّ. بعدما قلناه، هذا لن يكون مفاجئاً. إذا كانت صورةُ العالَمِ لا تحتوىٰ حتَّىٰ علىٰ الجمالِ والبهجةِ والحُزْن، إذا اتَّفقنا علىٰ أنْ نقتطِعَ منها الشَّخصية (personality)، فكيف يمكن لهذه الصُّورة أنْ تحتوي علىٰ أعظم فكرة عندما تعرِضُ نفسَها لعقلِ الإنسان؟)[1][2].

ماكس بلانك، الذي عَرَضَ لأوَّلِ مرَّة فرضية الكوانتم، يعتقدُ

---

(١) Erwin Schrödinger, My View of the World (Cambridge: Cambridge University Press, 1964), 93.

(٢) يقصد (شرودنجر) أنَّ الصورةَ التي تُقدِّمها العلوم الطبيعية عن العالَمِ قاصرةٌ جدَّاً، ولا تكتمل إلَّا بالدِّين، لأنَّها لا تنطوي علىٰ الشُّعور الغامض بوجود إله وراء هذا الكون، بل لا تتحدَّث أبداً عن عالم الانفعالات الذاتية (البهجة والحزن)، وعالم الأخلاق (الخير والشرّ)، وعالم الجمال (الجمال والقبح)... هذه العوالم بأسرِها خارج إطار العِلْم. فإنْ كان الأمر كذلك، فكيف بمقدور العِلْم أنْ يُجيبَ عمَّا هو أكبر من ذلك؛ عمَّا إذا كان لهذا العالم خالقاً؟ (المراجع).

بطريقةٍ لا لَبْسَ فيها بأنَّ العِلْمَ يكملُ الدِّين، وهو يؤكِّدُ علىٰ أنَّه (لن يكونَ هناك أيُّ تعارُض بين العِلْمِ والدِّين، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهُما مُكمِّلٌ للآخر). ويقولُ بأنَّ (الدِّينَ والعلوم الطَّبيعية يُقاتلانِ في المعركةِ ذاتِها، في حربٍ متواصلةٍ دونَ هوادة ضدَّ مذهب الشَّكِّ (skepticism)[١] وضدَّ الدُّوغمائية (dogmatism)[٢] وضدَّ الكُفْرِ والخرافات... (وفي النِّهاية) يُقاتلانِ من أجلِ الإله)[٣].

بول ديراك، الذي أكمَلَ عمَلَ هيزنبيرغ وشرودِنْجر بصياغةٍ ثالثةٍ لنظريةِ الكوانتُم، لاحظَ أنَّ (الإله هو رياضيٌّ بمرتبةٍ عاليةٍ جدَّاً، وهو يستخدمُ الرِّياضيات المتقدِّمة في بناءِ الكون)[٤].

وقبلَ أجيال من هؤلاءِ العلماء، أكَّدَ تشارلز دارْوِن (Darwin Charles) علىٰ الفكرةِ ذاتِها بقولِهِ:

((العقلُ يقولُ لي): إنَّه من الصَّعبِ بدرجةٍ كبيرة، بل من المستحيل، أنْ نُدرِكَ هذا الكون الهائل والرائع، بما في ذلك الإنسان مع

---

(١) الشُّكوكية أو مذهب الشَّكِّ هو اتِّجاه فلسفي يقول بأنَّ المعرفة الحقيقية في حقل معيَّن هى معرفة غير محقَّقة أو مؤكَّدة.

(٢) الدُّوغمائية أو الجزمية، هى التعصب لفكرة معينة من قبل مجموعة دون قبول النقاش فيها، أو الإتيان بأيِّ دليل ينقضها لمناقشته، أو كما هى لدىٰ (الإغريق) الجمود الفكري. وهى التشدُّد في (الاعتقاد) الدينى أو (المبدأ) الأيديولوجى، أو موضوع غير مفتوح للنقاش أو (للشَّكِّ). يعود أصل الكلمة إلىٰ اليونانية (δόγμα) والتى تعنى (الرأي) أو (المعتقد الأوحد).

(٣) Max Planck, Where Is Science Going? trans. James Murphy (New York: Norton, 1977), 168.

(٤) Paul A. M. Dirac, “The Evolution of the Physicist’s Picture of Nature,” Scientific American 208, no. 5 (May 1963): 53.

قابليَّتِهِ علىٰ النَّظَرِ إلىٰ الماضي البعيد، والذَّهاب بذهنِهِ إلىٰ المستقبلِ البعيد، ليقولَ بعد ذلك بأنَّ هذا الكون قد حدَثَ بصُدْفةٍ عمياء أو ضرورة. عندما أتأمَّلُ في ذلك، أجدُ نفسي مُضْطرّاً للتطلُّع إلىٰ السَّببِ الأوَّل الذي يمتلكُ عقلاً ذكياً يُشابِهُ بدرجةٍ ما الإنسان؛ عندها أستحِقُّ أنْ أُوصَفَ بالمُوحِّد»(١).

هذا القطارُ من الأفكارِ استمرَّ في المسيرِ في كتاباتِ مجموعةٍ من كبارِ الباحثين العِلْميِّين في وقتِنا الحاضر. وهؤلاء يتراوحون ما بين عُلماء من أمثالِ بول ديفيز (Paul Davies)، جون بارو (John Barrow)، جون بولكنغهور (John Polkinghorne)، فريمان دايسون (Freeman Dyson)، فرانسيس كولينز (Francis Collins)، أوين جنجريتش (Owen Gingerich)، وروجر بنْروز (Roger Penrose)، إلىٰ فلاسفةِ العلوم من أمثال ريتشارد سوينْبيرن وجون ليسْلي (John Leslie).

ديفيز وبارو، علىٰ وجهِ الخصوص قاما بتطويرِ أفكار آينشتين، هيزنبيرغ، وغيرِهم من العُلماء بخصوصِ العلاقة بين عقلانيةِ العالَمَ وعقلِ الإله. كلاهُما حصل علىٰ جائزةِ تمبلتون علىٰ هذا الاكتشاف. وقد صحَّحت أعمالُهُم الكثيرَ من التصوُّراتِ الخاطئة الشَّائعة، كما سلَّطت الضَّوءَ علىٰ الموضوعاتِ التي نُناقِشُها هنا.

* * *

(١) Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 1809 – 1182, ed. Nora Barlow (London: Collins, 1958), 92 – 3.

قوانينُ مَنْ؟

(WHOSE LAWS ?)

في كلمتِهِ في حفلِ جائزة تمبلتون، أشارَ بول ديفيز إلىٰ نُقطةٍ، وهي (أنَّ العِلْمَ الطَّبيعي يمكن أنْ يتقدَّمَ فقط إذا امتلَكَ العُلماءُ نظرةً كونيةً لاهوتيةً بنحوٍ أساسي). لا أحد يسأل من أينَ جاءت قوانينُ الفيزياء، ولكن (حتَّىٰ أكثر العُلماء إلحاداً يُقِرُّ كفعلٍ إيمانيٍّ بوجودِ نظام في الطَّبيعةِ قائم علىٰ القوانين، وهذا النِّظامُ في جانبٍ منه علىٰ الأقلِّ قابلٌ للإدراكِ من قِبَلِنا). وقد رفضَ ديفيز اثنتين من نقاطِ سوء الفهم الشَّائعة. يقولُ ديفيز بأنَّ (الفكرةَ القائلةَ بأنَّ نظرية كلِّ شيء ستُظهِر أنَّ هذا العالَمَ هو العالَمُ المتِّسقُ منطقياً الوحيد هي (فكرةٌ خاطئةٌ برهانياً)، لأنَّه لا يوجدُ أيُّ دليلٍ منطقيٍّ علىٰ أنَّ العالَمَ ضروريٌّ من الناحيةِ المنطقية، وفي الحقيقةِ من الممكن تخيُّل وجود عالَم بديل متَّسق منطقياً. ثانياً يقولُ: (من الهراءِ بكُلِّ ما للكلمةِ من معنىٰ) افتراض أنَّ قوانينَ الفيزياء هي قوانينُنا نحنُ وليست قوانين الطَّبيعة. سوف لن يُؤمن عُلماءُ الفيزياء بأنَّ قانونَ نيوتن للجاذبية هو خَلْقٌ ثقافي. فديفيز يُصِرُّ علىٰ أنَّ قوانينَ الطَّبيعة (موجودةٌ واقعياً)، وعمَلُ العُلماء هو اكتشافُها وليس اختراعَها)[1].

---

(١) يبدو لي أنَّ القوم وقعوا بين إفراطٍ وتفريط، بين قائلٍ بأنَّ قوانينَ الطبيعة هي مجرَّد خَلْق ذهني، خرائط ونماذج عقلية، لا وجودَ لها في عالَمِ الواقع، وقائلٍ بأنَّ قوانينَ الطبيعة هي مستخلصةٌ من الواقع، وليس خَلْقاً ذهنياً وخرائطَ عقلية. والصَّحيح - كما يبدو - أنَّ قوانينَ الطَّبيعة هي ⇦

يلفِتُ ديفيز الانتباهَ إلىٰ حقيقةِ أنَّ قوانينَ الطَّبيعة التي تحكُمُ الظَّواهِرَ لم يتِمَّ استخلاصُها من خلالِ الملاحظة المباشرة، وإنَّما تمَّ استخلاصُها من التَّجارُبِ والحساباتِ الرِّياضية. القوانينُ كُتِبَت بشَفْرةِ الكون بحيث إنَّ علىٰ العلماءِ التَّنقيب لفكِّ (رسالة الطَّبيعة، رسالة الإله - قُلْ ما شِئْت - لكن ليست رسالتنا نحن).

السُّؤالُ المُلِحُّ - كما يقول ديفيز - ينقسِمُ إلىٰ ثلاثةِ أقسام:

- من أين جاءت قوانينُ الفيزياء؟
- لماذا لدينا هذه القوانين وليس مجموعة أُخرىٰ من القوانين؟
- كيف لنا أنْ نمتلِكَ مجموعةَ قوانين تُحوِّل غازات ساكنة إلىٰ حياةٍ ووعي وذكاء؟

هذه القوانين (تبدو بديعة ومحكمة - كما يقولُ بعضُ المُعلِّقين - ومنها نشأت الحياة والوعي). ويخلُصُ إلىٰ أنَّ هذه (الطَّبيعة المبدعة للوجودِ الفيزيائي هي بالنِّسبةِ لي أروع بكثير من أنْ يتمَّ التعاطي معها علىٰ أنَّها مجرَّد (مُعطىٰ)، وهي تشيرُ إلىٰ معنىٰ أعمق للوجود). وكلماتٌ من قبيل (الغاية) و(التَّصميم) - كما يقول ديفيز - تلتقطُ بنحوٍ غير كاملٍ ما عليه الكون. (لكن لا بدَّ أنَّها تحكي عن شيءٍ ما، ولا أشُكُّ في ذلك مطلقاً)[1].

⇦ اعتباراتٌ ذهنيةٌ منتزعةٌ من مناشِئَ واقعية، فلا هي اعتباراتٌ ذهنيةٌ صِرْفة، ولا هي حاكيةٌ عن الواقعِ بنحوٍ تفصيلي، بل الذِّهنُ مُصمَّمٌ علىٰ أنْ ينتزعَ من عالَمِ الواقع مفاهيمَ وعلاقات يقيمُ علىٰ أساسِها معادلات يفهمُ من خلالِها الواقع بنحوٍ مُجمَل، ثمَّ تتكامل معرفتُهُ من الإجمال إلىٰ التفصيل بالتدريج. (المراجع).

(١) Paul Davies, Templeton Prize Address, May 1995, http://aca. mq.edu.au/ PaulDavies/ prize_address.htm. See also Davies's "Where Do the Laws of Physics Come From?" (2006), http://www. ctnsstars.org/conferences/papers/Wheredothelawsofphysicscomefrom.doc.

في كلمتِهِ في حَفْلِ تمبلتون، لحظَ جون بارو بأنَّ التَّعقيدَ غير المتناهي والبُنْيَة الرَّائعة للكونِ محكومةٌ بقوانين قليلة متماثلة وواضحة. في الحقيقة، (هناك معادلاتٌ رياضية، مصبوبةٌ بحبرٍ علىٰ ورق، تُخبِرُنا كيف يسْلُكُ هذا الكون بأسرِهِ). علىٰ غرارِ ديفيز، رفضَ بارو فكرةَ أنَّ نظامَ الكون تمَّ فرضُهُ من عقولِنا. وعلاوةً علىٰ ذلك، فإنَّ (الانتخابَ الطَّبيعي لا يتطلَّبُ فهمَ الجُسيمات الأولية (quarks) والثُّقوب السَّوداء التي تعمَلُ من أجلِ بقائِنا علىٰ قيدِ الحياة وتكاثُرِنا).

يُلاحظُ بارو أنَّ هناكَ في تاريخِ العلوم الطَّبيعية نظرياتٌ جديدةٌ تُوسِّعُ أو تُعيدُ صياغةَ نظرياتٍ قديمة. علىٰ الرَّغمِ من أنَّ نظريةَ نيوتن للميكانيكا والجاذبية قد تمَّ تجاوزها بنظريةِ آينشتين وسيعقُبُها نظرية أُخرىٰ في المستقبل، لكن بعد ألف سنة من الآن سيظلُّ المهندسون يعتمدون علىٰ نظرياتِ نيوتن. وبالمثل - كما يقول بارو - فإنَّ التصوُّرات الدِّينية عن الكون تستخدمُ التَّشبيهات والأمثال لمساعدةِ الأذهان في استيعابِ الأُمور الحاسمة. (هي ليست الحقيقة الكاملة، ولكن هذا لا يوقِفُها عن أنْ تكونَ جُزْءاً من الحقيقة)[1].

* * *

(١) John Barrow, Templeton Prize Address, March 15, 2006, http://www.templetonprize.org/barrow_statement.html.

صانع القوانين الإلهي

(THE DIVINE LAWMAKER)

قِلَّةٌ من الفلاسفةِ كتبوا أيضاً عن المَصْدرِ الإلهي لقوانينِ الطَّبيعة. في كتابِهِ (صانعُ القانون الإلهي: محاضراتٌ في الاستقراء، قوانين الطَّبيعة، وجود الإله)، ادَّعىٰ فيلسوفُ أكسفورد جون فوستر (John Foster) وجود اطِّرادات (regularities) في الطَّبيعة[1]، مهما كان وَصْفُكَ لها، يظلُّ أفضل تفسيرٍ لها هو العقلُ الإلهي. إذا كُنْتَ تقبل حقيقة أنَّ هناكَ قوانين، فلا بدَّ أنْ يكونَ هناك من يفرض هذا الاطِّراد في الكون. من هو الفاعل (أو الفاعلين) الذي قامَ بذلك؟ يرىٰ فوستر أنَّ الخَيارَ التوحيدي هو الخَيارُ الوحيد الجِدِّي كمصدر لهذا الاطِّراد، ولذلك (فإنَّ هناك ما يُسوِّغ الاستنتاج بنحوٍ عقلاني بأنَّ الإلهَ - إلهَ الوحدانية - هو الذي خلَقَ القوانين من خلالِ فرضِهِ الاطِّرادات علىٰ الكونِ كاطِّرادات). حتَّىٰ لو كُنْتَ تُنكِر وجودَ قوانين، فإنَّ (هناك ما يُؤيِّد تفسير الاطِّرادات من خلالِ اللُّجوء إلىٰ فِعْلِ الإله)[2].

---

(١) المقصود بـ (الاطِّرادات) هي الحوادث التي تقع بنحو مُتكرِّر ومنتظم، مثل شروق الشمس كلّ يوم ثمّ غروبها، أو سقوط الأجسام علىٰ الأرض كلَّما رميتَها بفعلِ الجاذبية (المراجع).

(٢) John Foster, The Divine Lawmaker: Lectures on Induction, Laws of Nature and the Existence of God (Oxford: Clarendon, 2004), 160.

في ردِّهِ علىٰ نَقْدِ دوكينز لحُجَّتِهِ في التَّصميم، قدَّمَ سوينبيرن رُؤيةً مشابهة:

(ما هو قانونُ الطَّبيعة؟ (هذه مسألة لم يتعرَّض لها أيّاً من نُقَّادي). أنْ تقولَ بأنَّ هناك قانوناً طبيعياً بأنَّ كلَّ الأجسام تسلُكُ بنحوٍ معيَّن (علىٰ سبيلِ المثال: تنجذِبُ إلىٰ بعضِها البعض وفقاً لمعادلةٍ معيَّنة)، هو بالنِّسبةِ لي كأنَّكَ تقول: إنَّ كلَّ جِسْمٍ في الطَّبيعة الضَّرورية يتصرَّف بهذه الطَّريقة (علىٰ سبيلِ المثال: أنْ يجذِبَ كلَّ جِسْمٍ بتلك الطَّريقة). ولعلَّهُ أكثر سهولةً أنْ تفترضَ أنَّ هذا التناغُمَ نشأَ من فعلِ كيانٍ واحدٍ تسبَّب في جعلِ الأجسام تسلُكُ بهذه الطريقة، بدلاً من افتراض أنَّ كلَّ الأجسام تسلُكُ بطريقةٍ معيَّنةٍ بحُكْمِ حقيقةٍ عمياء نهائية)[1].

الحُجَّةُ المركزيةُ لسوينْبيرن هو أنَّ الإلهَ الشَّخصي مع صفاتِهِ التَّقليدية يُقدِّمُ لنا أفضلَ تفسيرٍ لعمَلِ قوانين الطَّبيعة.

ريتشارد دوكينز رفضَ هذه الحُجَّة علىٰ أساس أنَّ الإلهَ هو حلٌّ معقَّدٌ جدّاً لتفسيرِ الكون وقوانينِهِ. هذا الكلام صدمني باعتبارِهِ شيئاً غريباً أنْ تقولَ ذلكَ عن تصوُّرِ كائنٍ روحيٍّ علىٰ كلِّ شيءٍ قدير. ما هو المُعقَّدُ في فكرةِ إلهٍ كاملِ القدرة وكاملِ المعرفة؟! وهي الفكرةُ التي لسُهولتِها تمَّ استيعابُها من قِبَلِ أتْباع الأديان الثلاثة العظيمة: اليهودية والمسيحية والإسلام؟ وقد عَلَّقَ بلانتينْغا مؤخَّراً علىٰ كلامِ دوكينز، بالإشارةِ إلىٰ أنَّه وفقاً لتعريفِ دوكينز الخاصّ، الإله بسيطٌ - ليس مُعقَّد (مركَّب) - لأنَّه روحٌ، وليس جسماً مادِّياً، وبالتالي ليس له أجزاء.

بالعودةِ إلىٰ مثالِ الهاتف الفضائي الذي طرحتُهُ في الفَصْلِ السابق،

(١) Richard Swinburne, "Design Defended," Think (Spring 2004): 14.

نجـد أنَّ قـوانينَ الطَّبيعـة تُمثِّـلُ مشـكلةً للمُلْحـدين لأنَّ صـوتَ العقلانيـة يُسْمَعُ مـن خـلالِ آليَّـات المـادَّة (mechanisms of matter). كتَـبَ بـول ديفيـز: (العلْومُ الطَّبيعيـة تقـومُ علىٰ فرضـيَّةِ أنَّ الكـونَ عقـلانيٌّ ومنطقـيٌّ تمامـاً علىٰ كافَّـةِ المسـتويات). ديفيـز هـو أكثـرُ مُفسِّـري العِلْـم الحـديث تـأثيراً في العَصْـرِ الـرَّاهن، كتَـبَ قـائلاً: (يـزْعُمُ المُلْحـدون أنَّ قـوانينَ الطَّبيعـة توجـدُ دون منطـق، وأنَّ الكـونَ مُنـافٍ للعقـل. أنـا كعـالِمٍ، أجـدُ صـعوبةً في قبـولِ ذلـك. يجـبُ أنْ يكـونَ هنـاك أسـاسٌ عقـلانيٌّ غـير متغـيِّر يقـومُ عليـه هـذا الكون المُنظَّم والمنطقي)[1].

هـؤلاء العُلـماء الـذين يُشـيرونَ إلىٰ عَقْـلِ الإلـه لا يُقـدِّمون مجـرَّد سلسلة من الحُجَج أو عمليَّـة اسـتدلال منطقيـة، بـل بـالأحرىٰ هُـمْ يُقـدِّمونَ رُؤيةً للواقعِ تنبثقُ من قلْـبِ تصـوُّرات العِلْـم الحـديث وتفـرِضُ نفسَـها علىٰ العقْلِ الرَّشيد. وهـي الرُّؤيـةُ التـي أجِـدُها شخصـيَّاً أنَّهـا مقنعـة وغـير قابلـة للدَّحض.

* * *

(١) Paul Davies, "What Happened Before the Big Bang?" in God for the 21st Century, ed. Russell Stannard (Philadelphia: Templeton Foundation Press, 2000),

الفصل السادس:

هل عَرَفَ الكونُ أنَّنا قادمون؟

DID THE UNIVERS KNOW WE WERE COMING?

تخيَّـل أنَّـكَ تـدخُلُ إلىٰ غُرفتِـكَ في الفنـدق الـذي ستسـكُنُ فيـه في رحلتِـكَ المقبلـة: ووجَـدْتَ أنَّ جهـازَ التَّسـجيل الموجـود بجانـبِ السَّـرير يعـزِفُ المعزوفـةَ الموسـيقية التـي تُحِبُّهـا. ووجَـدْتَ أنَّ اللَّوحـةَ المُعلَّقـة أعـلىٰ السَّـرير مطابقـةً للَّوحـةِ الموجـودة أعـلىٰ المـدفأة في بيتِـكَ. والغرفـةُ ينبعـثُ منهـا رائحـةَ العِطْـر الـذي تُفضِّـلُهُ. قُمْـتَ بهـزِّ رأسِـكَ مُتعجِّبـاً وألقيْـتَ حقائبَكَ علىٰ الأرض.

بعـد ذلـك انتبهـتَ فجـأةً، فاتَّجهْـتَ إلىٰ الثلَّاجـةِ الصَّـغيرة الموجـودة في الغرفـة، وفَتَحْـتَ بابَهـا، وحـدَّقْتَ في محتوياتِهـا. ووجَـدْتَ مشـروبَكَ المُفضَّل، وقطعةَ الحلوىٰ والكعكـةَ التـي تُحِبُّهـا، بـل وجَـدْتَ أيضـاً قنِّينـة مـن نوعِ الماء الذي تُفضِّلُهُ.

بعـد ذلـك، أدرْتَ ظهـرَكَ للثلَّاجـة، ونظـرْتَ إلىٰ المِنْضـدةِ الموجـودة في الغرفـة. ووجَـدْتَ عليهـا الكتـابَ الجديـد لمُؤلِّفِـكَ المُفضَّـل. وعنـدما ألقيْتَ نظرةً في الحـمَّام، حيـثُ تصـطفُّ عـلىٰ الـرَّفِّ مـوادَّ الاعتنـاء بالبَشْـرة، وجَدْتَ أنَّ كُـلًّا منهـا مـن النـوعِ الـذي تسـتخدِمُهُ في العـادة. وعنـدما قُمْـتَ بتشغيلِ التلفزيون، وجدْتَ القناةَ التلفزيونية التي تُفضِّلُها.

مـع كـلِّ شيءٍ تُشـاهِدُهُ في الغرفـة، تجِـدُ نفسَـكَ أقـلّ مـيلاً إلىٰ التفكـيرِ بأنَّ كـلَّ مـا حـدَثَ كـان مـن بـابِ الصُّـدْفة، ألـيسَ كـذلك؟ وقـد تتسـاءل: كيف اسـتطاعَ مـديرُ الفنـدق أنْ يعـرِفُ كـلَّ هـذه الأُمـور التفصـيلية عنـك. وقد تتعجَّـبُ مـن هـذا الإعـدادِ الـدَّقيق. حتَّـىٰ أنَّـكَ قـد تعيـدُ النَّظَـرَ مجـدَّداً

وتتساءل: كم سيُكلِّفُكُ هذا الإعـداد كلّـه مـن مبـالغ ماليـة. لكنَّـك بالتأكيـد سوف تميلُ إلىٰ الاعتقادِ بأنَّ شخصاً ما كان يعلَمُ بقُدُومِك.

* * *

كوننا الدَّقيق

(OUR FINELY TUNED UNIVERSE)

سيناريو هذه العطلة خارقٌ، وهو يوازي حُجَّةَ التوافق الدَّقيق (Fine-tuning Argument). الشُّهرة المعاصرة لهذه الحُجَّة تُسلِّطُ الضَّوءَ علىٰ بُعْدٍ جديدٍ لقوانينِ الطَّبيعة. كتَبَ عالِمُ الفيزياء فريمن دايسون (Freeman Dyson) قائلاً (كلَّما قُمْتُ بفحصِ هذا الكون ودرسْتُ تفاصيلَ تكوينِهِ، أجِدُ دليلاً إضافياً علىٰ أنَّ الكونَ بمعنىٰ ما كان يعلَمُ بأنَّنا قادمون)[1]. وبعبارةٍ أُخرىٰ: يبدو أنَّ قوانينَ الطَّبيعة صُمِّمت بنحوٍ يُحرِّكُ العالَمَ باتِّجاهِ نشأة حياة. هذا هو المبدأُ الأنثروبي، الذي أصبحَ مشهوراً بفَضْلِ مفكِّرينَ من أمثال مارتن ريز (Martin Rees)، جون بارو (John Barrow)، وجون ليسْلي (John Leslie).

دعنا نأخُذ أبْسَط قوانين الفيزياء كمثالٍ علىٰ ذلك. لقد تمَّ حسابُ أنَّه لو تغيَّرَ حتَّىٰ لو واحد فقط من الثوابتِ الأساسية - علىٰ سبيلِ المثال سرعة الضَّوء أو كتلة الإلكترون - بدرجةٍ مختلفةٍ قليلاً، فإنَّه لن يكون هناك كوكبٌ قادرٌ علىٰ توفيرِ البيئة المناسبة لحياةِ الإنسان.

لقد تمَّ تفسيرُ هذا التوافق الدَّقيق بطريقين. بعضُ العُلماء قالَ بأنَّ

---

(١) Freeman J. Dyson, Disturbing the Universe (New York: Harper & Row, 1979), Also cited in John Barrow and Frank Tipler, The Anthropic Cosmological Principle (Oxford: Clarendon, 1988), 318.

هذا التوافقَ الـدَّقيق دالٌّ عـلىٰ التَّصـميم الإلهـي؛ كثـيرونَ آخـرون خمَّنـوا بـأنَّ كونَنا هو كونٌ من ضـمنِ أكـوانٌ أُخـرىٰ - (أكـوانٌ متعـدِّدة) - مـع فـارق أنَّ كونَنا هُيِّئَ لكـي يُـوفِّرَ الشُّـروط اللازمـة للحيـاة. عمليـاً لا يـدَّعي أيُّ عـالمٍ معروفٍ اليوم أنَّ التوافـقَ الـدَّقيق كـان بنحـوٍ صِرْف نتيجـةً لعوامـلِ الصُّـدفة في كونٍ واحد.

في كتابِهِ (العقـول اللَّانهائيـة)، يجـادِلُ جـون ليسْـلي - وهـو مـن أعـلام مُنظِّـري المبـدأ الأنثـروبي - بـأنَّ (التوافـقَ الـدَّقيق فُسِّـرَ بشـكلٍ أفضـل بواسـطةِ القـول بوجـودِ تصـميمٍ إلهـي. يقـولُ ليسـلي: إنَّـه متعجِّـبٌ، لا مـن حُجَجٍ مُحدَّدة لصالحِ حـالاتٍ مـن التوافـقِ الـدَّقيق، بـل مـن حقيقـةِ أنَّ هـذه الحُجَـج موجـودةٌ عـلىٰ نحـوٍ وافـر (= يزيـدُ عـلىٰ القَـدْرِ المطلـوب لنشـأةِ الحيـاة). (إنْ كـان ثمَّـة أُمـور في الطَّبيعـة تحـدُثُ بطريقـةٍ تُثـيرُ الـذُّهولَ والإعجاب، فإنَّ هـذه الأُمـور سـتُرىٰ بنحـوٍ أفضـل كأدلَّـةٍ لصـالحِ الاعتقـاد بإله)[1]. وقدَّم ليسلي أمثلةً علىٰ هذه الأُمور:

١ - مبدأُ النِّسْـبيَّة الخاصَّـة: يُؤكِّـدُ عـلىٰ أنَّ لـبعضِ القـوىٰ، مثـل القـوَّة الإلكترومغناطيسـية، تـأثيراً غـير متغـيِّر، بغـضِّ النَّظَـر عـمَّا لـو كانـت تفعـل فعلَهـا عنـد زاويـا قائمـة مـع اتِّجـاهِ حركـة النظـام. وهـذا يَسْـمَحُ لشـفرةِ الجينـات بـأنْ تعمَـل، وللكواكـبِ بـأنْ تبقـىٰ مترابطـةً (متماسـكةً) عنـد الدَّوران[2].

---

(١) John Leslie, Infi nite Minds (Oxford: Clarendon, 2001), 213.

(٢) غالبـاً يُستَخدم تعبـير (rit angle) للزوايـا القائمـة (٩٠ درجـة)، حيـث يكـون اتِّجـاه المجـال المغناطيسـي متعامد مع المجال الكهربائي، وكلاهمـا عمـودي عـلىٰ اتِّجاه الحركـة بشـكل عـامّ. والحالة المذكورة حالة خاصَّة، لا يُشتَرط فيها تعامدهما مع اتِّجاه الحركة. (المراجع).

٢ - قوانينُ الكمِّ: تمنَعُ الإلكترونات من الحركةِ في مسارٍ لولبيٍّ للاندماجِ مع نواةِ الذرَّة (= لتسقُط في نواةِ الذرَّة)(١).

٣ - للإلكترومغناطيسية قوَّة واحدة: وهذا يجعلُ العديد من العملياتِ الهامة ممكنة؛ فمثلاً يسمَحُ للنُّجومِ بأنْ تُضيءَ بمعدَّلٍ ثابت (أو بشكلٍ منتظمٍ) لمليـاراتِ السِّنين. وهو ما يجعل تكوُّن الكربون في النُّجوم ممكناً، وهذا بدورِهِ يضمن عدم استبدال اللَّبْتونات(٢) بالجُسيماتِ الذرِّية (quarks)، ويترتَّب عليه استحالة تشكُّل الذرَّات. وهذا ما يُحتِّم علىٰ البروتونات أنْ لا تتحلَّل سريعاً ولا تصطدم مع بعضِها البعض بقوَّة، وهو ما قد يُؤدِّي إلىٰ أنْ تصبح الكيمياء مستحيلة. كيف يمكن لقوَّةٍ واحدةٍ أنْ تُلبِّي احتياجات كثيرة ومختلفة، في حين يبدو أنَّنا بحاجةٍ لقوىٰ عديدة لكلِّ واحدةٍ من هذه العمليات(٣)؟

* * *

---

(١) حيث إنَّ شحنة الإلكترون سالبة، والنواة فيها البروتونات موجبة. وهذا دفع العلماء قبل عدَّة قرون عند صدور نظريات تُفسِّر محتويات الذرَّة بأنْ يتساءلوا عن سبب عدم حركة الإلكترون في مسارٍ لولبي ليلتصق بالنواةِ الموجبة بسبب التجاذُب بينهما! واتَّضح فيما بعد بالتجارب أنَّ الإلكترون يدور في مسارٍ معنيٍّ حول النواة، وأنَّ القوىٰ المؤثِّرة عليه (الجذب، الطرد المركزي...) متعادلة، فيبقىٰ في مسارهِ، ممَّا يضمن استقرار الذرَّة. (المراجع).

(٢) اللبتون هو جسيم أوَّلي ومكوِّن أساسي للمادَّة. أشهر اللبتونات المعروفة هو الإلكترون والذي يحكم عمليات الكيمياء كلّها لأنَّه موجود في أغلفة الذرّات وترتبط به الخصائص الكيميائية كلّها. وتوجد فئتان أساسيتان للبتونات: المشحونة منها (وتُعرَف أيضا بلبتونات شبيه - الإلكترون)، ومحايدة (المشهورة باسم نيترينو).

(٣) Leslie, Infi nite Minds, **203 – 5.**

العبورُ إلى الكونِ المُتعدِّد
(ACROSS THE MULTIVERSE)

نظريةُ الأكـوان المتعـدِّدة تقـع في النُّقطـةِ المقابلـة لفكـرةِ الصُّـنْع الإلهـي (مع ذلك سوف أحاولُ التَّـدليل عـلىٰ أنَّ وجـودَ الأكـوان المتعـدِّدة لـن يُلْغـي السُّـؤال عـن المَصْـدرِ الإلهـي). عـالِمُ الكونيـات مـارتن ريـس (Martin Rees) هو أحدُ أكبر مؤيِّدي فكرة الأكوان المتعدِّدة. لاحظَ ريس أنَّ:

(أيَّ كونٍ مُهيَّـأ للحيـاةِ - وهـو مـا يمكـن أنْ نُسـمِّيهِ (الكـون الحيـوي Biophilic universe) - يجـب أنْ يـتمَّ (تعديلُـهُ) عـلىٰ نحـوٍ معـيَّنٍ. تـوفُّرُ الشُّـروط الأساسـية لحيـاةِ أيِّ نـوع نعرِفُـهُ مرهـونٌ بـأُمورٍ - كـالنُّجومُ الموجـودة منـذُ القِـدَم، والـذرَّات المسـتقرَّة مثـل الكربـون والكربـون والسِّليكون التي يمكـن أنْ تجتمـعَ في مركَّـبٍ معقَّـدٍ مـن الجزئيـات... الـخ - تتـأثَّر بشـكلٍ دقيـقٍ بـالقوانينِ الفيزيائيـة، وحجـم ومُعـدَّل توسُّـع الكـون ومحتوياتِهِ)[1].

يقولُ ريس: إنَّ ذلك يمكن تفسيرُهُ من خـلالِ فرضـيَّة وجـود (أكـوان) كثيرة، مع قوانين وثوابت فيزيائيـة مختلفـة، وكونُنـا كجُـزْءٍ ينتمـي إلىٰ مجموعـةِ أكوان، حدَثَ نتيجةً لظُهورِ تعقيدٍ (complexity) ووعـي (consciousness). وإذا كان هذا هو الحال، فإنَّ التوافق الدَّقيق لن يكونَ مَصْدرَ تعجُّبٍ.

---

(١) Martin J. Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," Astrophysics and Space Science 285 (2003): 376.

ذكـرَ ريـس أكثـرَ الاختلافـات تـأثيراً في فكـرةِ الأكـوان المُتعـدِّدة. في فكـرةِ (التمـدُّد الأبـدي)، قـدَّمَ علـماءُ الكـون أندريـه لنـده (Andrei Linde) وألـيكس فيلـنكن (Alex Vilenkin)، الفكـرةَ القائلـةَ بـأنَّ الأكـوانَ المُتعـدِّدة نشأت عن انفجاراتٍ عظيمةٍ لكُـلٍّ مـن هـذه الأكـوان مـع اختلافٍ في البُعْدِ الزَّمـاني والمكـاني مـن الكـونِ الـذي نعيشُ فيـه. أُطروحـةُ الثُّقـب الأسـود لكُـلٍّ مـن آلان غـوث (Alan Guth)، ديفيـد هاريسـون (David Harrison)، ولي سـمولين (Lee Smolin) تـرىٰ أنَّ الأكـوانَ نتجـت عـن ثُقـوبٍ سـوداء (Black Holes) عـلىٰ صـورةِ مجـالاتٍ زمكانيـة غـير متواصـلة (mutually inaccessible). وأخيراً، افترَضَ كـلٌّ مـن ليـزا رانـدال (Lisa Randall) ورامـان سـاندرم (Raman Sundrum) أنَّ هنـاك أكوانـاً في أبعـادٍ مكانيـةٍ مختلفـةٍ قـد تتفاعل أو لا تتفاعل مـع بعضِـها الـبعض بفعـلِ الجاذبيـة. أشـارَ ريـس إلىٰ أنَّ فكرةَ الأكـوان المُتعـدِّدة (تخمينيَّـةٌ بنحـوٍ كبـير)، وهـي تتطلَّـبُ وجـود نظريـة تصِـفُ باتِّسـاقٍ فيزيـاءَ الكثافـات العاليـة (ultrahigh densities)، وتكـوين البُنـىٰ (configuration of structures) وِفْـقَ أبعـادٍ إضـافية، وهكـذا دواليـك. وقـد لاحـظَ ريـس أنَّ واحـدةً مـن هـذه الأفكـار فقـط يمكـن أنْ تكـونَ صـحيحة. بـل في الحقيقـة، أضـاف: (يمكـن ألَّا يكـون أيٌّ منهـا كـذلك: فهناك نظرياتٌ بديلةٌ تقودُ إلىٰ أنَّ هناك كوناً واحداً)[١].

* * *

(١) Rees, “Numerical Coincidences and ‘Tuning’ in Cosmology,” 385.

نظرية البندقية متعدِّدة الاتِّجاهات

(A BLUNDERBUSS THEORY)

رفـضَ كـلٌّ مــن بــول ديفيــز (Paul Davies) وريتشــارد ســوينْبيرن (Richard Swinburne) فكـرةَ الأكـوان المتعـدِّدة. ديفيـز، وهــو عــالمٌ فيزيــائيٌّ وعــالمُ الكونيــات، كتَــبَ: (مــن الصَّــحيحِ أنَّ في الكــونِ اللَّامتنــاهي، كــلُّ شيءٍ يمكــن أنْ يحـدُثَ فســوفَ يحـدُثُ)[١]، ولكــن هــذا لــيس تفســيراً عــلىٰ الإطـلاق. إنْ كُنَّـا في مقـامِ محاولـة فهـم لمـاذا يُعتَـبرُ الكـونُ صـديقاً لصـالحِ نشـأةِ وبقـاءِ الحيـاة، فلـن يفيـدنا أنْ يُقـالَ: إنَّ جميـعَ الأكـوان الممكنـة هـي موجـودةٌ. نظريـةُ الأكـوان المتعـدِّدة (مثـلُ البندقيـة المتعـدِّدة الجوانـب، فهـي تُفسِّـرُ كلَّ شيءٍ ولا تُفسِّـرُ شـيئاً)، ويعنـي ديفيـز بـذلك أنَّهـا ادِّعـاءٌ لا معنـىٰ له. إذا قُلْنا أنَّ العالَمَ وكلَّ ما فيـه جـاءَ إلىٰ الوجـودِ قبـلَ خمـس دقـائق - بـما في ذلـكَ ذكريـات سـنواتٍ عديـدة عِشْـناها وأدلَّـة عـلىٰ أحـداثٍ وقعـت منـذُ آلافِ السِّنين - فإنَّ ادِّعاءَنـا غـيرُ قابـلٍ للـدَّحض. فهـو يُفسِّــرُ كـلَّ شيءٍ ولا يُفسِّرُ شيئاً في وقتٍ واحد[٢].

---

(١) يعني طالما فرضنا أنَّ ثَمَّـة كونـاً غـير متنـاهٍ، فكـلُّ حادثـةٍ ممكنـة، لا بـدَّ أنْ تـأتي لحظةً تحـدُثُ فيها تلك الحادثة، طالَ الزَّمان أو قَصُر. (المراجع).

(٢) يشـير (ديفيـز) هنـا إلىٰ مشـكلة الـذاكرة المعروفـة في الفلسـفة، التـي لخَّصـها برترانـد رسـل بقولـه: (لا توجـد اسـتحالة منطقيـة في افـتراض نشـأة العـالَم منـذ خمـس دقـائق مضـت مـع وجود رهط هائل من ذكريات لماضٍ لم يقع). (المراجع).

التَّفسيرُ العِلْمـي الصَّـحيح، كـما يقـولُ ديفيـز، يشـبهُ رصاصـةً واحـدةً محدَّدةَ الاتِّجاه. فكـرةُ الأكـوان المتعـدِّدة تسـتبدلُ كونـاً واقعيـاً منـتظماً عقلانيـاً بمركَّبٍ لا متناهٍ مـن أكـوانٍ وتجعَـلُ عمليـة (التَّفسـير) بأسرِهـا لا معنـىٰ لهـا. سوينْبيرن كـان قويّـاً في ازدرائـهِ لتفسـيرِ الأكـوان المتعـدِّدة، (إنَّـه مـن الجنـونِ افتراض وجـود مليـارات الأكـوان (غـير مرتبطـة سـببياً) كمصـادرةٍ لتفسـيرِ معالِمِ كونٍ واحد، وذلـك عنـدما يفـي افـتراضُ وجـودِ كـائنٍ واحـدٍ (الإلـه) بأداءِ المهمَّة)(١).

ثلاثةُ أُمورٍ يمكن أنْ تُقالَ فيما يتعلَّق بحُجَّةِ التوافقِ الدَّقيق:

الأوَّل: ثَمَّـة حقيقـة صَـلْبة تُؤكِّـدُ بأنَّنـا نعـيشُ في كـونٍ فيـه قـوانين محدَّدة وثوابت (فيزيائية)، وأنَّ الحياةَ فيـه لم تكـن ممكنـةً فـيما لـو كانـت بعـض هذه القوانين والثوابت مختلفة.

الثـاني: حقيقـة أنَّ القـوانينَ والثوابـتَ الموجـودة تسـمحُ ببقـاءِ الحيـاة، لا تُجيـبُ عـن السُّـؤالِ حـولَ أصـلِ الحيـاة. هـذا سـؤالٌ مختلـفٌ تمامـاً، كـما سـوف أُحـاول أنْ أُبـيِّن؛ أنَّ هـذه الشُّـروطَ ضروريـةٌ لنشـأةِ الحيـاة، لكنَّهـا ليست كافية.

الثالـث: حقيقـة أنَّ مـن الممكـنِ منطقيـاً أنْ تكـونَ هنـاك أكـوانٌ متعدِّدةٌ مـع قوانينِهـا الخاصَّـة بطبيعتِهـا، لا يعنـي أنَّ هـذه الأكـوانَ موجـودةٌ فعلاً. فحالياً لا يوجـدُ دليـلٌ يـدعَمُ فكـرةَ الأكـوان المتعـدِّدة. وسـتظلُّ فكـرةً تخمينية.

ما هو مهمٌّ جـدّاً هنـا هـو أنَّ فرضـيةَ وجـود أكـوان متعـدِّدة لا تُفسِّـرُ

---

(١) Paul Davies, “Universes Galore: Where Will It All End?” http://aca. mq.edu.au/ PaulDavies/publications/chapters/Universesgalore.pdf.

أصلَ وجود قوانين الطَّبيعة. يعتبرُ مارتن ريس (Martin Rees) أنَّ فكرةَ الأكوان المتعدِّدة التي لها قوانينها الخاصَّة بها تطرحُ سؤالاً حول القوانين الكُلِّية التي تحكُمُ كلَّ الأكوان، النظريةُ الشَّاملةُ التي تشبهُ قائدَ فِرْقة العَزْف الموسيقية. (القوانينُ الكُلِّية التي تحكُمُ الأكوانَ المتعدِّدة ربَّما تسمحُ بوجودِ تفاوتٍ بين الأكوان، فبعضُ ما نعتبرُهُ (قوانين طبيعية) قد تكونُ - وفقاً لوجهةِ النظر هذه - قوانين محلِّية متناغمة مع القوانينِ الكُلَّية، ولكن القوانين المحلِّية وفقاً لهذه النظرية ليست ثابتة)[١].

سؤالُنا عن كيفيةِ تحكُّم القوانين بالأكوانِ المُتعدِّدة يُماثلُ سؤالَنا عن أصلِ قوانين الطَّبيعة بشكلٍ عامٍّ. كتَبَ بول ديفيز يقول: إنَّ (أنصارَ نظرية الأكوان المُتعدِّدة عادةً ما يكونون غامضين حول كيفية اختيار قيم المُتغيِّرات (parameter values) في هذا المجمع الكوني. إذا كان هناك (قانون للقوانين) يُحدِّدُ قِيَمَ المُتغيِّرات، فإنَّ ذلك يعني أنَّنا نحيلُ كلَّ كونٍ إلىٰ الكونِ الآخر، وعندها نكونُ نقلنا المشكلةَ مرتبةً إلىٰ الأعلىٰ، لماذا؟ أوَّلاً لأنَّنا بحاجةٍ إلىٰ تفسيرٍ من أين جاءَت هذه القوانين)[٢].

يقولُ البعضُ: (إنَّ القوانينَ حدثت عَرَضاً كنتيجةٍ للطَّريقةِ التي بَرَدَ فيها الكونُ بعد الانفجارِ العظيم. لكن كما أشارَ ديفيز، فإنَّ هذه الحوادثَ يمكنُ اعتبارُها ظهوراً ثانوياً لقوانينَ عميقة تحكُمُ مجمعَ الأكوان. مرَّةً أخرىٰ، حتَّىٰ تطوُّر قوانين الطَّبيعة والتغيُّرات علىٰ الثوابتِ تتبَعُ قوانينَ معيَّنة، ونعودُ مرَّةً أُخرىٰ إلىٰ السُّؤالِ عن كيفيةِ حدوث هذه القوانين العميقة. مهما أرْجَعْنا إلىٰ الوراءِ خصائصَ نشأة الكون بكيفيةٍ

---

(١) Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," 386.

(٢) Davies, "Universes Galore: Where Will It All End?"

معيَّنة، فإنَّ هذه النَّشأةَ لا بدَّ أنْ تتَّبعَ قوانين قبْلِيَّة محدَّدة)[١].

سواءٌ أكان هناكَ أكوانٌ متعدِّدة أو لا، فإنَّنا لا بدَّ أنْ نعودَ إلىٰ السُّؤال: من أينَ جاءت هذه القوانين؟ والتَّفسيرُ الوحيدُ المقنع هنا هو العقلُ الإلهي.

* * *

(١) Martin Rees, "Exploring Our Universe and Others," in The Frontiers of Space (New York: Scientifi c American, 2000), 87.

الفصل السابع:

كيف حدثت الحياة؟

HOW DID LIFE GO LIVE?

عندما عرَضَت وسائلُ الإعلام لأوَّلِ مرَّةٍ خبرَ التغيُّر في رُؤيتي الكونية، تمَّ الاستشهاد بكلامي بأنَّ أبحاثَ علماء الأحياء في الحمضِ النووي (DNA) أظهرت، عن طريقِ التَّعقيد غير القابل للتَّصديق تقريباً للترتيباتِ اللازمة لإنتاجِ حياةٍ، أنَّ الذَّكاءَ لا بدَّ أنْ يكونَ وراءَ هذه العملية. كتَبْتُ في السَّابقِ أنَّه كان هناك مجالٌ لتقديم حُجَّةٍ جديدةٍ في التَّصميم لتفسيرِ النُّشوء الأوَّل للحياةِ من مادَّةٍ غير حيَّة، خصوصاً إذا كانت المادَّةُ الحيَّةُ الأُولىٰ قد امتلكت القُدْرةَ علىٰ إعادةِ إنتاجِ نفسِها جينيَّاً. وقُلْتُ: إنَّه لا يوجدُ تفسيرٌ طبيعيٌّ شافٍ لظاهرةٍ من هذا القبيل.

هذه التَّصريحاتُ أثارت غضباً من النُّقَّادِ الذين ادَّعوا أنَّني لم أكن علىٰ درايةٍ بأحدَثِ الاكتشافات في مجالِ التولُّد التلقائي (Abiogenesis)[1]. ريتشارد دوكينز ادَّعىٰ أنَّني لجأتُ إلىٰ (إلهِ الفجوات God of the gaps)[2].

---

(١) عملية طبيعية من الحياة الناشئة من مواد غير حيَّة مثل مركَّب عضوي بسيط.

(٢) مصطلح يقصد به المُلْحدون الجُدُد أنَّ المؤمنين بالإله يلجأون عادةً لافتراضِ وجود الإله كلَّما عجزوا عن تفسير الظواهر الطبيعية. فكلَّما أعوزهم تفسير ظاهرة من ظواهر الطبيعة، لأنَّ العِلْمَ لم يظفر بعدُ علىٰ تفسيرٍ لها، لجأوا لافتراضِ أنَّ الإله هو وراء هذه الظاهرة. لذا فهذه الحالة – في نظر المُلْحدين الجُدُد – تبعث علىٰ الكسل العقلي، وتُطفئ شعلة البحث عن تفسير علمي للظواهر الطبيعية. لذا يرىٰ هؤلاء أنَّه كلَّما تقدَّم العِلْم ونجح في تقديم تفاسير للظواهر الطبيعية، تقلَّصت الحاجة لافتراض وجود إله، لأنَّ الفجوات سوف تقلُّ بالتدريج.

ونحن نرىٰ أنَّ هذا الوهمَ خاطئٌ للغاية. فالإله الذي نؤمن به هو وراء هذه الظواهر الطبيعية، والإيمان به لا يُلْغي دورَ الأسباب والعِلَل الفاعلية للظواهر الطبيعية، ولا يُطفئ شعلة البحث العِلْمي، بل علىٰ العكس، فلطالما حثَّت النُّصوص الدِّينية علىٰ النظر والتفكُّر والبحث والسير ⇦

في مقدِّمتي الجديدة لطبعةِ عام (٢٠٠٥م) من كتابِ (الإله والفَلْسفة) قُلْتُ: (إنَّني شخصياً مسرورٌ لأنَّ أصدقائي من علماءِ الأحياء أكَّدوا لي أنَّ علماءَ الأحياء البكتيرية باتوا قادرين حالياً علىٰ تقديمِ نظرياتٍ في التطوُّرِ بخصوصِ المادَّة الحيَّة الأُولىٰ، وأنَّ العديدَ من هذه النظريات تتوافقُ مع جميعِ الدَّلائل العِلْمية المؤكَّدة)[1]. لكن يجب أنْ أُضيفَ إلىٰ ذلك أنَّ الأعمالَ الحديثة التي رأيتُها، والتي تعكسُ وجهةَ نظر علماء الفيزياء في عُمْرِ الكون، تُعطي وقتاً قصيراً لهذه النَّظريات في مجالِ الأحياء البكيترية لوقوعِ ما يدَّعون[2].

هناك اعتبارٌ أكثرَ أهمّية يتمثَّلُ في التحدِّي الفَلْسفي الذي يواجهُ دراسات أصل الحياة. فمعظمُ دراسات أصل الحياة التي يقومُ بها العلماءُ، نادراً ما تأخُذُ في الاعتبار البُعْد الفَلْسفي لمكتشفاتِهم.

في المقابلِ، فإنَّ الفلاسفةَ لم يقولوا سوىٰ القليل عن الطَّبيعةِ وأصلِ الحياة. السُّؤالُ الفَلْسفي الذي لم تتمّ الإجابة عنه في دراساتِ أصل الحياة هو هذا: كيف يمكن لكونٍ ذي مادَّةٍ لا عقلَ لها أنْ تُنْتِجَ

⇦ في الأرض، باعتبار أنَّ الكون بكلِّ ما يزخر به من ظواهر إنَّما هو تجلٍّ لأفعالِ الله، فكلَّما تقدَّم العِلْم، انكشفَ جانبٌ من عظمةِ ودقَّة فعل الله تعالىٰ. (المراجع).

(١) Freeman J. Dyson, Disturbing the Universe (New York: Harper & Row, 1979), 250. Also cited in John Barrow and Frank Tipler, The Anthropic Cosmological Principle (Oxford: Clarendon, 1988), 318.

(٢) يقصد (فلو) أنَّ التطوُّر حتَّىٰ يحصل لهذه المادَّة، وفقاً لهذه النظريات في عِلْم الأحياء، ابتداءً من مادَّةٍ صمَّاء، مروراً بمادَّةٍ حيَّةٍ أُولىٰ بسيطة، ثمَّ مادَّة حيَّة مُعقَّدة، وانتهاءً بمادَّةٍ بالغة التعقيد تنطوي علىٰ وعي (كما نجدُ في الإنسان)، تتطلَّبُ زمناً أطول بكثير من الزَّمنِ الذي يُقدِّمُهُ علماءُ الفيزياء الكونية لعُمْرِ الكون. (المراجع).

كائنـاتٍ لهـا غايـاتٌ حقيقيَّـة (Intrinsic ends)، ولهـا قابليـاتٌ عـلىٰ التكـاثُرِ الذَّاتي، ومُشفَّرة كيميائياً coded chemistry)؟

هنا نحنُ لا نتعـاطىٰ مـع عِلْـمِ الأحيـاء (biology)، وإنَّـما نتحـدَّث عـن مشكلةٍ من مقولةٍ مختلفةٍ تماماً.

* * *

الكائنُ العُضْوي الهادف[1]

(THE PURPOSE-DRIVEN ORGANISM)

دعونا ننظُرُ أوَّلاً في طبيعةِ الحياة من وجهةِ نظرٍ فَلْسفية. المادَّةُ الحيَّة تمتلكُ هدفاً موروثاً أو نظاماً مُحدَّدَ الغاية وليس موجوداً علىٰ الإطلاقِ في المادَّةِ التي جاءت منها. في واحدةٍ من الأعمالِ الفَلْسفية القليلة التي كُتِبَت حولَ الحياة، قدَّمَ ريتشارد كاميرون (Richard Cameron) تحليلاً مفيداً عن وجهةِ (directedness) الكائنات الحيَّة.

أيُّ شيءٍ حيٍّ، كما يقولُ كاميرون، هو غائيٌّ (teleological)، بمعنىٰ أنَّه يملكُ نهايات، أهداف، أو غايات[2]. كَتَبَ كاميرون: (علماءُ الأحياء المعاصرون، وفلاسفةُ عِلْم الأحياء، والعاملونَ في مجالِ (الحياة

---

(١) الترجمة الحرفية لهذا العنوان هي ما يلي: (الكائن العضوي الذي يُساق نحوَ غاية). (المراجع).

(٢) يريد (فلو) هنا أنْ يستعين بما يُعرَف بـ (الحُجَّة الغائية)، التي يُعبَّر عنها في أدبياتنا الفَلْسفية بدليلِ (العناية) أو (التدبير) أو (الهداية)، الذي يتحدَّث عن وجودِ قوَّة تكوينية تسوقُ الكائنات الحيَّة إلىٰ كمالِها. بعبارةٍ أُخرىٰ: ثَمَّة علاقة خفيَّة بين الشَّيءِ ومستقبلِهِ، أي الغاية التي يتَّجه إليها؛ كالعلاقة بين الطَّيرِ وبناء العُشِّ، فثَمَّة قوَّة تسوقُ الطَّير إلىٰ بناءِ العُشِّ، بعد خروجِهِ من البيضةِ مباشرة، حتَّىٰ لو فُصِلَ عن أبويه، وقبلَ أنْ يتعلَّمَ منهما شيئاً. وقد يُعبَّر عن هذه القوَّة بـ (الهداية التكوينية). فالفأرة تفرُّ من الهرَّة، ولا تفرُّ من الشَّاة. والنملُ والنحلُ يهتدي بنحوٍ تكويني إلىٰ تشكيلِ مجتمعٍ وبناءِ مساكن، والطفلُ يهتدي إلىٰ ثدي أُمِّهِ ويرتضع منه في بدءِ ولادتِهِ... الخ. (المراجع).

الاصطناعية)، لم يأتوا حتَّىٰ الآن ببيانٍ مقنعٍ يُحدِّدُ متىٰ يكون الكائنُ حيّاً، وقد دافعْتُ عن فكرةِ أنَّ أُرسطو يمكن أنْ يُساعدَنا في ملءِ هذا الفراغ... فأُرسطو لم يدَّعِ أنَّ الحياةَ والغائية متلازمانِ بالصُّدفةِ هكذا بسهولة، وإنَّما عرَّفَ الحياةَ بحُدُودٍ (ألفاظٍ) غائية، مؤكِّداً علىٰ أنَّ الغائيةَ هي أمرٌ أساسيٌّ لحياةِ الأشياء الحيَّة)[١].

أصلُ التكاثُر الذَّاتي هو المشكلةُ الرَّئيسيةُ الثانية. الفيلسوفُ المُتميِّز جون هالدين (John Haldane) لاحَظَ أنَّ نظريات أصل الحياة (لا تُقدِّمُ تفسيراً كافياً، طالما أنَّها تفترضُ مسبقاً وجودَ التكاثُر الذَّاتي في مرحلةٍ مبكِّرة، ولم يتبيَّن أنَّ هذا التكاثُر يمكن أنْ يتمَّ من خلالِ الوسائل الطَّبيعية من أصلٍ مادِّيٍّ)[٢].

ديفيد كونواي يُلخِّصُ هذينِ المأزقينِ الفَلْسفيَّينِ في ردِّهِ علىٰ ادِّعاءِ دافيد هيوم، بأنَّ نظامَ الحفاظ علىٰ الحياةِ في الكون لم يُصمَّم من قِبَلِ أيِّ شكلٍ من أشكالِ الذَّكاء. التحدِّي الأوَّل هو في تقديمِ تفسيرٍ مادِّيٍّ (للانبثاقِ الأوَّل للمادَّةِ الحيَّة من مادَّةٍ غير حيَّة. كونُ المادَّة حيَّة يعني أنَّ لها نظاماً غائياً، وهو غيرُ مُتحقِّقٍ فيما هو قبلَها). أمَّا التحدِّي الثاني فهو تقديمُ تفسيرٍ مادِّيٍّ (لانبثاقِ الحياة من أشكالٍ أوَّليةٍ مُتقدِّمة، كانت غير قادرة علىٰ التكاثُر ذاتياً، وإنتاج كائنات حيَّة قادرة علىٰ التكاثُر. من دون وجود مثل هذه القدرة، ما كان من الممكن لهذه الأنواع المختلفة أنْ تنبثِقَ

---

(١) Richard Cameron, "Aristotle on the Animate: Problems and Prospects," Bios: Epistemological and Philosophical Foundation of Life Sciences, Rome, February 23 – 24, 2006.

(٢) John Haldane, "Preface to the Second Edition," in Atheism and Theism (Great Debates in Philosophy), J. J. C. Smart and John Haldane (Oxford: Blackwell, 2003), 224.

من خلالِ طفرةٍ عشـوائيةٍ وانتقـاءٍ طبيعـي. وفقـاً لـذلك، فـإنَّ هـذه الآليـة لا يمكنُ الاحتجاجُ بها في أيِّ تفسيرٍ لكيفيـةِ (تطـوُّر) صـور حيـاة تتـوفَّر فيهـا هـذه القـدرة مـن أشـياءٍ تفتقـرُ لـذلك). ويخلُـصُ كونـواي إلىٰ أنَّ الظَّـواهرَ البيولوجيـة هـذه (تُزوِّدُنـا بسـببٍ يـدفعُنا للشَّـكِّ في إمكانيـةِ انبثـاق صـور للحياةِ من أساسٍ مادِّيٍّ محض، دون اللُّجوء إلىٰ التَّصميم)[1].

* * *

(١) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 125 ,220.

تحدٍّ تصوُّريٍّ عميق
(A DEEP CONCEPTUAL CHALLENGE)

ثَمَّةَ بُعْدٍ فَلْسفيٍّ ثالثٍ لأصلِ الحياة يتعلَّقُ بأصْلِ تشفير (coding) ومعالجة المعلومات، الذي هو أمرٌ أساسيٌّ لجميعِ أشكال الحياة. أفضلُ وصفٍ لذلكَ قُدِّمَ من قِبَلِ عالِمِ الرِّياضيات ديفيد بيرلينسكي (David Berlinski)، الذي يُشيرُ إلىٰ أنَّ هناك قصَّةً دراميةً غنيةً تُحيطُ بفهمِنا الحالي للخلية.

الرِّسالةُ الوراثية في الحمضِ النووي (DNA) تتكرَّرُ في النُّسخِ المتماثلة، ثمَّ يتمُّ نسخَها من الحمضِ النووي (DNA) إلىٰ الحمضِ النووي الرَّيبوزي (RNA)[1]. وبعد هذا تتمُّ ترجمةُ الرِّسالةِ ونقلُها من الحمضِ النووي الرَّيبوزي

(١) عبارة عن (بوليمر حمضي نووي) مؤلَّف من ارتباط تكافئي لمجموعة من (النيكليوتيدات). الحمض النووي الريبوزي هو واحد من ثلاثة جزيئات ضخمة بيولوجية تُعتبر أساسيَّة لكلِّ أشكال الحياة (مع الحمض النووي الريبوزي منقوص الأوكسجين والبروتينات). ثَمَّة اعتقاد أساسي مُتَّصل بالبيولوجيا الجزيئية يفيد بأنَّ تدفّق المعلومات الوراثية في الخليَّة يتكوَّن من الـ (دي إن إيه DNA) الذي يصنع الـ (آر إن إيه RNA) والذي بدوره يصنع (البروتينات). البروتينات هي حصان العمل في الخليَّة، حيث تلعب دوراً رئيسياً في الخليَّة كإنزيمات، كمكوِّنات هيكلية، أو في إشارات الخليَّة، علىٰ سبيل المثال لا الحصر. يلعب الـ (دي إن إيه) دوراً أساسيّاً كمخطّط في الخليَّة، حيث يحمل كلَّ المعلومات الوراثيَّة اللازمة لنموِّ الخليَّة، للحصول علىٰ الموادِّ الغذائية والتكاثر. هنا يكمن دور الـ (آر إن إيه) في (الخليَّة) عندما تحتاج إنتاج بروتين معيّن، حيث إنَّه يقوم بتفعيل (جين) البروتين (جزء من الـ (دي إن إيه) ⇦

(RNA) إلىٰ الأحماضِ الأمينيـة، وأخـيراً يـتمُّ تجميـعُ الأحمـاض الأمينيـة إلىٰ بروتينات. يتمُّ التَّنسيقُ بين البُنْيتيـنِ المختلفتيـنِ الأساسيَّتَينِ لإدارةِ المعلومـات والنَّشاط الكيميائي في الخليةِ عن طريقِ شفرةٍ وراثيةٍ عالمية.

الطَّبيعـةُ الرَّائعـةُ لهـذه الظـاهرة تصبحُ واضحةً عنـدما نُسلِّطُ الضَّـوءَ علىٰ كلمةِ (شفرة).

يقـولُ بيرلينسـكي: (الشَّـفرة في حـدِّ ذاتِهـا مألوفـةٌ بحـدٍّ كـافٍ، فهـي عبـارةٌ عـن مُخطَّـطٍ اعتبـاطيٍّ (arbitrary) أو نظـامٍ للـرَّبطِ بـين اثنـينِ مـن الموضـوعاتِ المنفصـلة. لنأخُـذ مثـالاً مألوفـاً، شَـفرةُ مـورس (Morse code)[1] عـلىٰ سـبيلِ المثـال تُنسِّـقُ النُّقـاطَ والشَّـرْطاتَ مـع الأحـرُفِ الأبجديـة. وعنـدما نستخدمُ كلمـةَ (اعتبـاطي)، فإنَّنـا نريـدُ بـذلك التَّفريـقَ بـين الشَّـفرةِ والـرَّبطِ الفيزيـائي الصِّـرْف بـين موضـوعين. وعنـدما نقـولُ: إنَّ الشَّـفرةَ تتضـمَّنُ مُخطَّطـاً، فإنَّنـا نريـدُ أنْ نُؤكِّـدَ عـلىٰ مفهـومِ الشَّـفرة بلُغـةٍ رياضية. وعندما نُشيرُ إلىٰ أنَّ الرُّمـوزَ تعكـسُ الارتبـاطَ عـلىٰ نحـوٍ مـا، فإنَّنـا نُعيدُ تصوُّر الشَّفرة إلىٰ استخداماتِها البشرية).

⇦ يُشفِّر ويرمز لـذلك البروتـين)، وإنتـاج نسـخ متعـدِّدة منـه عـلىٰ شـكل (حمـض نـووي ريبوزي رسول). تلـك النسـخ تُستخدم لترجمـة (الشـفرة الجينيـة) مـن أجـل صـنع البروتـين عـن طريـق (الرايبوسـومات). ويسـتطيع الــ (آر إن إيـه) أن يزيـد مـن كمّيـة بـروتين معيَّن يمكن صنعه في مرحلة واحدة من جـين معيَّن، كـما أنَّـه يُشكِّل نقطـة تحكـم مهمَّـة مـن أجـل تنظيم وقت وكمّية إنتاج بروتين مُحدَّد.

(١) شـفرة مـورس هـي (شـفرة) حرفيـة مـن أجـل إرسـال المعلومـات (التلغرافيـة)، باسـتخدام تتابعـات قياسـية مـن عنـاصر طويلـة وقصـيرة تُعـبِّر عـن الحـروف والأرقـام والعلامـات والحـروف الخاصَّـة الموجـودة في الرسـالة. العنـاصر الطويلـة والقصـيرة مـن الممكـن أن يـتمَّ تكوينهـا عـن طريـق صـوت أو علامـات أو فـتح وغلـق المفـاتيح وهمـا مشـهوران عـلىٰ أنَّهـما نقاط وعلامات مائلة.

ما سبَقَ يقودُنا بدورِهِ إلىٰ السُّؤالِ الكبير: (هل يمكنُ أنْ نُفسِّرِ أصل نظام التَّشفير الكيميائي بطريقةٍ لا تجعلُنا بحاجةٍ إلىٰ اللُّجوءِ إلىٰ تفسيرِ هذه الشَّفرات واللُّغات وأنظمة التواصل، علىٰ أساسِ الكلمات الرَّائجة في عالَمِ المادَّة؟)[١]. كارل وويس (Carl Woese)، وهو أحدُ رُوَّاد دراسات أصل الحياة، يُلفِتُ الانتباهَ إلىٰ الطَّبيعةِ الفَلْسفيةِ الغامضة لهذه الظَّاهرة. فقد كتَبَ في مجلَّةِ (RNA) قائلاً: (الحقائقُ التَّشفيرية والميكانيكية والتطوُّرية لهذه المشكلة أصبحت مسائلَ منفصلة. فكرةُ تعبير الجين (gene expression)، علىٰ غرارِ فكرة تكرار الجين (gene replication)، التي كانت قائمةً علىٰ مبدأٍ فيزيائيٍّ، لم تَعُد صحيحة). ليس فقط لأنَّه لا وجودَ لمبدأ فيزيائي، بل لأنَّ وجودَ الشَّفرةِ بذاتِهِ هو لُغزٌ. (قواعدُ التَّشفير معروفةٌ، لكنَّها لا تُوفِّر أيَّةَ إشارةٍ لماذا توجدُ الشَّفرةُ ولماذا توجدُ آليةُ التَّشفير علىٰ النَّحوِ التي هي عليه). يعترفُ وويس بأنَّنا لا نعرفُ أيَّ شيءٍ عن جذورِ هذا النِّظام. (جذورُ الترجمة، قبلَ أنْ تُصبحَ آليةً صحيحةً لفكِّ الشَّفرة، صارت الآن جُزْءاً من الماضي، ولا أُريد أنْ أدخُلَ في تخميناتٍ عن عمليةِ صعود نجمِها، كما لا أُريدُ أنْ أدخُلَ في تخميناتٍ حول جذور نظام الشَّحن (TRNA) أو الشَّفرة الجينية (Q)[٢].

بول ديفيز سلَّطَ الضَّوءَ علىٰ المشكلةِ نفسِها. فقد لاحظَ أنَّ معظمَ نظريات النُّشوء الحيوي ركَّزَت علىٰ كيمياءِ الحياة (chemistry of life)، ولكن (الحياةُ هي أكبرُ من مجرَّدِ مركَّبٍ للتَّفاعلاتِ الكيميائية. فالخليةُ هي أيضاً مكانٌ لنظامِ تخزين ومعالجة وتكرار المعلومات. نحنُ بحاجةٍ

---

(١) David Berlinski, “On the Origins of Life,” Commentary (February 2006): 25, 30 – 31.

(٢) Carl Woese, “Translation: In Retrospect and Prospect,” RNA (2001): 1056 , 1061 , 1064.

لشَرْحِ أصل هذه المعلومات، والطريقة التي تتمُّ بها معالجة المعلومات). لذا هو يُؤكِّدُ علىٰ حقيقةِ أنَّ (الجينَ ليس سوىٰ مجموعة من التَّعليماتِ التَّشفيرية، مع وصفةٍ دقيقةٍ لتصنيعِ البروتينات). الأهمُّ من ذلك، أنَّ هذه التَّعليمات الوراثية ليست من نوعِ المعلومات التي تجدُها في الديناميكا الحرارية والميكانيكا الإحصائية؛ وإنَّما هي تُشكِّلُ معلومات دلالية (semantic information). بعبارةٍ أُخرىٰ: لديها معنىٰ مُحدَّد. هذه التَّعليمات يمكن أنْ تكون فعَّالةً فقط في بيئةٍ جُزيئيةٍ قادرة علىٰ تأويلِ المعنىٰ بالشَّفرةِ الوراثية. عندها يبرُزُ السُّؤالُ الأصلي إلىٰ الواجهة، وهو (مشكلة كيف يمكن للمعلوماتِ ذات المعنىٰ أو الدَّلالة أنْ تنبثِقَ بصورةٍ فوريةٍ من مجموعةٍ من الجُزيئات غير العاقلة الخاضعة لقوىٰ عمياء فاقدة للهدف، تُمثِّلُ تحدِّيًا تصوُّريًّا عميقًا)[1].

* * *

(١) Paul Davies, "The Origin of Life II: How Did It Begin?" http://aca. mq.edu.au/ PaulDavies/ publications/papers/OriginsOfLife_II.pdf.

الرُّؤية من خلالِ زُجاجٍ مُعتِم

(THROUGH A GLASS DARKLY)

إنَّه من الصَّحيحِ أنَّ لدىٰ علماء الأحياء البكتيرية نظريات تطوُّر تُفسِّر نشأةَ المادَّة الأُولىٰ، لكنَّهم يتعاملون مع مقولةٍ مختلفةٍ من المشكلة. إنَّهم يتعاملونَ مع التَّفاعُل الدَّاخلي للموادِّ الكيميائية، في حين أنَّ أسئلتَنا هي عن الكيفيةِ التي يكون بها شيءٌ ما مَسُوقاً نحوَ غايةٍ نهائية؟ كيف يمكن للمادَّةِ أنْ تُدارَ بواسطةِ آليةٍ رمزية؟ لكن حتَّىٰ علىٰ المستوىٰ الخاصّ بهم، فإنَّ علماءَ الأحياء البكتيرية ما زالوا بعيدينَ جدَّاً عن الظَّفرِ بجوابٍ مُحدَّدٍ عن هذه الأسئلة. هذا الموضوعُ تمَّ تسليطُ الضَّوءِ عليه بواسطةِ اثنين من أعلامِ الباحثين في أصلِ الحياة.

أندي نول (Andy Knoll)، وهو أُستاذُ عِلْم الأحياء في جامعةِ هارفارد ومؤلِّفُ كتاب (الحياةُ علىٰ كوكبٍ ناشئ: أوَّلُ ثلاثة مليار سنة من الحياة Life on a Young Planet: The First Three Billion Years of Life)، يقول:

(إذا حاولنا تلخيصَ ما نعرِفُهُ عن التاريخِ العميقِ للحياةِ علىٰ الأرض، عن أصلِها، عن مراحِلِها المُتعدِّدة التي هيَّأتْ فُرصاً لنشأةِ الأحياء التي نراها حولَنا اليوم، فأعتقدُ أنَّ علينا الاعترافَ بأنَّنا ننظُرُ هنا من خلالِ زُجاجٍ مُعتِم. نحنُ لا نعرفُ كيف بدأت الحياةُ علىٰ هذا

الكوكب، ولا نعرفُ متىٰ بدأت الحياةُ علىٰ وجهِ الدِّقَّة، ولا نعرفُ ما هي الظُّروف التي بدأت فيها)[١].

أنتونيو لازكانو (Antonio Lazcano)، رئيسُ الجمعية الدُّولية لدراسةِ أصل الحياة، كتَبَ في أحدِ التقارير قائلاً: (هناك خاصّيةٌ للحياةِ تبقىٰ مؤكَّدة: الحياةُ ما كان لها أنْ تتطوَّرَ من دونِ آليةٍ جينية، آلية يمكنُ من خلالها تخزين ونقل معلوماتها الذرِّية التي يمكن أنْ تتغيَّر بمرورِ الوقت... بنحوٍ دقيقٍ، من غيرِ الواضح كيف تطوَّرت الآلية الجينية الأُولىٰ). ويُكمِل قائلاً: (في الحقيقةِ لن نكونَ قادرينَ علىٰ معرفةِ مسار أصل الحياة بنحوٍ دقيق علىٰ الإطلاق)[٢].

أمَّا بالنِّسبةِ لأصلِ التكاثُر، فإنَّ جون مادوكس (John Maddox)، وهو المُحرِّرُ الفخري لمجلَّةِ (الطَّبيعة Nature) كتَبَ قائلاً: (السُّؤالُ الرَّئيسي هو متىٰ (ثمَّ كيف) تطوَّرَ التكاثُر الجِنْسي بذاتِهِ؟ علىٰ الرَّغمِ من مرورِ عقود من التخمين، ما زلنا لا نعرِف)[٣].

وأخيراً، يُشيرُ العالِمُ جيرالد شرويدر (Gerald Schroeder) إلىٰ أنَّ وجودَ الظُّروف التي كانت لصالحِ نشأة الحياة ما زالت لا تُفسِّر كيف نشأَ أصْلُ الحياة بذاتِهِ. الحياةُ كانت قادرةً علىٰ الاستمرارِ علىٰ الكوكبِ فقط بسببِ توفُّر الظُّروف المناسبة علىٰ كوكبنا. لكن لا يوجدُ قانونٌ في الطَّبيعةِ يأمُرُ المادَّةِ بإنتاجِ كائناتٍ مُوجَّهة نحو غايةٍ (end-directed)، وقابلة للتكاثُر.

---

(١) Andy Knoll, PBS Nova interview, May 3, 2004.

(٢) Antonio Lazcano, “The Origins of Life,” Natural History (February 2006).

(٣) John Maddox, What Remains to Be Discovered (New York: Touchstone, 1998), 252.

إذن كيف نُفسِّرُ أصلَ الحياة؟ الحائزُ علىٰ جائزةِ نوبل في عِلْمِ الوظائف، جورج والد (George Wald)، شاعَ أنَّه قالَ مجادلاً: (لقد اخترْنا أنْ نُصدِّقَ المستحيل: أنَّ الحياةَ نشأت فجأةً عن طريقِ الصُّدْفة). وفي سنواتٍ لاحقة، خَلَصَ جورج والد إلىٰ أنَّ العقلَ الأزلي، الذي سمَّاهُ مصفوفة الواقعية الفيزيائية (matrix of physical reality) التي يتكوَّن منها الكون، هو الذي وهبَ الحياة:

(كيفَ ذلكَ وهناك احتمالاتٌ أُخرىٰ، إنَّنا في كونٍ يمتلِكُ خصائصَ مميَّزة غريبة هي التي وهبَت الحياة؟ يجبُ عليَّ أنْ أعترِفَ أنَّه بدا لي في الآونةِ الأخيرة أنَّ كلا السُّؤالينِ من وادٍ واحد. هذا علىٰ فَرْضِ أنَّ العقلَ، وبدلاً من أنْ يكونَ قد تطوَّرَ من خلالِ الحياة، كان موجوداً علىٰ الدَّوام علىٰ شكلِ مصفوفةٍ (matrix) تُمثِّلُ مصدرَ الواقعية الفيزيائية، بحيث أنَّ مُكوِّنات الواقعية الفيزيائية هي مُكوِّنات عقلية. إنَّه العقل الذي احتوىٰ الكون الفيزيائي، وهو الذي وهبَ الحياة، وفي النِّهايةِ من خلالِهِ تطوَّرت المخلوقاتُ التي تعرِفُ وتصْنَع: العِلْمَ والفنَّ والتكنولوجيا)[1].

هذه هي أيضاً الخلاصةُ التي أنتهي إليها. إنَّ التَّفسيرَ المَرْضيَّ الوحيد لأصلِ حياةٍ كهذه، (مُوجَّهةَ الغاية، قابلةً للتكاثُر) كما نرىٰ علىٰ الأرضِ، هو العقلُ الذَّكيُّ اللَّامتناهي.

❊ ❊ ❊

---

(١) George Wald, “Life and Mind in the Universe,” in Cosmos, Bios, Theos, ed. Henry Margenau and Roy Abraham Varghese (La Salle, IL: Open Court, 1992), 218.

الفصل الثامن:

هل جاءَ شيءٌ ما من لا شيء؟

DID SOMETHING
COME FROM NOTHING?

في أحدِ المشاهد الأخيرة من فيلْم (صوتُ الموسيقىٰ The Sound of Music)، أخيراً اعترَفَتْ ماريَّا (الذي لعبَتْ دورُها جولي أندرو) وكابتن فون تراب (الذي لعَبَ دورُهُ كريستوفر بلومر)، اعترفَ كلٌّ منهما بحُبِّهِ للآخر. كلٌّ منهما كان متفاجئاً بحُبِّ الآخر له، وتساءَلا معاً كيف حَدَثَ هذا الحُبُّ. لكن كان يبدُو أنَّهما علىٰ ثقةٍ أنَّ الحبَّ جاءَ من مكانٍ ما. وأخذا يُغنِّيان:

(ليس هناك شيءٌ يأتي من لا شيء، لا شيءٌ يمكنُهُ ذلكَ أبداً)[١].

ولكن هل هذا صحيح؟ أم أنَّ من الممكنِ أنْ يأتيَ شيءٌ ما من لا شيء؟ وكيف يمكن أنْ يُؤثِّرَ هذا السُّؤال علىٰ فهمِنا للكيفيةِ التي جاءَ بها الكونُ للوجود؟

هذا هو موضوعُ البحث العلمي الملتزم في مجالِ الكونيات، وكذلك فيما يخُصُّ الحُجَّة الكونية في الفَلْسفة[٢]. في كتابِ (فرضية الإلحاد)، عرَّفْتُ الحُجَّةَ الكونيةَ بأنَّها تلك التي تبدأُ من الادِّعاءِ بأنَّ الكونَ موجودٌ. وأقصُدُ بالكونِ، كائنٌ أو كائناتٌ تسبَّبَ بوجودِها موجودٌ آخر (أو ذاكَ الذي يمكن أنْ يكونَ سبباً لوجودِ بقيَّة الكائنات).

* * *

(١) “Something Good,” music and lyrics by Richard Rodgers, 1965.

(٢) مرَّ في تعليقٍ سابق، أنَّ هذه الحُجَّة تناظر في أدبياتنا الفلسفية دليل الحدوث، ودليل الحركة، ودليل الإمكان. (المراجع).

الكون النِّهائي[1]

(THE ULTIMATE UNIVERSE)

فِي كتابِ (فرضية الإلحاد) والكتاباتِ الإلحادية الأُخرىٰ، جادلْتُ بأنَّ علينا أنْ نأخُذَ الكونَ نفسَهُ وأكثرَ قوانينِهِ الأساسية بذاتِها بوصفِها أُموراً نهائية. كلُّ نظام تفسيرٍ يجب أنْ يبدأَ من نقطةٍ ما، ونقطةُ البدايةِ هذه لا يمكنُ تفسيرُها من خلالِ النظام. لذلك، لا محالة، كلُّ الأنظمة التي تكونُ من هذا القبيل، تشتملُ علىٰ بعضِ الأُمور النِّهائية علىٰ الأقلِّ، التي لا يمكنُ تفسيرُها في حدِّ ذاتِها. هذه النتيجةُ تأتي من الطَّبيعةِ الأساسيةِ للتَّفسيرات المتعلِّقة بالسُّؤال: لماذا يوجدُ شيءٌ ما في الواقعِ علىٰ الحالةِ التي هو عليها؟

لنفترض، علىٰ سبيلِ المثال، أنَّنا لاحَظْنا أنَّ الطَّلاءَ الأبيضَ الجديد الموجود فوق الموقِد أصبحَ لونُهُ بُنِّياً مُتَّسِخاً. وبعد أنْ بحَثْنا، اكتشفنا أنَّ هذا ما يحدُثُ دائماً في هذا النوعِ من المواقِدِ مع هذا النوعِ من الطَّلاء.

---

(١) (النِّهائي) هنا يوازي ما نُعبِّر عنه في عِلْم المنطق بـ (الذَّاتي)، فكما أنَّ الذَّاتي لا يُعلَّل، كذلك هو النِّهائي، فهو الأمرُ الأساسيُّ والأوَّلي، الذي لا يمكن ردُّهُ إلىٰ شيءٍ آخر. فمثلاً لو سألتُكَ: لماذا الجدارُ أبيض؟ فقد تقول: لأنَّه مصبوغٌ بصُبْغٍ أبيض. لكن لو سألتُكَ: لماذا البياضُ أبيضٌ؟ فقد تقول: لأنَّه أبيض، فصفةُ البياضِ بالنسبةِ للَّون الأبيض ذاتية، والذَّاتي لا يُعلَّل. وقُلْ الأمرَ نفسَهُ فيما لو سألتُكَ: لماذا السُّكَّر حلوٌ؟ لماذا اللَّيمون حامضٌ؟ لماذا المِلْحُ مالحٌ؟ لماذا الإنسانُ ناطقٌ؟ لماذا الفرسُ صاهلٌ؟ لماذا الحمارُ ناهقٌ... الخ. هذه كلُّها صفات ذاتية، ونهائية، لا يمكن إرجاعُها لشيءٍ آخر، أي لا يمكن تفسيرُها وتعليلُها علىٰ ضوءِ شيءٍ آخر. (المراجع).

وتقدَّمنا خطوةً ثانيةً في معرفةِ السَّبب، فعلِمْنا أنَّ هذه الظَّاهرةَ لا بدَّ أنْ تُفسَّرَ عن طريقِ اطِّراداتٍ أوسعَ وأعمقَ لتركيبٍ كيميائي، فحين يتفاعلُ الكبريتُ المتصاعدُ من لهَبِ الموقِد مع شيءٍ ما في الطَّلاء، فإنَّه يعملُ علىٰ تكوينِ مركَّبٍ كيميائي، وأنَّ هذا هو السَّببُ في تغيُّرِ لونِ الطَّلاء. وبعد البحثِ أكثر، اكتشفنا وجودَ قذارةٍ في مطبخِنا، كواحدةٍ من النَّتائجِ التي لا تُعَدُّ ولا تُحصىٰ المترتِّبة علىٰ نظريةِ الذرِّيةِ - الجُزيئية (atomic-molecular theory) لبُنْيةِ المادَّة. هذا هو الحالُ في عمليةِ التَّفسير، لا بدَّ أنْ تفترِضَ بعضَ الأشياء كحقائِقَ ذاتيَّة، وهذا هو حالُ الأشياء.

في مناظراتي مع المعتقدينَ بوجودِ إله، شاهَدْتُ كيف أنَّهم يصلونَ إلىٰ هذه المرحلةِ التي لا مفرَّ منها. مهما فكَّرَ المُوحِّدونَ، في تفسيرِ شيءٍ ما، من خلالِ إرجاعِهِ إلىٰ وجودِ وطبيعةِ الإله، فلا يُمكِنُهُم تفادي أخذ تلك الحقيقة بوصفِها نهائية وتتجاوز التَّفسير[1]. ولا يُمكِنُني رؤية كيف يمكن لشيءٍ ما أنْ يُعرَفَ ضِمْنَ كونِنا، أو يُحدَس بنحوٍ معقول، بوصفِهِ يُشيرُ إلىٰ واقعيةٍ ما متعالية، تقبَعُ خَلْفَ أو فوقَ أو تتجاوز ذلك الشَّيء. إذن لماذا لا نأخُذُ الكون ومعظَمَ معالِمِهِ الأساسية بوصفِها حقيقة نهائية[2].

---

(١) أي لا يمكن للمؤمنين بالإله إنكار أنَّ هناك أُموراً ذاتية للأشياء، لا يمكن الاستمرار في التراجُع في تفسيرِها إلىٰ ما لا نهاية، بل لا بدَّ من التوقُّفِ عند نقطة معيَّنة، وهي نقطة كون تلك الصِّفة ذاتية لذلك الشَّيء. (المراجع).

(٢) بعبارةٍ أُخرىٰ: يريد (فلو) هنا القول بأنَّه عندما كان مُلْحداً كان يثيرُ تساؤلاً أمام المؤمنين بالإله، مفادُهُ أنَّ الكونَ إنْ كان يُمثِّلُ منظومةً ذاتية، والأشياء فيه تنطوي علىٰ صفاتٍ ذاتية، فلماذا لا نقول: إنَّ الذَّاتي لا يُعلَّل، وهذا يكفينا مؤونة الإيمان بإله؟ أي دون أنْ نُعلِّل الكونَ بإله، وهكذا ننتهي من الأمر! وهذا الموقف إنْ كان مفهوماً من الناحيةِ الفلسفية للوهلةِ الأُولىٰ، فإنَّ التطوُّرات العِلْمية في مجالِ الفيزياء الكونية، دفعتْهُ لإعادةِ النظر في هذا الموقف. (المراجع).

الآن، معظَمُ نقاشاتي التي عرضْتُ لها فيما سبق كانت مستقلَّةً عن التطوُّرات الحادثة في مجالِ الكونيات. في الحقيقةِ، اثنين من كُتُبي الرَّئيسيةِ المُضادَّة للَّاهوت كتبْتُهُما قبلَ وقتٍ طويلٍ من ظهورِ نظرية الانفجار الكوني الكبير، أو قبلَ عرْض حُجَّة التوافُق الدَّقيق (fine-tuning argument) المنبثقة من الثوابتِ الفيزيائية (physical constants). لكن مع بدايةِ الثَّمانينات من القَرْنِ الماضي، بدأتُ بإعادةِ النَّظَر في كلا الفكرتين[1]. وقد اعترفْتُ آنذاك بأنَّ علىٰ المُلْحدينَ أنْ يشعُرُوا بالإحباطِ من الإحصاءاتِ الكونيةِ الحديثة، حيثُ بدا أنَّ علماءَ الكونيات يُقدِّمونَ الدَّليلَ العِلْمي علىٰ ما كافَحَ القدِّيس توما الأكويني لإثباتِه مع صعوبةِ إثباتِه فَلْسفياً، أعني أنَّ للكونِ بداية.

* * *

(١) الفكرة الأُولىٰ: هل للكونِ بداية؟ حيث أكَّدت نظريةُ الانفجار الكوني الكبير أنَّ للكونِ بداية، وهذا يفسَحُ المجال للتَّساؤل عن سببِ ذاتية منظومة الكون، أو سبب ذاتية بعض الصفات للأشياء، الأمر الذي يُعيدُ الإلهَ إلىٰ الواجهةِ من جديد، بوصفهِ هو السَّبَب الأوَّل.

والفكرة الثانية: التوافُق الدَّقيق في الكون هل هو دالٌّ علىٰ وجودِ إله أم أنَّه يُعبِّر عن قوانين وصفات ذاتية في الكونِ والأشياء؟ حيث أكَّدَت الثوابت الفيزيائية علىٰ وجودِ توافُقٍ ونَظْم دقيقٍ مذهل، لا يكفي فيه القول بأنَّ منظومةَ الكون ذاتية، وصفاتَ الأشياء فيه ذاتية، بل هذا التوافُق والنَّظْم بحدِّ ذاتهِ بحاجةٍ إلىٰ تفسير. (المراجع).

في البداية

(IN THE BEGINNING)

عندما تعرَّفْتُ كمُلْحدٍ علىٰ نظريةِ الانفجار الكبير، بدا لي أنَّها أحدثَتْ فارقاً كبيراً، لأنَّها تقولُ بأنَّ للكونِ بداية، وأوَّلُ جُملةٍ في سِفْرِ التكوين[1]: (فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)، كانت مرتبطةً بحَدَثٍ في الكون.

طالما أنَّ الكونَ يمكن أنْ لا يكون بلا نهاية فحَسْب، بل بلا بداية أيضاً، فيبقىٰ من السَّهلِ أنْ ترىٰ وجودَهُ (ومعظمَ معالِمِهِ الرَّئيسية) كحقائِقَ ذاتية[2]. وإذا لم يكن هناك أيُّ سببٍ يدعو للاعتقادِ بأنَّ للكونِ بداية، فإنَّه لا حاجةَ لافتراضِ وجودِ شيءٍ ما خلَقَ كلَّ شيءٍ كمُصادرة.

ولكن نظريةُ الانفجار الكبير غيَّرَت كلَّ شيء. فإذا كان للكونِ بداية، فإنَّه يصبحُ من المشروعِ تماماً، بل لا مفرَّ من إثارةِ السُّؤال عن الذي أنتَجَ هذه البداية. وهذا ما يُغيِّرُ الوضعَ بشكلٍ كامل.

---

(١) من الكتاب المُقدَّس، في العهد القديم. وسفر التكوين هو السفر الأوَّل منه. (المراجع).

(٢) يقصد (فلو) أنَّنا لو تصوَّرنا أنَّ الكون لا بداية له، ولا نهاية له، فيصبح من السَّهلِ تصوُّر أنَّه - بما يتضمَّن من أحداثٍ وقوانين - يُمثِّل منظومة ذاتية، ليست بحاجة لُمسبِّبٍ أوَّل. لكن عندما تُثبِتُ الفيزياء الكونية أنَّ للكونِ بداية، فهنا يتغيَّر الأمرُ برُمَّتهِ. (المراجع).

وفي نفسِ الوقت، توقَّعتُ أنَّ الملحدينَ سوف يرونَ أنَّ فكرةَ الانفجار الكبير تتطلَّبُ تفسيراً فيزيائياً، وهو ما قد لا يكونُ مُتاحاً للبشر. ولكن أعترفُ أيضاً بأنَّ المعتقدينَ بالإلهِ يمكن أنْ يُرحِّبوا، بنحوٍ مُوازٍ معقول، بفكرةِ الانفجار الكبير باعتبارِها تميلُ لتأكيدِ اعتقادِهِم المُسْبق بأنَّ الكونَ في (البدءِ) كان قد خُلِقَ بواسطةِ الإله.

يبدو أنَّ علماءَ الكونيات المعاصرين مرتبكون كما هو حالُ المُلْحدين، في إمكانيةِ أنْ تتضمَّنَ اكتشافاتُهُم نتائجَ لاهوتية. وكنتيجةٍ لذلك، ابتكروا طُرُقاً للهُروبِ تُحافِظُ علىٰ الوضعِ اللَّاإيماني القائم. هذه الطُّرُق تضمَّنَت فكرةَ الأكوان المُتعدِّدة، أي العدد الهائل من الأكوان الذي نشأَ من أحداثٍ مُتقلِّبة من الفراغِ اللانهائي، أو ما يُسمَّىٰ بـ (الكون المكتفي بذاتِهِ) حَسْبَ تعبير ستيفن هوكِنج.

❊ ❊ ❊

إلى أنْ تحين البداية

(UNTIL A BEGINNING COMES ALONG)

كما ذكرتُ سابقاً، لم أجِد فكرةَ الأكوان المُتعدِّدة مفيدةً. وقُلْتُ أيضاً أنَّ التعاطي مع فرضيةِ الأكوان المُتعدِّدة كمُصادرةٍ هو بحَقٍّ بديلٌ بائس. إذا كان وجودُ كونٍ واحدٍ يحتاجُ إلىٰ تفسير، فإنَّ وجودَ أكوانٍ يحتاجُ إلىٰ تفسيرٍ أكبرَ بكثير، وعندها يتضاعفُ حجمُ المشكلةِ بمقدارِ عدد الأكوان الكُلِّي. هذا الوضعُ يبدو مثلُ طفلٍ صغيرٍ لا يُصدِّق مُعلِّمُهُ ادِّعاءَهُ بأنَّ الكلبَ أكلَ كُرَّاسةَ واجبِهِ المَدْرسي، فيستبدلُ ذلك بالادِّعاءِ بأنَّ مجموعةً من الكلابِ أكلت كُرَّاسةَ واجبِهِ.

ستيفن هوكِنج أخذَ اتِّجاهاً آخر في كتابِهِ (تاريخٌ موجزٌ للزَّمان). فقد كتَبَ هوكِنج قائلاً: (إنْ كان للكونِ بداية، فبإمكاننا أنْ نفترضَ أنَّ له خالقاً. ولكن إنْ كان الكونُ في الواقعِ مكتفياً بذاتِهِ ولا حدودَ له، فلن يكون له بداية ولا نهاية، فهو موجودٌ وانتهىٰ الأمر. إذن هل بقيَ مكانٌ للخالِق؟)[1].

في عرضي للكتابِ بعدما تمَّ نشرُهُ، أشرتُ إلىٰ أنَّ الاقتراحَ المُتضمَّن في نهايةِ السُّؤال لن يساعد إلَّا في اللُّجوءِ إلىٰ غيرِ الإلهي. وتناسُقاً مع هذه الخاتمة، قُلْتُ: الذين ليسوا من علماءِ الفيزياء النظرية،

(١) Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 174.

سيكونونَ مجبرينَ علىٰ أنْ يرُدُّوا مثل بعض الشَّخصيات في مُسَلْسل برودواي (مُسَلْسل فكاهي): (إنْ لم يكن الانفجارُ الكبير هو البداية، فإنَّه سيظلُّ كذلك علىٰ الأقلِّ حتَّىٰ تظهرَ بدايةٌ أُخرىٰ). بدا علىٰ هوكِنج علىٰ الأقلِّ شيءٌ من التعاطفِ مع هذا الرَّدِّ، حيثُ قال: (إنَّ تمدُّدَ الكونِ لا يمنعُ من وجودِ خالِق، لكن سوف يزيدُ فقط من الوقتِ اللازمِ لإنجازِ عملِهِ)[(١)].

كتَبَ هوكِنج أيضاً قائلاً: (يمكنُ للمرءِ أنْ يقولَ: إنَّ الزَّمانَ له بداية عند الانفجار الكبير، بمعنىٰ أنَّ الأزمنةَ السَّابقة عليه هي ببساطة ممَّا لا يمكن أنْ يُعرَّف)[(٢)].

استنتجتُ من هذا النقاش أنَّه حتَّىٰ لو اتَّفقنا علىٰ أنَّ الكونَ بدأَ مع الانفجارِ الكبير، فإنَّ الفيزياءَ يجبُ أنْ تظلَّ رغمَ ذلك لاأدرية بشكل قاطع، فمن المستحيلِ من الناحيةِ الفيزيائية اكتشافُ من الذي سبَّبَ الانفجارَ الكبير.

من المؤكَّدِ أنَّ الإيحاءَ بكونٍ مُتغيِّر باستمرار في مقابل كونٍ ثابتٍ خامل إلىٰ الأبد يُحدِثُ فارقاً في المناقشة. لكن المغزىٰ من القصَّةِ في نهايةِ المطاف هو أنَّ المواضيعَ المطروحة هي مواضيعُ فَلْسفية وليست عِلْمية. وهذا ما يُعيدُنا إلىٰ الحُجَّةِ الكونية.

* * *

---

(١) Antony Flew, "Stephen Hawking and the Mind of God" (**1996**), http://www.infidels.org/library/modern/antony_fl ew/hawking.html.

(٢) Hawking, A Brief History of Time, **9**.

شيءٌ ما أكبر من أنْ يُفسِّرهُ العلْم
(SOMETHING TOO BIG FOR SCIENCE TO EXPLAIN)

الناقدُ الفَلْسفي الأساسي للحُجَّةِ الكونية علىٰ وجودِ الإله كان هو ديفيد هيوم. وعلىٰ الرَّغمِ من أنَّني اتَّفقتُ مع حُجَجِ هيوم في كُتُبي السَّابقة، إلَّا أنَّني بدأتُ في التَّعبيرِ عن شُكوكي حولَ منهجِهِ. علىٰ سبيلِ المثال، كُنْتُ قد أشرْتُ في مقالٍ، في كتابٍ تذكاريٍّ للفيلسوف تيرينس بينلهم (Terence Penelhum)، أنَّ بعضَ الفرضيَّات المُسْبقة في تفكيرِ هيوم أسفرت عن أخطاءٍ قاتلة. هذه الأخطاء تشمَلُ أُطروحتَهُ في أنَّ ما نُسمِّيهِ (أسباباً) ليس سوىٰ نوع من (تداعي المعاني) أو الافتقار لمثلِ هذا التداعي. قُلْتُ: إنَّ أصلَ - أو علىٰ الأقلِّ التحقُّق من صلاحيةِ - تصوّراتنا السَّببية، والأُسسَ التي يُفترَضُ أنْ تُبْنىٰ عليها معارفُنا السَّببية، تستندُ إلىٰ وفرةِ وتكرارِ النَّشاط التَّجريبي لمخلوقاتٍ مكوَّنةٍ من لحمٍ ودم، تعمَلُ في عالَمِ العقل - المستقلّ (mind-independent world) (كتجربة محاولة سحب ودفع أشياء، والنَّجاح في سحبٍ أو دفعِ بعضها وعدم النجاح مع بعضها الآخر، وتجربة التَّساؤل (ماذا سيحدُث لو؟)، وماذا عن التَّجريب؟ وبالتالي الاكتشاف من خلالِ التجربة (ماذا يحدُثُ عندما؟)). إنَّنا كفاعلين نتعرَّفُ ونُطبِّقُ ونُصحِّحُ فكرةَ السَّبَب والمُسبَّب ونُحدِّدُ ماذا نعني بالضَّروري والمستحيل. توصَّلْتُ في النِّهايةِ إلىٰ أنَّ

محاولـةَ هيـوم الخيالية لـن تُـوفِّرَ لنـا بوصـلةً لتحديـدِ معنـىٰ (السَّـبب) و(قوانين الطَّبيعة))[١].

ولكـن في كتـابِ ديفيـد كونـواي (إعـادةُ اكتشـاف الحكمـة)، وطبعـة عـام (٢٠٠٤م) مـن كتـابِ ريتشـارد سـوينْبيرن (وجـودُ الإلـه)، وجـدْتُ ردوداً شـافيةً عـلىٰ نقـدِ هيـوم (وكانـت) للحُجَّـةِ الكونيـة. تنـاولَ كونـواي بشكلٍ منهجيٍّ كلَّ اعتراضات هيـوم. عـلىٰ سـبيلِ المثـال: اعتقـدَ هيـوم أنَّـه لا يوجـدُ سـببٌ لوجـودِ أيِّ سِلْسـلةٍ مـن الكائنـاتِ المادِّيـة وراءَ مجمـوع كـلِّ عضـوٍ مـن أعضـاءِ هـذه السِّلْسـلة. إذا كانـت هنـاك سِلْسـلة لا بدايـةَ لهـا لكائناتٍ غير ضرورية الوجود، فإنَّ ذلك يُعَدُّ سبباً كافياً للكونِ ككُلٍّ[٢].

رفضَ كونـواي هـذا الاعـتراض عـلىٰ أسـاسِ أنَّ (التَّفسـيرات السَّـببية لأجـزاءِ أيِّ كُـلٍّ مـن هـذا القبيـل بلُغـةِ الأجـزاء الأُخـرىٰ، لا يمكـن أنْ تُضـيفَ شـيئاً إلىٰ تفسـيرٍ سـببيٍّ للكُـلِّ، إذا كانـت المفـرداتُ المـذكورة

---

(١) Antony Flew, “The Legitimation of Factual Necessity,” in Faith, Scepticism and Personal Identity, ed. J. J. MacIntosh and H. A. Meynell (Alberta: University of Calgary Press, **1994**), **111 – 17**.

(٢) هيوم استـهدفَ التَّشـكيك بأصـل وجـود سِلْسـلة سـببية في حـوادثِ الكـون، لأنَّ مـا يقـع في الكون من حـوادث إنَّـما هـو - في نظـرهِ - حـوادث متعاقبـة يـلي بعضُـها بعضـاً، دون الحاجـة لافـتراضِ روابـط سـببية فـيما بينهـا، وإنَّـما الـذهن هـو الـذي يُسـقِط مفهـومَ السـببية عـلىٰ الخـارج، لمـا يحدُثُ فيـه مـن تـداعٍ للمعـاني. ولـو افترضـنا جـدلاً وجـود سِلْسـلة، فـإنَّ افتراضَ أنْ لا بدايةَ لها (أي أنَّ الكونَ لا بدايةَ له)، هو سببٌ كافٍ للكونِ ككُلٍّ.

(فلـو) بـدورهِ رَفَـضَ هنـا مفهـوم هيـوم في السـببية، كـما انتقـد فكـرة التسلسـل. وقـد تنـاول الفلاسـفة المسـلمون التسلسـل منـذ قـرون، وأثبتـوا بطلانـه بعشـرة أدلَّـة، كـما مـرَّ في تعليـقٍ سابق. (المراجع).

كأسبابٍ هي مفرداتٌ يحتاجُ وجودُها بحدِّ ذاتِهِ إلىٰ تفسيرٍ سببي)[١]. لذا، علىٰ سبيلِ المثال: افترض أنَّ هناك فيروسَ كمبيوتر قادراً علىٰ تكرارِ نفسِهِ في أجهزةِ كمبيوتر متَّصلة بشبكة. حقيقة أنَّ ملايين الكمبيوترات المرتبطة بالشَّبكةِ قد أُصيبت بالفيروس، لا يُفسِّرُ بذاتِهِ وجودَ الفيروس الذي يُكرِّرُ نفسَهُ.

وفيما يتعلَّق بحُجَّةِ هيوم الشَّبيهة، كتَبَ سوينْبيرن: (السِّلْسلةُ اللَّانهائية للكُلِّ لن تُقدِّمَ لنا تفسيراً علىٰ الإطلاق[٢]، لأنَّه لن يكون هناك أسبابٌ من أعضاءِ السِّلْسلة تقعُ خارجَ هذه السِّلْسلة. وفي هذه الحالة، سيكونُ وجودُ الكونِ علىٰ مرِّ الزَّمن اللَّانهائي حقيقةً ذاتيةً مُتعذِّرةَ التَّفسير. سيكونُ هناك تفسيرٌ (بلُغةِ القوانين) للسُّؤال: لماذا يستمرُّ موجودٌ ما بالوجود؟ ولكن ما سيتعذَّر تفسيرُهُ هو استمرارُ وجودِهِ في الزَّمانِ اللَّامتناهي[٣]. وجودُ الكون المادِّي المُعقَّد عبرَ زمنٍ متناهٍ أو لا متناهٍ (أكبرُ بكثير) من قدرةِ العِلْمِ علىٰ التَّفسير)[٤].

* * *

---

(١) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 111 – 12.

(٢) أي إنَّ افتراض اللَّانهائية في السِّلْسلةِ لا يُقدِّم تفسيراً. (المراجع).

(٣) أي افتراض اللَّانهائية سيُبقي العِلْم عاجزاً عن تفسيرِ أصل وجود أيِّ موجود. ما سيتمكَّن العِلْمُ من تفسيرِهِ إنَّما هو آلية استمرار الكائنات في الوجود. علىٰ هذا الأساس، سواءٌ افترضنا اللَّانهائية في بدايةِ سلسلة حوادث الكون، أو افترضنا أنَّ للكونِ بداية، ففي الحالتين، سيظلُّ تفسير أصل وجود الكون ووجود الكائنات فيه يقع خارج نطاق العِلْم، ويتجاوز قدرتَهُ علىٰ التفسير. (المراجع).

(٤) Richard Swinburne, The Existence of God (Oxford: Clarendon, 2004), 142.

الحاجة إلى عاملٍ إبداعي
(THE NEED FOR A CREATIVE FACTOR)

عندما تتِمُّ مواجهةُ نقد هيوم، يصبحُ من الممكنِ تطبيقُ الحُجَّةِ الكونية في سياقِ عِلْم الكونيات المعاصر. يجادلُ سوينْبيرن بأَنَّنا يمكنُ أَنْ نُفسِّرَ الحالات الرَّاهنة (state of affairs) فقط علىٰ ضوءِ حالاتٍ راهنةٍ أُخرىٰ. القوانينُ بحدِّ ذاتِها ليس بمقدورِها تفسيرُ هذه الحالات. كتَبَ سوينْبيرن يقول: (نحنُ بحاجةٍ إلىٰ حالاتٍ راهنةٍ، بالإضافةِ إلىٰ قوانين، لتفسيرِ الأشياء)، (إذا لم يكن لدينا ذلك في بدايةِ الكون، لأَنَّه لم تكن هناك حالاتٌ قبلَ ذلك، فإنَّه لا يُمكِنُنا تفسيرُ بداية الكون)[1]. إذا كان هناك قانونٌ معقولٌ لتفسيرِ بداية الكون، فلا بدَّ أنْ يقولَ لنا شيئاً ما، من قبيل: (الفراغُ المكاني يقودُ بالضَّرورةِ إلىٰ نشأةِ الطَّاقة - المادَّة). وهنا (الفراغُ المكاني) ليس عدماً، وإنَّما (مُفردةٌ قابلةٌ للتَّعريف)، شيءٌ ما وُجِدَ هناك فعلاً. هذا الاعتمادُ علىٰ القوانين للحصولِ علىٰ كونٍ بدأَ من (فراغٍ مكانيٍّ) يطرَحُ أيضاً سؤالاً: كيف أنَّ المادَّةَ - الطَّاقة (matter–energy) نتجت في الزَّمنِ الصِّفْري (t٠)، بدلاً من زمنٍ آخر.

فيلسوفُ العلْم جون ليسلي (John Leslie) أظهرَ أنَّ أيَّاً من التكهُّنات الكونية المألوفة اليوم لا ينفي احتمالَ وجودِ خالِق. وقد تكهَّنَ عددٌ من علماءِ

---

(١) Richard Swinburne, "The Limits of Explanation," in Explanation and Its Limits, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 178 – 79.

الكون بأنَّ الكونَ نشأَ من (العدم). في عامِ (١٩٧٣م)، وضَعَ إدوارد تريون (Edward Tryon) نظريةً مفادُها أنَّ الكونَ كان يتذبْذَب في فراغٍ في مكانٍ أكبر. وجادَلَ ليسلي بأنَّ الطَّاقةَ الكُلِّية للكونِ كانت صِفْراً، لأنَّ الجاذبيةَ التي تُمسِكُ طاقةَ الكون ظهرَت ككميةٍ سَلْبيةٍ في معادلاتِ الفيزياء. باستخدامِ منهجٍ آخر، تكهَّنَ كلٌّ من جيم هارتل (Jim Hartle)، ستيفن هوكِنج (Stephen Hawking)، وأليكس فيلكن (Alex Vilenkin) بأنَّ الكونَ الكمِّي - المتذبذب (quantum-fluctuated) جاءَ إلىٰ الوجودِ (من العدم). (العدمُ) عبارةٌ عن حالاتٍ خاصَّةٍ من الرَّغوةِ الزَّمكانيةِ الفوضوية مع ارتفاعٍ خياليٍّ في كثافةِ الطَّاقة[1]. تكهَّنَ آخرٌ (من هوكِنج) بأنَّ: (الزَّمانَ يصبحُ أكثرَ فأكثرَ مشابهاً للمكانِ في اللَّحظاتِ الأُولىٰ من الانفجارِ الكبير).

ليسْلي لا يعتقدُ أنَّ هذه التكهُّنات ذاتُ صلةٍ بالموضوع، ويقول: (بغضِّ النَّظر عن كيفيةِ وصْفِكَ للكون - باعتبارِهِ موجوداً منذُ الأزل، أو باعتبارِهِ قد انتظَمَ من نقطةٍ خارجَ الزَّمانِ والمكان أو غير ذلك في مكانٍ دونَ زمان، أو أنَّه بدأَ بشكلٍ كمِّيٍّ ضبابيٍّ حيثُ لم تكن هناك نقطةُ بدايةٍ محدَّدة، أو أنَّه نشأَ بطاقةٍ كُلِّيةٍ صِفْرية - فإنَّ الناسَ الذين يرون أنَّ المشكلةَ هي في الحدوثِ التامِّ (لشيءٍ ما بدلاً من لا شيء)، سوف يكونونَ أقلَّ ميلاً إلىٰ الموافقةِ علىٰ أنَّ المشكلةَ قد حُلَّت)[2].

---

(١) من الواضح أنَّ (العدمَ) بالمفهوم الفيزيائي ليس هو (العدم) بالمفهومِ الفَلْسفي. فالعدم بالمفهوم الفَلْسفي لا يمكن أنْ يكون رغوة زمكانية، لأنَّ الرغوة الزمكانية شيءٌ موجودٌ، وإنْ كان فوضوياً لم يتشكَّل بعد. أمَّا العدم فهو عدمٌ وكفىٰ، ولا يمكن الإخبار عنه بالحَمْلِ الشَّائع الصِّناعي، كما تقرَّرَ في فَلْسفة المنطق. (المراجع).

(٢) Richard Swinburne, "The Limits of Explanation," in Explanation and Its Limits, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 178 – 79.

إذا كانت لديكَ معادلـة تحسِـبُ بدقَّـةٍ احـتمالَ نشـوءِ شيءٍ مـن الفـراغ، فإنَّـه سـوف يظـلُّ عليـك أنْ تسـألَ: لمـاذا تنطبـقُ هـذه المعادلـة؟ في الحقيقـةِ، لاحظَ هوكنج الحاجةَ لإدخالِ عاملٍ إبداعيٍّ لإشعالِ فتيل المعادلات[١].

في مقابلةٍ بعد وقـتٍ قصـيرٍ مـن نَشْـرِ كتابِـهِ (تـاريخٌ مـوجزٌ للزَّمـان)، أقرَّ هوكِنج بأنَّ نموذجَـهُ[٢] لم ينطـوِ عـلىٰ أيِّ تـأثيرٍ عـلىٰ مسـألةِ وجـود الإلـه. عندما نقـولُ بـأنَّ قـوانينَ الفيزيـاء حـدَّدَتْ كيـف بـدأَ الكـون، فكأنَّنـا نقـولُ فقـط: إنَّ الإلـهَ لم يختـرَ (أنْ يسـلُكَ الكـونُ بصـورةٍ اعتباطيـة (مزاجيـة) لا يُمكِنُنا فهمُها. ولا تقولُ شـيئاً عـن أنَّ الإلـهَ موجـودٌ أو غـيرُ موجـود - فقـط تقولُ: إنَّه ليس اعتباطياً (مزاجياً))[٣].

* * *

(١) بمعنىٰ أنَّ المعـادلات والقـوانين بوصـفها مجـرَّدة، لا تكفـي بحـدِّ ذاتِهـا لنشـأة الكـون، بـل لا بـدَّ مـن عامـلٍ إبـداعيٍّ (خـالِق) يُشـعِل فتيـلَ الانفجـار الكبـير، لينطلـق الكـونُ في حركتـهِ، وتتجلَّىٰ فيه تطبيقات المعادلات والقوانين. (المراجع).

(٢) أي النَّموذج الفيزيائي الذي اقترحَهُ في مجال الزَّمان. (المراجع).

(٣) John Leslie, Infi nite Minds (Oxford: Clarendon, 2001), 194 – 95.

حُجَّةٌ استقرائيةٌ جيِّدة

(A GOOD C-INDUCTIVE ARGUMENT)

المحاولةُ القديمةُ لتفسيرِ الكون عن طريقِ الإشارة إلىٰ سِلْسلةٍ لا متناهية من الأسباب، قد تمَّ إعادة صياغتها بلُغةِ عِلْم الكونيات الحديث. لكن ليسْلي وَجَدَ أنَّ هذا غيرُ مُرضٍ. لاحظَ ليسْلي أنَّ بعضَ الناس يدَّعونَ بأنَّ وجودَ الكونِ في أيِّ لحظةٍ معطاةٍ، يمكنُ تفسيرُهُ علىٰ أساسِ حقيقة أنَّه قد وُجِدَ في لحظةٍ سابقةٍ وهلُمَّ جرَّاً إلىٰ ما لا نهاية. لذا، هناك علماء فيزياء يعتقدونَ بأنَّ الكونَ قد وُجِدَ عبرَ زمنٍ لا نهائي، إمَّا من خلالِ سلسلةٍ لا نهائيةٍ من الانفجاراتِ والانسحاقات، أو كجُزْءٍ من واقعِ التمدُّد الأبدي الذي أوجَدَ انفجارات كونية كبيرة. في حين أنَّ آخرينَ يقولون: إنَّ الكونَ قد وُجِدَ من ماضٍ محدودٍ بطريقةِ حسابٍ معيَّنة، لكن وُجِدَ عبرَ زمنٍ لا متناهٍ بطريقةِ حسابٍ أُخرىٰ.

ردَّاً علىٰ هذه الآراء، أكَّدَ ليسْلي علىٰ أنَّ (وجودَ سلسلةٍ لا متناهية من الأحداثِ الماضية لا يمكنُ عدُّهُ تفسيراً ذاتياً (أي يُفسِّر ذاتَهُ بذاتِهِ) حينما يتمُّ تفسيرُ كلِّ حادثة من خلال تلك التي تَسْبِقُها). إذا كانت هناك سلسلةٌ لا متناهية من كُتُبِ الهندسة تمَّ استنساخُها ممَّا سبَقَها من كُتُب، فنحنُ بذلك نظلُّ بحاجةٍ إلىٰ إجابةٍ مقنعةٍ لماذا الكُتُبُ موجودةٌ علىٰ النَّحوِ الذي هي عليه؟ (مثلاً كونُها كُتُب هندسة)، أو لماذا الكُتُبُ موجودةٌ بالأساس؟ فالسِّلْسلةُ بأكملِها تحتاجُ إلىٰ تفسير. وأضافَ ليسْلي

قائلاً: (فكِّر في آلـةِ زمـنٍ تُسـافِرُ إلىٰ المـاضي حيـثُ لم يوجـد أحـدٌ صـمَّمَها أو صنعَها. إشكالُ وجود حلْقة زمانيـة مُفسَّـرة ذاتيـاً! حتَّىٰ لـو كـان السَّـفرُ في الزَّمانِ له معنىٰ، فهذا بالتأكيدِ لن يكونَ له معنىٰ)[1].

يُلخِّـصُ ريتشــارد سـوينْبيرن (Richard Swinburne) عرْضَـهُ للحُجَّـةِ الكونيـةِ بـالقول: (هنـاك فرصـةٌ جدِّيـةٌ بـأنَّ الإلـهَ إذا كـان موجـوداً، فإنَّـه سيخلُقُ تعقيدَ الكونِ ومحدوديتِهِ. إنَّـه مـن غـيرِ المُـرجَّح أنْ يكـونَ الكـونُ قـد وُجِدَ بلا سبب، لكن في المقابلِ مـن المُـرجَّحِ جـدَّاً أنَّ الإلـهَ وُجِـدَ بـلا سـبب. ولذلك فإنَّ حُجَّةَ وجـود الكـون سـوف تُحيـلُ إلىٰ وجـودِ الإلـه بنـوعٍ جديـدٍ مـن أنـواعِ الاسـتقراء)[2]. في نقـاشٍ جـرىٰ حـديثاً مـع سـوينْبيرن، لاحظْـتُ أنَّ شرْحَـهُ للحُجَّـةِ الكونيـةِ يبـدو صـحيحاً بطريقـةٍ أساسـية. بعـضُ معـالمِ الحُجَّـة بحاجـةٍ إلىٰ تعـديل، لكـن الكـونُ بـأمسِّ الحاجـةِ إلىٰ تفسـير. حُجَّـةُ ريتشـارد سـوينْبيرن الكونيـة تُـوفِّرُ تفسـيراً واعِـداً، ولعلَّـهُ في النِّهايـةِ أصـحُّ التَّفسيرات.

* * *

(١) Leslie, Infi nite Minds, **193 – 94.**

(٢) Swinburne, The Existence of God, **152.**

الفصل التاسع:

إيجادُ مساحةٍ للإله

FINDING SPACE FOR GOD

إنَّه عملُ شكسبير. في المَشْهدِ الأوَّل من مسرحيةِ ماكْبِث (Macbeth)، إحدىٰ أشهر مسرحيات شكسبير، يواجهُ ماكبث وبانكو (Banquo)، وهما اثنان من الجنرالات في الجيشِ الملكي، ثلاثاً من السَّاحرات. السَّاحراتُ يتحدَّثنَ إليهما ثمَّ يختفين. يقولُ بانكو: (الأرضُ لها فقاعات، كما للسماءِ فقاعات، وهذه هي من تلك الفقاعات، أين اختفين؟).

يرُدُّ ماكبث: (في الهواءِ، ما بدا لك أنَّه جَسَدٌ تبخَّرَ كالهواءِ في الرِّيح).

إنَّه مسرحٌ ترفيهيٌّ وأدبٌ جميل. ولكن رغمَ أنَّ فكرةَ الشَّخص الذي يختفي (كالهواءِ في الرِّيح) نادراً ما تُشكِّلُ مشكلةً لمشاهدي المسرح والأدب، إلَّا أنَّها في السَّابقِ مثَّلت عقبةً حقيقيةً للفلاسفةِ في سعيهم إلىٰ (اتِّباعِ الدَّليل أينما قادَهُم).

* * *

لا يوجد أحدٌ هناك

(THERE'S NO ONE THERE)

في كتـابي (الإلـه والفَلْسـفة)، وفي منشـوراتٍ لاحقـةٍ لـه، جادلْـتُ بـأنَّ تصوُّرَ الإله غيرُ متماسـكٍ، لأنَّـه يفـترضُ مسـبقاً فكـرةَ أنَّ الإلـهَ روحٌ معنويـةٌ حاضرةٌ في كـلِّ مكـانٍ وزمـان. ووجهـةُ نظـري كانـت مباشـرة. (الشَّـخصُ) كما نفهمَهُ بـالمعنىٰ المعتـاد والاسـتعمال الجـاري، هـو مخلـوقٌ مكـوَّنٌ مـن لحـمٍ ودم[1]. وفي هــذا المجــال، تعبـير (شــخصٌ بــلا جســد) يبـدو بــلا معنــىٰ، كقافيةِ الأبيات المنسوبة إلىٰ هفز ميرنز (Hughes Mearns):

وأنا أسيرُ فوقَ الدَّرَج..

قابلْتُ شخصاً لم يكن هناك..

ولم يكن هناكَ اليوم أيضاً..

---

(١) يتحدَّث (فلو) هنـا عـن تصـوُّر (الإلـه الشخصـي)، فـاللهُ وفقـاً للأديـانِ السَّـماوية هـو ذاتٌ لهـا صـفاتٌ معيَّنـة، فهـو يتحـدَّث عـن نفسِـهِ ويقـول: ﴿إِنِّي أَنَـا اللَّهُ ...﴾ [القصـص: ٣٠]، ويَنْسِب لنفسِهِ صفات مطلقـة معيَّنـة، كـالعِلْم والقـدرة والحيـاة، بـل وصـفات يبـدو للوهلـة الأُولىٰ أنَّهـا تتشـابه مـع صـفات البشـر، كالغضـبِ والحُـبِّ والرَّحمـة...، وهـذا هـو المقصـودُ بـ(الإله الشَّخصي).

والسُّؤالُ الذي يُطـرَح هنـا: هـل يمكـن تصـوُّر وتعريـف موجـود لا جَسَـدَ لـه؟ لأنَّ الـذِّهنَ قـد اعتـادَ عـلىٰ تصـوُّر موجـودات محسوسـة تتَّصـف بصـفاتٍ معيَّنـة، ولم يعتـد عـلىٰ تصـوُّر موجود مجرَّد لا جَسَـدَ لـه يتَّصـف بصـفاتٍ كماليـةٍ مطلقـة. وإذا كـان اللهُ مجـرَّداً لا جَسَـدَ لـه، وحاضراً في كـلِّ مكـانٍ وزمـان، إذن كيـف تـتجلَّىٰ إرادتُـهُ وتسـري في هـذا الكـون؟ هـذا مـا يتحدَّث عنه (فلو). (المراجع).

آهٍ كم أتمنَّىٰ أنْ يذهبَ بعيداً..

أنْ تقولَ بأنَّ هناك (شخصاً بلا جسد) يشبهُ كثيراً قولك: (هناك شخصٌ ما ليس موجوداً هناك). إذا أردْنا أنْ نتحدَّثَ عن (شخصٍ بلا جَسَد)، فسنكونُ بحاجةٍ إلىٰ تقديمِ وسائل مناسبة لتعريفِ كلمة (شخص) بطريقةٍ ما جديدة.

الفلاسفةُ المتأخِّرون من أمثال بيتر ستراوسُن (Peter Strawson) وبيدي رانـدِل (Bede Rundle)، استمرُّوا في تطويرِ هذا النَّقد. وفي الآونةِ الأخيرة، وجدْنا نسخةً من هذه الحُجَّةِ في أعمالِ جون غاسْكِن (John Gaskin)، أُستاذُ الفَلْسفة والزَّميل في كلِّيةِ الثالوث بدَبْلِن. فقد كَتَبَ غاسْكِن: (غيابُ جَسَدٍ ما ليس مُبرِّراً واقعياً للشَّكِّ فيما إذا كان الشَّخصُ موجوداً (لا شخصَ هناك)! بل هو أيضاً مُبرِّرٌ للشَّكِّ فيما إذا كان مثلُ هذا الكيان الذي لا جسَدَ له يمكنُ أنْ يكونَ فاعلاً)[1].

هذا النَّقدُ رغمَ صعوبتِهِ، تمَّ الرَّدُّ عليه من قِبَلِ المُوحِّدين. وقد شهدَت الثَّمانينات والتِّسعينات صحوةً للتوحيدِ في أوساطِ الفلاسفة التَّحليليين. قامَ العديدُ من هؤلاءِ المُفكِّرين بدراساتٍ مُطوَّلةٍ عن الصِّفاتِ التَّقليدية التي تُعزىٰ للإلهِ مثلُ الخلود. وقد تصدَّىٰ اثنان من هؤلاءِ المُفكِّرين، وهما توماس تريسي (Thomas Tracy) وبرايان ليفتو (Brian Leftow) للرَّدِّ بطريقةٍ منهجيةٍ دفاعاً عن تماسُكِ فكرة (روح معنوية حاضرة في كلِّ مكانٍ وزمان). ففي حين تناولَ تريسي السُّؤال عن كيفيةِ تعريفِ فاعلٍ لا جَسَدَ له، حاولَ ليفتو أنْ يُبيِّنَ لماذا يجبُ أنْ

(١) John Gaskin, “Gods, Ghosts and Curious Persons,” unpublished paper.

يكـون الإلـهُ خـارجَ المكـانِ والزَّمـان، وكيـف يمكـن أنْ يتصـرَّفَ الكـائنُ الذي لا جَسَدَ له في الكون.

❊ ❊ ❊

كمالُ الفاعِل

(THE PERFECTION OF AGENCY)

في كتابِهِ (الإلهُ والفعـلُ والتجسُّـد) و(الإلـهُ الفاعِـل)، أجـابَ تريســي باستفاضةٍ عن سؤالي: كيف يمكن أنْ يكونَ هناك شخصٌ بـلا جسَـدٍ، وكيـف يمكنُ تعريفُ شخصٍ كهذا. اعتبرَ تريســي أنَّ الأشـخاصَ (سـواءٌ مـن نمـطِ البشـر أو الإله) همُ الفاعلونَ الذي يفعلونَ عن قَصْد (= إرادةٍ تسـتهدفُ غايـةً معيَّنة). وهو يرىٰ شخصَ الإنسان كفاعلٍ عضويٍّ، كجسَـدٍ قـادرٍ علـىٰ الفعـلِ القَصْدي. لكن علىٰ الرَّغمِ مـن أنَّ كـلَّ الفـاعلين المتجسِّـدين (مثـل أشـخاص البشـر) يجب أنْ يكونوا وحدات نفسيَّة (سيكولوجية)، لكن لا يجب أنْ يكـونَ كلُّ الفاعلين متجسِّدين.

لا توجدُ حُجَّةٌ ضدَّ الثُّنائية[1] تُبيِّنُ أنَّ الجسَدَ هـو شرطٌ ضروريٌّ لكينونـةِ الفاعل، طالما أنَّ شرْطَ كينونة الفاعل هو أنْ يكونَ قادراً علىٰ الفعـلِ القَصْـدي.

---

(١) مصطلح (الثنائية) يُعبِّر عن الاتِّجاه الفَلْسفي الـذي يؤكِّـد علىٰ ثنائيـةِ الإنسـان بوصـفِهِ جسـداً وروحاً، أو جسماً ونفساً، أو بدناً وعقلاً... عـبِّر بـما شئت. ويقـع علىٰ رأسِ القـائلين بالثنائيـة الفيلسوفُ الفرنسـي رينيه ديكارت. ويقفُ في النقطة المقابلة المادِّيون المتطرِّفون، الذين يرفضون الاعتراف بأيِّ جانبٍ معنويٍّ يتجاوز جسد الإنسان ودماغِهِ. هذا الموضوع هو من أهمِّ مواضيـع (فَلْسفة الذِّهن). و(فلو) هنا يريد أنْ يقول بأنَّه لا توجد حُجَّة قاطعة تنفي وجـود شيء يتجـاوز الجسد، وبالتالي تدحض الثنائية، حتـىٰ يُقـال: إنَّ الشـخصَ إنْ لم يكـن جسـداً، فـلا وجـودَ لـه كفاعل، حتَّىٰ ينطبق هذا القول في النهايةِ علىٰ الإله وننفي وجودَهُ، لأنَّ المعيـارَ بـاتَ هـو الفعـلُ القَصْدي، وليس وجود جسَد مادِّي للفاعل. (المراجع).

تريسـي يرىٰ أنَّ الإلهَ فاعلٌ وكلُّ أفعالِهِ قَصْدية. عندما تتحدَّثُ عن الإله ككائنٍ شخصـي، فأنتَ تتحدَّثُ عنه بوصفِهِ فاعلاً عن قَصْد. قدرةُ الإلـه عـلىٰ الفعـلِ مُتميِّزة، والأفعالُ التي تُعـزىٰ إلىٰ الإلـهِ لا يمكـنُ مـن حيـثُ المبـدأ أنْ تُنْسَـبَ لفاعلينَ آخرين. علىٰ سبيلِ المثال: الإله عَبْرَ فعلِهِ القصدي، هـو الفاعـلُ الـذي يمنَحُ الوجودَ لكُلِّ الكائناتِ الأُخرىٰ.

لاحـظَ تريســي أنَّ الإلـهَ يمكـنُ تعريفُـهُ عَـبْرَ الـنَّمط الفريـد لطريقـةِ فعلِهِ. (إذا تصوَّرنا الإلـهَ باعتبـارِهِ الفاعـل الكامـل، فسـوف نـرىٰ هـذا الإلـه كفاعـلٍ خـلَّاقٍ لذاتـهِ[1]، تتبـدَّىٰ حياتُـهُ كوحـدةٍ كاملـةٍ مـن القَصْـد، وهـو خـالقُ كـلِّ شيءٍ وعـلىٰ كـلِّ شيءٍ قـدير). أنْ نقـولَ: إنَّ الإلـهَ يُحِـبُّ، فكأنَّنـا نقولُ: إنَّ حُبَّ الإلـهِ يظهَـرُ بطريقـةٍ تكوينيـةٍ في أفعالِـهِ، وهـذه الأفعـالُ تُمثِّـلُ هويَّتَهُ كفاعـل. الإلـهُ فاعـلٌ، لكـن نمـطُ حياتِـهِ وقدرتِـهِ عـلىٰ الفعـلِ تختلـفُ بشكلٍ أساسيٍّ عنَّـا. بـما أنَّ نطـاقَ ومحتـوىٰ فعـل الإلـه مُميَّـز، كـذلكَ سـيكونُ الحـالُ في خاصـيَّةِ حُبِّـهِ وأناتِـهِ وحكمتِـهِ)[2]. هـذا الفهـمُ للأفعـالِ الإلهيـة يمكنُ أنْ يُساعِدَ في إعطاءِ محتـوىٰ لوصـفِنا للإلـهِ بأنَّـه مُحِـبٌّ أو حكـيم، ومـع ذلكَ لا بدَّ أنْ نعترفَ بأنَّ فهمَنا محدودٌ للغاية.

❋ ❋ ❋

---

(١) أقـول: تعـابير مـن قبيـل: (خـلَّاقٌ لذاتـهِ) أو (خـالِقٌ لذاتـهِ) أو (مبـدعٌ لذاتـهِ) أو (موجـد لذاتـهِ) في وصـفِ الله، هـي متهافتـةٌ ولا تسـتقيم. لأنَّ الإلـه لـيس مخلوقـاً أو مبتـدعاً ولـو لذاتـهِ. نعـم هـو خـلاَّقٌ بذاتـهِ، خـالقٌ بذاتـهِ، مبـدعٌ بذاتـهِ، موجـودٌ بذاتـهِ. لكـن التزامـاً بالترجمة الحرفية التزمنا بما هو مذكورٌ أعلاه في المتن. (المراجع).

(٢) Thomas F. Tracy, God, Action and Embodiment (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1984), 147 ,153. See also The God Who Acts, ed. Thomas F. Tracy (University Park: Pennsylvania State University Press, 1994).

التجهيزات الواقعية للعالَم
(THE REAL FURNITURE OF THE WORLD)

برايان ليفتو، وهو حالياً أُستاذٌ بجامعةِ أكسفورد، يُعالِجُ هذه الأفكـار في كتابِهِ (الزَّمان والخُلُود Time and Eternity). في نقاشي معه، أشارَ ليفتو بأنَّ فكرةَ الإله الخارج عن الزَّمانِ والمكان تتوافـقُ مـع نظريـةِ النِّسـبيةِ الخاصَّـة (special relativity)[1]. يقولُ ليفتو: (هناكَ الكثيرُ من الحُجَجِ التـي يمكـنُ أنْ تعرِضَـها لمحاولةِ بيان أنَّ الإلهَ خارج الزَّمان... الشَّـيءُ الذي أثَّرَ عـليَّ أنَّـكَ إذا أخـذْتَ النِّسبيةَ الخاصَّةَ بشكلٍ جادٍّ جدّاً، فستعتقد بأنَّ كلَّ شيءٍ في الزَّمانِ هو في المكـانِ أيضاً. إنَّها مجرَّدُ أبعاد أربعة متَّصلة. ليس ثَمَّة مُوحِّد يُفكِّر أبـداً بـأنَّ الإلـهَ كـان موجوداً في المكانِ هناكَ بالمعنىٰ الحرفي. إذا لم يكن الإلهُ في المكان، وكـلُّ مـن في الزَّمانِ هو في المكان، إذن فالإلهُ ليس في الزَّمان. السُّؤالُ إذن يُصبحُ هكذا: ما هو المعنىٰ الذي يمكنُ تقديمُهُ لكائنٍ يُشبِهُ الشَّخصَ كائنٍ خارجٍ عن الزَّمان؟).

يستمرُّ لفتو بالقول: (حسناً، الكثيرُ من المحمولاتِ الشَّخصية لن تنطبق.

(١) نظرية النسبية الخاصَّة أو نظرية اللَّاتغيّر (the invariant theory) كما كان يُسمّيها أينشتاين، وهي التسمية الأكثر دقَّة، هي (نظرية فيزيائية) للقياس في (إطار مرجعي). اقترحها (ألبرت أينشتاين) عام (١٩٠٥م) كبديل عن نظرية (نيوتن) في (الزمـان والمكـان) لتحـلَّ بشـكل خـاصّ مشـاكل النظرية القديمة فيما يتعلَّق (بالأمواج الكهرومغناطيسية) عامَّة، (والضوء) خاصَّة. وهي تُـدعىٰ (خاصَّة) لأنَّها تعالج حالة خاصَّة تتعلَّق بحركة المراجع (المختـبرات) بالنسـبة لبعضـها الـبعض بسـرعة منتظمة وفي خطٍّ مستقيم.

الإلهُ لا يمكن أنْ ينسىٰ. أنتَ تنسىٰ ما وقَعَ لكَ في الماضي. الإلـهُ لا يكُـفُّ عـن فعلِ شيءٍ ما. أنت تكُفُّ عن فعلِ شيءٍ ما لواقعٍ حَـدَثَ لـك في المـاضي. لكـن هناك محمولاتٌ شخصيةٌ أُخرىٰ لا يبدو أنَّها تُحيلُ بشكلٍ أسـاسيٍّ إلىٰ الزَّمـان - الأشياء، مثلُ العِلْم (knowing)، الذي يمكنُ أنْ يكونَ مجرَّدَ حالةٍ من الاستعداد (أي القابلية) دونَ أنْ يُحيلَ إلىٰ زمان. وسأُجادِلُ بأنَّ القصْـدَ، يمكـن أنْ يكـونَ أيضاً حالةً من الاستعداد بحيث لو كان شيئاً ما قد وقَعَ، لكُنْتَ قد فعلتَ شـيئاً ما. لذا أنا أميلُ إلىٰ الاعتقادِ بأنَّ هنـاك أسـباباً للاعتقـادِ بـأنَّ الإلـهَ هـو خـارجُ الزَّمان. وأيضاً بأنَّنا من الممكنِ أنْ نُقدِّمَ معنىٰ لا يسوقُنا إلىٰ الغوصِ في مستنقعِ الوحل).

السُّؤالُ الثاني الذي تصدَّىٰ له ليفتو كان هو: كيف يمكن أنْ نُقدِّمَ معنـىٰ لروحٍ حاضرةٍ بكُلِّ زمانٍ ومكانٍ، وتقومُ بممارسةِ العمل في المكانِ أو في العالَمِ؟

(إذا كـان الإلـهُ غـيرَ زمـانيٍّ، فـإنَّ أيَّ شيءٍ يفعلُـهُ، سـوف يفعلُـهُ دفعـةً واحدةً[١]. ما كـان لـه أنْ يفعـلَ شـيئاً مـا أوَّلاً ثـمَّ يفعـل الشَّـيءَ الثـاني بعـد ذلك. وإنَّما هـو فعـلٌ واحـدٌ قـد يكـونُ لـه تـأثيرٌ في أزمـانٍ مختلفـة. قـد يريـدُ الإلهُ بـإرادةٍ واحـدةٍ أنْ تُشـرِقَ الشَّـمسُ اليـومَ وأنْ تُشـرِقَ غـداً، وهـذا مـا يُؤثِّرُ علىٰ اليومِ وغداً. مع ذلك، هذا ليس هو السُّؤالُ الأكثر أهمّية.

السُّؤالُ الأكثر أهمّية هـو: كيـف يمكـن أنْ يكـونَ هنـاكَ ارتبـاطٌ سـببيٌّ بـين كـائنٍ لا زمـاني ولا مكـاني وبـين مجمـوعِ الزَّمـان - المكـان[٢]؟ قـدرَتُكَ

(١) يُذكِّرنا هذا بقولهِ تعالىٰ: ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠﴾ (القمر: ٥٠). (المراجع).

(٢) وهـي معضـلة تناولهـا فلاسـفة الإسـلام ببحـثٍ عميـق تحـت عنـوان (ربـط القـديم بالحـادث). اُنظـر: أُصـول الفلسـفة والمـنهج الـواقعي للسـيِّد الطباطبـائي/ تعليـق الشـيخ المطهَّري/ المقالة الحادية عشرة والمقالة الرابعة عشرة. (المراجع).

علىٰ تقديمِ معنىً لـذلك يعتمـدُ إلىٰ حـدٍّ كبـير عـلىٰ نظريَّتِـكَ في السَّـببية[١]. إذا كُنْتَ تعتقد أنَّ تصوُّرَ السَّـبب يسـتبطنُ بشـكلٍ أسـاسيٍّ إحالـةً زمانيـة - كـما لو وقَعَ حدثٌ مـا، تبِعَـهُ حـدَثٌ آخـر، وكانـت بيـنهما علاقـاتٌ معيَّنـة - فـإنَّ هذا المعنىٰ للسَّببِ سـوف يـتمُّ اسـتبعادُهُ[٢]. لكـن هنـاك تحليلاتٌ للسَّـببيةِ لا

(١) وهـذا بالضـبط مـا قدَّمـهُ صـدر الـدين الشـيرازي، عنـدما طـرح نظريَّتـهُ في منـاطِ احتيـاج المعلـول إلىٰ العلَّـة. حيـث بـيَّنَ أنَّ المنـاطَ هـو الفقـرُ الوجـودي، فـالمعلولُ هـو عـين الـرَّبط والتعلُّق بالعلَّة، وليس شيئاً يعرض له الرَّبط والتعلُّق بالعلَّة. (المراجع).

(٢) (فلـو) يريـد أنْ يؤكِّـد عـلىٰ أنَّ المفهـوم المتـداول للسـببية يسـتبطنُ مفهـومَ التعاقـب الزَّمنـي للحوادث، وهذا المفهـوم لـن ينفعنـا في المقـام. فـلا بـدَّ لمفهـومِ السـببية أنْ يُجـرَّدَ عـن الزَّمـان، حتَّـىٰ يُسـتفادَ منـه في فهـم علاقـة الإلـه بالعـالَم، لأنَّ الإلـه خـارج إطـار الزَّمـان. بعبـارةٍ أُخرىٰ: طالما بقيَ مفهومُنـا للسـببية يُحيلُنـا إلىٰ الزَّمـان، فلـن نسـتفيد منـه في فهـمِ علاقـة الإلـه بالعالَم.

وهذا تماماً ما أكَّدَ عليـه فلاسـفتنا، حيـث ميَّـزوا بـين السـببية بمفهومهـا التجريبـي، والسـببية بمفهومهـا العقـلي. وأكَّـدوا عـلىٰ أنَّ السـببية بمفهومهـا العقـلي تُعبِّر عـن علاقـةِ الإيجـاب والضَّـرورة بين ظـاهرتين؛ فـأيُّ ظـاهرتين إحـداهما تـؤثِّر في إيجـادِ الأُخـرىٰ حـتماً، فالظـاهرةُ المـؤثِّرة مـنهما هـي السَّـبب، والظـاهرةُ الموجـودةُ نتيجـةَ ذلـك التـأثير هـي المُسـبَّب. وأمَّـا السـببية بمفهومهـا التجريبـي، فهـي لا تُعـبِّر عـن الإيجـادِ والتـأثيرِ والحتميـةِ والضَّـرورة، لأنَّ هـذه العنـاصر لا تـدخل في نطـاقِ الخـبرة الحسـية، فالسـببية بمفهومهـا التجريبـي لا تعني سوىٰ نـوع معـيَّن مـن التتـابع الزَّمنـي المُطَّـرِد بـين ظـاهرتين. للتفصـيل اُنظـر: الأُسـس المنطقيـة للاسـتقراء لمحمّـد بـاقر الصـدر: ٧٢ و٧٣/ القسـم الثـاني: الاسـتقراء والمـذهب التجريبي/ تحت عنوان: (موقف الاتِّجاه الأوَّل من المشكلة الأُولىٰ والثالثة).

بل يرتقّىٰ (فلو) بعـد قليـل ليقـول بـأنَّ مفهـومَ السـببية مجـرَّدٌ أساسـاً عـن الزمـان، لأنَّـه أوَّليٌّ بـديهي، لا يمكـن تحليلُـهُ وتجريـدُهُ. وهـذا يعنـي أنَّـه يقبـل السـببية بمفهومهـا العقـلي كأساس، ثمَّ يُفسِّـر السـببية بمفهومهـا التجريبـي عـلىٰ ضـوئها. وهـذا الموقـف يشـبه إلىٰ حـدٍّ بعيد موقف فلاسـفتنا الـذين أكَّـدوا عـلىٰ أنَّ السـببية مـن المعقـولاتِ الفَلْسـفية الثانيـة، التـي تُمثِّلُ الهيكلَ العظمي للمعرفة البشرية. (المراجع).

تستبطنُ إحالةً أساسيةً للزَّمان. أنا شخصياً أميلُ إلىٰ فكرةِ أنَّ تصوُّرَ السَّبب في الواقعِ لا تحليلَ له - أي إنَّه مجرَّدُ تصوُّر أوَّلي، والسَّببية بذاتِها هي علاقةٌ أوَّلية. إنَّها جزءٌ من أثاثِ (تجهيزات) العالَم. إذا لم يكن لتصوُّرِ السَّبب تحليلٌ، فليس ثَمَّةَ شيء يمكن أنْ تقتلِعَهُ عن طريقِ التَّحليل[١] بنحوٍ يستبعدَ الرَّبط السَّببي الأوَّلي بين الإلهِ اللَّازماني والزَّمان بأسرِهِ[٢].

* * *

(١) يقصد (فلو) أنَّ السببية لا تستبطنُ مفهوم الزَّمان أساساً، لنعمل علىٰ تجريدِها منه، ثمَّ نُطبِّقها علىٰ علاقةِ الإله بالعالَم. فالسببية - وفقاً لفلو - تصوُّرٌ أوَّليٌّ لا تحليلَ له. (المراجع).

(٢) Brian Leftow, personal conversation with the author, Oriel College, Oxford University, October 2006.

إمكانية متماسكة

(A COHERENT POSSIBILITY)

علىٰ أقلِّ تقديرٍ، بيَّنَت دراساتُ تريسي وليفتو أنَّ فكرةَ الرُّوح الحاضرة في كلِّ زمانٍ ومكان ليست غير متماسكة في جوهرِها، إذا ما نظَرْنا إلىٰ هذه الرُّوح علىٰ أنَّها فاعلٌ خارج الزَّمانِ والمكان، يقومُ بأفعالِهِ القَصْدية بطريقةٍ فريدةٍ في المتَّصِل الزَّماني - المكاني. والسُّؤالُ عمَّا إذا كانت مثلُ هذه الرُّوح موجودة، كما رأينا، يقعُ في صُلْبِ حُجَج وجود الإله.

أمَّا بالنِّسبةِ لصلاحيةِ هذه الحُجَج، فأنا أتَّفِقُ مع استنتاجِ كونواي، الذي قال: (إذا كان الاستدلالُ في الفَصْلِ السَّابقِ صلْباً، فإنَّه لا توجدُ حُجَجٌ فَلْسفيةٌ جيِّدةٌ تنفي وجودَ الإله لتكونَ تفسيراً للكونِ والنِّظام الذي يظهَرُ عليه. وإنْ كان الأمرُ كذلك، فلا يوجدُ سببٌ جيِّدٌ للفلاسفةِ يحولُ دونَ عودتِهم مرَّةً أُخرىٰ إلىٰ التصوُّرِ الكلاسيكي لموضوعِهم، شريطةَ أنْ لا تكونَ هناك طرُقٌ أُخرىٰ أفضل للظَّفرِ بالحكمة)[1].

* * *

---

(١) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 134.

الفصل العاشر:

الطريقُ مفتوحٌ أمامَ إلهٍ كامل القدرة

OPEN TO OMINIPOTENCE

العِلْـمُ كعِلْـمٍ لا يمكـنُ أنْ يُقـدِّمَ حُجَّـةً عـلىٰ وجـودِ الإلـه[1]. ولكـن الأدِلَّـةَ الثلاثـةَ التـي ذكرتُهـا في هـذا الكتـاب - قـوانينَ الطَّبيعـة، الحيـاةَ مـع تنظيمِها الغـائي، ووجـودَ الكـون - يمكـنُ تفسـيرُها فقـط عـلىٰ ضـوءِ ذكـاءٍ يُفسِّـرُ في وقـتٍ واحـدٍ وجـودَهُ بذاتِـهِ ووجـودَ العـالَمِ. مثـلُ هـذا الاكتشـاف للمُقدَّس لا يأتي عَبْرَ معادلاتٍ وتجارب، بـل عَـبْرَ فهـم البُنَـىٰ التـي تكشِـفُ عنها وفهم الخريطة.

الآن، كلُّ ذلك قد يبـدو مجرَّداً وغامضـاً. قـد تسـأل: كيـف أتصـرَّفُ كشـخصٍ عنـد اكتشـافِ الواقعيـة القصـوىٰ لـرُوحٍ حـاضرةٍ في كـلِّ زمـانٍ ومكانٍ وقادرةٍ علىٰ كـلِّ شيء؟ يجبُ عـليَّ أنْ أُعيـدَ تكـرار القـول بـأنَّ رحلـةَ اكتشافي للمُقـدَّس كانـت إلىٰ حـدٍّ بعيـدٍ رحلـةَ عقـل. لقـد اتَّبعـتُ الحُجَّـةَ إلىٰ حيـثُ قـادتني. وقـد قـادتني إلىٰ القبـولِ بوجـودِ إلـهٍ ذاتيٍّ الوجـود، لا يتغـيَّر، غير مادِّي، علىٰ كلِّ شيءٍ قدير، وبكلِّ شيءٍ عليم.

بالتأكيـد، لا بـدَّ مـن مواجهـةِ مشـكلة الشُّـرور والمعانـاة في العـالَمِ. ولكـن فَلْسـفياً، هـذا موضـوعٌ منفصـلٌ عـن التَّسـاؤل عـن وجـودِ إلـه. مـن وجـودِ العـالَمِ، نصـلُ إلىٰ أسـاسِ وجـودِهِ. قـد يكـونُ للطَّبيعـةِ نواقصُـها، ولكـن هـذا لا علاقـةَ لـه فـيما إذا مـا كـان لهـا مصـدرٌ مطلـقٌ أو لا. ولـذلك

(١) لا يخفـىٰ عـلىٰ القـارئ أنَّ المقصـود بــ (العِلْـم) العِلْـم الطبيعـي، كعِلْـم الفيزيـاء والكيميـاء والأحيـاء والجيولوجيـا... الـخ، لأنَّ هـذه العلـوم ليسـت معنيَّـة بإثبـاتِ وجـود الله أو إثبـات عـدم وجـوده. نعـم قـد تُقـدِّم هـذه العلـوم معطيـات، يُوظِّفُهـا البـاحثون في اتِّجـاهِ الإيمان بالله أو في اتِّجاهِ الإلحاد... هذا ما يعنيه (فلو). (المراجع).

فوجـودُ الإلـهِ لا يعتمـدُ عـلىٰ الظَّفـرِ بتبريـرٍ لوجـودِ الشَّـرِّ أو عـدم الظَّفـر بتبريرٍ لوجودِهِ.

فيما يتعلَّـق بتفسـيرِ الشُّـرور، هنـاكَ تفسـيرانِ بالنِّسـبةِ لأُولئـكَ الـذين يؤمنـون بوجـودِ الإلـه. التَّفسـيرُ الأوَّلُ هـو في إلـهِ أُرسـطو الـذي لا يتـدخَّلُ في العالَمِ. أمَّـا التَّفسـيرُ الثـاني فيسـتنِدُ إلىٰ دفـاعِ الإرادة الحـرَّة، وهـي فكـرةُ أنَّ الشَّـرَّ ممكـنٌ مـا دامَ الإنسـانُ حُـرَّ الإرادة. في الإطـارِ الأُرسـطي، بمجـرَّدِ أنْ أتـمَّ الإلـهُ خَلْـقَ الكـون، تـرَكَ الأمـرَ لقـوانينِ الطَّبيعـة، وإنْ كـان في بعـضِ الأحيان قد يتدخَّل مـن بعيـد في القضـايا المبدئيـة، مثلُ إقامـة العـدل. دفـاعُ الإرادة الحرَّة يعتمدُ عـلىٰ القبـولِ المُسْـبق بإطـارِ الـوحي الإلهـي، وهـي فكـرةُ أنَّ الإلهَ قد تجلَّىٰ (أظهَرَ ذاتَهُ).

* * *

منفتحٌ لتعلُّمِ المزيد
(OPEN TO LEARNING MORE)

إلىٰ أين أنا ذاهبٌ من هنا؟ في المقامِ الأوَّل، أنا منفتحٌ بنحوٍ تامٍّ علىٰ التعلُّمِ أكثر عن الواقعيةِ الإلهية، خصوصاً في ضوءِ ما نعرِفُهُ عن تاريخِ الطَّبيعة. وثانياً أنَّ السُّؤالَ عمَّا إذا كان الإلهُ قد تجلَّىٰ بذاتِهِ (أظهَرَ ذاتَهُ) في التاريخِ البشري، يظلُّ موضوعاً مشروعاً للنقاش. لا نستطيعُ أنْ نقصُرَ (نُحدِّدَ) إمكانيات الإله الذي هو علىٰ كلِّ شيء قدير، إلَّا إذا كان أنتجَ ما هو غير ممكن منطقياً. عدا ذلك، كلُّ شيءٍ مفتوحٌ لإلهٍ كُلِّي القدرة.

الملحقُ الثاني من هذا الكتاب هو عَرْضٌ للنِّقاشِ الذي دارَ حول المسألة الأخيرة مع المُتخصِّص بالكتابِ المُقدَّس والأُسقُف الإنجيلي رايت (N. T. Wright)، مع إشارةٍ خاصَّةٍ إلىٰ الادِّعاءِ المسيحي بأنَّ الإلهَ أصبحَ رجُلاً في شخصِ السيِّد المسيح. كما قُلْتُ أكثرَ من مرَّة، ليس ثَمَّةَ دين آخر يتمتَّعُ بمزيجٍ من شخصيةٍ تمتلكُ جاذبيةً مثل شخصية المسيح، ومُفكِّر من الدَّرجةِ الأُولىٰ مثل القدِّيس بولس. إذا كُنْتَ تريدُ من إلهٍ علىٰ كلِّ شيءٍ قدير أنْ يُقيمَ ديناً، فإنَّ ما يبدو لي هو أنَّ هذا الدِّين هو ما يمكنُ المراهنة عليه(١).

* * *

---

(١) وسيأتي التعليق علىٰ ذلك، فانتظر. (المراجع).

على استعدادٍ للتواصل
(WILLING TO CONNECT)

أُريدُ أنْ أعودَ الآن إلىٰ المثالِ الـذي بـدأتُ بـه هـذا الجـزء مـن الكتـاب. تكلَّمْنا عن الهاتفِ الـذي يعمـل بـالأقمارِ الصِّـناعية، الـذي تـمَّ اكتشـافُهُ مـن قِبَلِ قبيلةٍ تعـيشُ في جزيـرة، والمحـاولاتِ التـي جـرت لفهـمِ طبيعتِـهِ. المثـالُ انتهىٰ مع حكيمِ القبيلة إلىٰ تعرُّضِهِ لسخريةٍ وتجاهُلٍ من علماءِ القبيلة.

ولكـن لنتخيَّـلَ أنَّ المثـالَ قـد انتهـىٰ بنحـوٍ مختلـف. العلـماءُ اختـاروا تفعيـلَ فرضـية الحكـيم بـأنَّ الهـاتفَ مجـرَّدُ وسـيلةٍ للتواصـلِ مـع أُنـاسٍ آخرين. وبعد مزيدٍ مـن البحـث، أكَّـدوا النتيجـةَ القائلـة بـأنَّ الهـاتفَ مـرتبطٌ بشبكةٍ تبُـثُّ أصـواتَ أُنـاسٍ واقعيِّـين. العلـماءُ الآن يقبلـونَ بفرضـيةٍ وجـودِ كائناتٍ ذكية (هناك في الخارج).

بعضُ علماء القبيلة ذهبَ إلىٰ أبعَـدَ مـن ذلـك. عملـوا عـلىٰ فـكِّ شـفرة الأصـوات التـي تـأتي مـن الهـاتف. وتوصَّـلوا إلىٰ نمـطِ الـنَّغمات والنَّسَـق الذي تتحدَّث به هـذه الأصـوات بنحـوٍ يُمكِّـنهُم مـن فهـمِ مـا قيـل. عـالَمُهُم بـأسرِهِ يتغـيَّر. هـم يعرفـونَ الآن أنَّهـم ليسـوا وحيـدين. وفي لحظـةٍ معيَّنـةٍ أجروا اتِّصالاً.

مـن السَّـهلِ تطبيـق التَّشـبيه في هـذا المثـال. اكتشـافُ ظـواهر كقـوانينِ الطَّبيعة – شبكة الاتِّصـال في المثـالِ السَّـابق – قـادَ علـماءَ وفلاسـفة وآخـرين

إلىٰ القبـولِ بوجـودِ عقـلٍ ذكـيٍّ لا نهـائي. الـبعضُ يـدَّعي أنَّـه أجـرىٰ مكالمـةً مع هذا العقل. أمَّا أنا فليس بعد. ولكن من يعرف ما سيحدُث لاحقاً؟

في يـومٍ مـا قـد أسـمَعُ صـوتاً يقـول: (هـل بمقـدورِكَ الآن أنْ تسْمَعَني؟).

❋ ❋ ❋

الملاحق

في هــذا الكتــاب، لخَّصْــتُ الحُجَــجَ التــي قــادتني إلىٰ تغيــيرِ وجهــةِ نظري فيما يتعلَّـق بوجـودِ الإلـه. كـما أشرْتُ سـابقاً، دافيـد كونـواي في كتابِـهِ (إعــادة اكتشــاف الحكمــة)، لعَــبَ دوراً مهــمّاً في هــذا التغيــير. كتــابٌ آخــر كنْتُ قد أوصيتُ بـه في منتـدىٰ آخـر، هـو (العجيـبُ في العـالَم) لــ (أبراهـام فارجيز Abraham Varghese).

في مقــدِّمتي الجديــدة لكتــابي (الإلــه والفَلْســفة)، قلْــتُ: إنَّ أيَّ أثــرٍ يــأتي بعــد هــذا الكتــاب، (لا بــدَّ أنْ يضَــعَ في حُسبانِهِ) كتــاب (العجيــب في العــالَمِ)، الــذي قــدَّمَ حُجَّــةً شــاملةً للغايــة، حُجَّــة اســتقرائية مــن النِّظــامِ السَّــاري في الطَّبيعــة. وعنــدما تعــاون معــي فــارجيز في تــأليفِ الكتــاب الحالي، طلبْتُ منـه أنْ يُلْحِـقَ بتـأمُّلاتي تحـليلاً وتقيـيماً للحُجَـجِ التـي طرحَهـا الجيـلُ الحــالي مــن المُلْحــدين. ورقتُــهُ كــان عنوانُهــا (الإلحــادُ الجديــد: تقيــيمٌ نقــديٌّ لـــ (دوكينــز، دينيــت، ولــبرت، هــاريس، وســتينجر)، وهــي تُشــكِّلُ المُلْحَقَ الأوَّل.

المُلْحَقُ الثاني يتعلَّـقُ بالادِّعـاء بـأنَّ هنـاك وحيـاً ذاتيـاً للإلـهِ في التـاريخِ البشــري تجسَّدَ بيسوعِ المسيح. هــذا الادِّعــاءُ تــمَّ الــدِّفاع عنـه بواسـطةِ أحـد الأعــلام المُتخصِّصــين في العهــدِ الجديــد، وهــو الأُسْــقُف نيكــولاس تومــاس رايــت. وبرأيــي، أجــابَ رايــت، في الكتــابِ الحــالي وفي كتابِــهِ عــلىٰ السَّــواء، عــن انتقــاداتي السَّــابقة المتعلِّقــة بــالوحي الــذَّاتي المُقــدَّس، بنحــوٍ يُعــبِّرُ عــن أقوىٰ استعراضٍ للمسيحيةِ اطَّلعتُ عليه.

لقد ألحقْتُ هذين في كتابي هذا لأنهَّما معاً أمثلة لاستدلالٍ قادني إلىٰ تغييرِ وجهة نظري حولَ وجود الإله. لقد شعرْتُ أنَّ من المناسبِ أنْ أُلحِقهُما بكتابي بنحوٍ كامل لأنَّهما إضافة أصيلة للنقاشِ بنحوٍ بالغ الدَّلالة، فضلاً عن كونهِما يُعطيانِ للقارئ بعضَ الإضاءة حول اتِّجاه رحلتي العقلية الحالية. عندما يُؤخذان بالتَّزامُنِ مع (القَسْمِ الثاني: اكتشافي للمُقدَّس)، فستجد أنَّها تُشكِّلُ كلَّاً عضوياً يُقدِّمُ رؤيةً جديدةً في فَلْسفةِ الدِّين.

* * *

الملحق الأوَّل:

الإلحاد الجديد
THE "NEW ATHEISM"

تقييمٌ نقديٌّ لدوكينز، دينيت، ولبرت، هاريس، وستينجر

روي أبراهام فارجيز

Roy Abarahm Varghese

أساسُ (الإلحاد الجديد New Atheism) يقومُ علىٰ الاعتقادِ بعدَمِ وجود إله، لا وجودَ لإلهٍ خالدٍ لا متناهٍ مَصْدر لكلِّ الموجودات. هذا الاعتقادُ الأساسُ يحتاجُ إلىٰ تأسيسٍ حتَّىٰ تصحَّ بقيَّة الحُجَج. أدَّعي هنا أنَّ (المُلْحدينَ الجُدُد) من أمثالِ ريتشارد دوكينز (Dawkins Richard)، دانيال دينيت (Daniel Dennett)، لويس ولبرت (Lewis Wolpert)، وسام هاريس (Sam Harris)، وفيكتور ستينجر (Victor Stenger)، لم يفشلوا فقط في تقديمِ سببٍ لهذا الاعتقاد، بل إنَّهم تجاهلوا الظَّواهرَ الواضحة المُتعلِّقة تحديداً بالسُّؤالِ عمَّا إذا كان الإلهُ موجوداً.

كما أرىٰ، هناك خمسُ ظواهر واضحة في خبرتِنا المباشرة، لا يمكنُ تفسيرُها إلَّا بلُغةِ الإيمان بوجودِ إله. هذه الظَّواهر هي:

الأُولىٰ: العقلانيةُ المُتضمَّنة في جميعِ خبراتنا الحسِّية عن العالَمِ الفيزيائي.

الثانية: الحياةُ، القدرةُ علىٰ الفعلِ بنحوٍ مستقلٍّ.

الثالثة: الوعيُ، القدرةُ علىٰ أنْ تكونَ مُدْرِكاً.

الرَّابعة: الفكرُ التصوُّري (conceptual thought)، القدرةُ علىٰ التعبيرِ وفهمِ الرُّموز كتلكَ الموجودة في اللُّغة.

الخامسة: النَّفْس (الذَّات) البشرية، (مركزُ) الوعي والفكرِ والفعل.

هناك ثلاثةُ أشياءٍ يجب أنْ تُقالَ عن هذه الظَّواهر وارتباطِها بوجودِ الإله:

أوَّلاً: نحنُ اعتَدْنا علىٰ سَماعِ حُجَج وأدلَّة علىٰ وجودِ الإله. في

رأيي، أنَّ هـذه الحُجَـجَ مفيـدةٌ في توضـيح بعـض الأفكـار الأساسـية، ولكـن لا يمكن اعتبارُهـا (بـراهين) بحيـث تُحـدِّد صـلاحيَّتها الصُّـورية مـا إذا كـان هناك إله[١]. لأنَّ كـلَّ واحـدةٍ مـن الظَّـواهرِ الخمسـة التـي نستشـهدُ بهـا هنـا، بطريقتِها الخاصَّة، تفـترضُ مسـبقاً وجـودَ عقـلٍ أبـديٍّ لا نهـائي. فالإلـهُ هـو الشَّرطُ الذي يكمُنُ وراءَهُ كلّ ما هو واضحٌ بذاتِهِ (بديهي) في خبرتِنا.

ثانيـاً: لا بـدَّ أنْ يكـون واضـحاً مـن النُّقطـةِ السَّـابقة، أنَّنـا لا نتحـدَّثُ عـن احـتمالاتٍ وفرضـيات، وإنَّـما نتحـدَّثُ عـن مواجهـةٍ مـع واقعيـاتٍ أساسيةٍ لا يمكنُ إنكارُها دونَ الوقوع في تناقُضٍ ذاتي.

بعبـارةٍ أُخـرىٰ: نحـنُ لا نُطبِّـق مبرهنـات الاحـتمال عـلىٰ مجموعـاتٍ معيَّنةٍ من المعطيات، ولكنَّـا نُركِّـزُ أكثـرَ بكثـيرٍ عـلىٰ السُّـؤالِ الأسـاسي حـول كيـف يمكـن تقيـيم المعطيـات مـن الأسـاس[٢]. وبالمثـل، فـإنَّ الأمـرَ لـيس مجرَّد مسـألة اسـتنتاج وجـود إلـه مـن خـلالِ وجـود ظـواهر معقَّـدة معيَّنـة، لأنَّ وجودَ الإله تفترِضُهُ مسبقاً كلُّ الظَّواهر.

---

(١) يقصد (فارجيز) هنا أنَّ الأدلـة التـي يمكـن أنْ تُقـدَّم كحُجَـجٍ عـلىٰ وجـود الإلـه، قـد تكـون سليمةً مـن الناحيـةِ الصـورية، لكنَّهـا قابلـة للتفنيـد مـن ناحيـةِ المـادَّة والمضـمون. والبرهـانُ حتَّىٰ يكـون صَـلْباً، كـما تقـرَّر في عِلْـم المنطـق، لا بـدَّ أنْ يكـون سـليماً مـن حيـث الصـورة، وصادقاً من حيث المادَّة، حتَّىٰ تصحَّ النتيجة التي ينتهي إليها.
أقـول: يمكـن مناقشـة فـارجيز بـأنَّ الظـواهرَ الخمـس التـي يُقـدِّمُها يمكـن أنْ تُصـاغ عـلىٰ هيئـةِ بـراهين سـليمة مـن حيـث الصـورة، وصـادقة مـن حيـث المـادَّة، في وقـتٍ واحـد. (المراجع).

(٢) أقـول: الفشـل في صـياغةِ تلـك المعطيـات عـلىٰ هيئـةِ دليـلٍ قـائم عـلىٰ مبرهنـات نظريـة الاحتمال، لا يعنـي عـدم إمكـان ذلـك. فقـد نجَـحَ السـيِّد محمَّـد بـاقر الصَّـدْر في القيـام بهـذه المهمَّـة نجاحـاً لا نظـيرَ لـه، كـما نـرىٰ في كتابـه (الأُسس المنطقيـة للاسـتقراء)، حيـثُ صـاغَ دليلَ النَّظْم بنحوٍ ينسجمُ مع منطقِ الاحتمال وبديهياتِهِ. (المراجع).

ثالثاً: يشتكي المُلْحدونَ، القُدماء والجُدُد، من عدمِ وجودِ دليلٍ علىٰ وجودِ الإله، وقد ردَّ بعض المُوحِّدينَ علىٰ ذلكَ بالقولِ بأنَّ إرادَتَنا الحُرَّة لا يمكن أنْ تصمُد إلَّا إذا كان الدَّليلُ غيرُ قَسْري (noncoercive)[1].

المقاربةُ المُتَّبعةُ هنا هو أنَّ لدينا كلَّ الأدلَّة التي نحتاجُها (علىٰ وجودِ الإله) في خبرتِنا المباشرة، وأنَّ الرَّفضَ المُتعمَّد لـ (رؤيةِ) الواقع هو وحدهُ المسؤول عن الإلحادِ بصيغِهِ المُتعدِّدة.

عند النَّظرِ في خبرتِنا المباشرة، دعونا نقومُ بخبرةٍ فكرية. فكِّر لدقيقةٍ واحدةٍ أنَّ أمامَكَ طاولة من الرُّخام. هل يمكن أنْ تتصوَّر، لو افترضْتَ مرور مليارات السِّنين أو زمن لا نهائي، أنَّ هذه الطَّاولةَ يمكن أنْ تتحوَّل بصورةٍ مفاجئةٍ أو تدريجيةٍ إلىٰ مُدْركةٍ وواعيةٍ لما حولها، وواعيةٍ بهويَّتِها بالطَّريقةِ التي تعي بها الأُمور؟ بكلمةٍ: لا يمكن تعقُّل حدوث أو إمكانية حدوث ذلك. والشَّيءُ ذاتُهُ ينطبقُ علىٰ جميع الأشياء المادِّية. بمجرَّد أنْ تُدرِكَ طبيعةَ المادَّة، المُكوَّنة من كتلةٍ - طاقة، تُدرِكُ أنَّ طبيعتَها تجعلُ من المستحيلِ أنْ تصبحَ (مُدْركة)، أو (تُفكِّر)، أو تقول: (أنا). لكن موقفُ المُلْحدين يتمثَّل في أنَّه، في نقطةٍ معيَّنةٍ من تاريخ هذا الكون، هذا المستحيل وغير المُتعقَّل تحوَّلَ إلىٰ واقع. والمادَّةُ غيرُ المُميِّزة (ونضَعُ ضمْنَ ذلك: الطَّاقة)، عند نُقطةٍ معيَّنة، انبعثت فيها (الحياة)، وبعد ذلكَ أصبحت واعيةً، وبعدها أصبحت مُتْقنةً، ثمَّ قالت: (أنا).

---

(١) المقصود هنا أنَّ الدَّليلَ علىٰ وجودِ الإله لو كان علةً تامَّة (= شرطاً كافياً) للإيمانِ به، لسلَبَ الدَّليلُ حرّيةَ الإردة في القبولِ به أو عدم القبول. فالحفاظُ علىٰ حرّيةِ الإرادة، يتطلَّب افتراض أنَّ الدَّليلَ علىٰ وجودِ الإله يكون مجرَّد (مُقتضٍ) للإيمانِ به، لا (علَّة تامَّة) له. (المراجع).

لكن إذا عُدْنا إلىٰ مثالِ الطَّاولة، نرىٰ بسهولةٍ لِمَ أنَّ هذا مثيرٌ للضَّحِك؟ فالطَّاولةُ لا تمتلكُ خصائصَ الوعي، ولو افترضنا أنَّا أعطيناها وقتاً لا نهائياً، فلا يُمكِنُها (اكتساب) مثل هذه الخصائص. حتَّىٰ إذا قبِلْنا ببعضِ السِّيناريوهات غير المعقولة عن أصلِ الحياة، فإنَّه لا بدَّ للمرءِ أنْ يتخلَّىٰ عن عقلِهِ حتَّىٰ يقبَلَ بسيناريو يقول: إنَّ قطعةً من الرُّخام، تحتَ شروطٍ معيَّنة، يمكن أنْ تُنتِجَ تصوُّرات. وعلىٰ المستوىٰ دون الذرِّي (subatomic level)، ما ينطبقُ علىٰ الطَّاولة، ينطبقُ علىٰ بقيَّة الأشياء المادِّية في الكون.

علىٰ مدىٰ الثلاثمائة السَّنة الماضية، كشَفَت العلومُ التَّجريبية بما لا يُعَدُّ ولا يُحصىٰ المزيدَ من المعطيات عن العالَمِ الفيزيائي أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضىٰ، وهو ما يصعُبُ علىٰ أجدادِنا تخيُّلُهُ. وهذا يشمَلُ الفهمَ الشَّاملَ للشَّبكاتِ الوراثية والعصبية التي تكمُنُ وراءَها الحياةُ والوعي، والفكرُ، والذَّات. بل أبعد من ذلك، هذه الظَّواهرُ الأربعة تعمَلُ مع البُنْيةِ التَّحتيةِ الفيزيائية بشكلٍ يُمكِّنُنا من الفهمِ بشكلٍ أفضل أكثرَ من أيِّ وقت مضىٰ، بينما العِلْمُ ليس بمقدورِهِ أنْ يُخبِرَنا شيئاً عن أصلِ أو طبيعةِ الظَّواهر في ذاتِها.

وعلىٰ الرَّغمِ من محاولةِ بعض العُلماء كأفراد، تفسير هذه الظَّواهر علىٰ أنَّها تجلٍّ (ظهور) (manifestations) للمادَّة، فإنَّه لا مجالَ للبرهنةِ علىٰ أنَّ فهمي لهذه الجملة ما هو إلَّا انتقالٌ لإشاراتٍ عصبيةٍ محدَّدة.

من المؤكَّد أنَّ هناك إشارات عصبية تُرافِقُ أفكاري، وقد بيَّنَ عِلْمُ الأعصاب الحديث أنَّ مناطقَ معيَّنة في الدَّماغ تدعمُ أنماطاً مختلفةً من الأنشطةِ الذِّهنية. ولكن القولُ بأنَّ فكرةً معيَّنةً ما هي إلَّا انتقالٌ

لمجموعةٍ محدَّدةٍ من الإشارات العصبية هو قولٌ تافهٌ، بنفسِ درجة تفاهة فكرة أنَّ العدلَ ما هي إلَّا حبرٌ علىٰ ورق. ولذا فإنَّ القولَ بأنَّ الوعيَ والفكرَ هو مجرَّدُ انتقالٍ فيزيائيٍّ (physical transactions) هو قولٌ غيرُ متماسك.

ونظراً لضيقِ المساحةِ هنا، أُقدِّمُ نظرةً عامَّةً مختصرةً للغايةِ للظَّواهرِ الخمس الأساسية التي تُمثِّلُ أساساً لخبرتِنا عن العالَم، والتي لا يمكنُ تفسيرُها ضمن إطار (الإلحاد الجديد New Atheism). ويمكنُ الاطِّلاعُ علىٰ دراسةٍ أكثر تفصيلاً في كتابي المقبل (الحلقةُ المفقودة)(١).

* * *

---

(١) صدَرَ هذا الكتاب لـ (فارجيز) سنة (٢٠١٢م)، في مطبعة الجامعة الأمريكية. (المراجع).

العقلانية[1]

(RATIONALITY)

يسْـأَل دوكينـز وآخـرون: (مـن خلَـقَ الإلـه؟) الآن، مـن الواضـحِ أنَّ المُوحِّـدينَ والمُلْحـدينَ مُتَّفقـونَ عـلىٰ شيءٍ واحـدٍ، وهـو أنَـه إذا كـان هنـاك شيءٌ مـا موجـود، فيجـب أنْ يكـونَ هنـاك شيءٌ مـا سـبَقَهُ، وأنَّـه دائـمُ الوجود. كيفَ جاءَ هذا الواقع الأبدي؟

الجواب: هو أنَّه لم يأتِ مطلقـاً، لأنَّـه موجـودٌ عـلىٰ الـدَّوام. اخـترْ أمـراً من أمرين: إمَّا الإله أو الكون. لا بدَّ من شيءٍ ما دائمَ الوجود.

بالدِّقـةِ، عنـد هـذه النُّقطـة تـبرُزُ الحاجـة للعقلانيـة. خلافـاً لاعتراضـاتِ المُلْحـدين، فـإنَّ هنـاك فرقـاً جوهريـاً بـين ادِّعـاءِ المُلْحـدين والمُوحِّدين فـيما يخُـصُّ دائـمَ الوجـود. يقـولُ المُلْحـدون: تفسـيُر الكـونِ هـو أنَّه موجـودٌ منـذُ الأزل، لكنَّـا لا نسـتطيعُ تفسـيرَ حالـة الوجـود الأزلي التـي جاءَت بهذا الكون. هـذا الكـونُ عصـيٌّ عـلىٰ التَّفسـير، ويجب أنْ يُقبَـلَ كـما

(١) قُلـتُ فـيما مضـىٰ: إنَّ العقلانيـةَ (rationality) تصـوُّرٌ حيـويٌّ بـالغ الأهمّيـة في الفكـرِ الغـربي الحديث والمعـاصر، ولـه تعريفـاتٌ متعـدِّدة، ومواقـف الفلاسـفة منـه مختلفـة. لكـن التصـوُّر المشهور عن العقلانيـة أنَّـه الموقـف الرَّشـيد الـذي يسـتندُ إلىٰ مُـبرِّراتٍ موضـوعية. فالاعتقـادُ أو القرارُ العقلاني هـو الـذي يقـفُ عـلىٰ أرضـيةٍ صَـلْبةٍ ومعطيـاتٍ كافيـة، في مقابـلِ الاعتقـاد أو القرار غـير العقـلاني الـذي يكـونُ ذاتيـاً، ولا يقـفُ عـلىٰ أرضـيةٍ صَـلْبةٍ ومعطيـاتٍ كافيـة. وعنـدما يتحـدَّثون هنـا عـن عقلانيـةٍ تحكُـمُ الكـون، فـإنَّما يقصـدون نفـي العبثيـة العميـاء، ووجود غاية حكيمة ومُبرِّرات موضوعية وراء الأفعال الجارية فيه. (المراجع).

هو. في المقابل، يُصِرُّ المُوحِّدون علىٰ أنَّ الإلهَ ليس عصيّاً علىٰ التَّفسير: وجودُهُ عصيٌّ علىٰ فهمِنا، لكن ليس عصيّاً علىٰ الإله.

إنَّ وجودَ الإله الأبدي لا بدَّ أنْ يكونَ له منطقُهُ الخاصّ، لأنَّ وجودَ العقلانيةِ في الكون مشروطٌ بأنْ يكونَ هذا الوجودُ قائماً علىٰ أُسسٍ عقلانيةٍ مطلقة (ultimate rationality).

بعبارةٍ أُخرىٰ: الحقائقُ الفَرْدية (singular facts)، من قبيلِ قُدْرتنا علىٰ معرفةِ وتفسيرِ الحقيقة، والتَّرابُطِ بين الأعمالِ (workings) الموجودة في الطَّبيعة ووصفِنا المجرَّد لهذه الأعمال (abstract descriptions) وهو ما يُسمِّيهِ عالمُ الفيزياء يوجين ويغنر (Eugene Wigner) التَّأثير المنطقي للرِّياضيات (reasonable effectiveness of mathematics) ودورِ الشَّفْرات (أنظمة الرُّموز التي تعمَلُ في العالَمِ الفيزيائي) في النِّظامِ الوراثي والعصبي في المستوياتِ الرَّئيسيةِ للحياة، تتجلَّىٰ (أو تتمظهَرُ) باعتبارِها الرَّكائز الأساسية لطبيعةِ العقلانية (nature of rationality). ما هو المنطقُ الدَّاخلي الذي لا نستطيعُ رُؤيتَهُ، رغمَ أنَّ الأفكارَ التقليدية تُعطي بعضَ المؤشِّرات عن طبيعةِ الإله؟

علىٰ سبيلِ المثال، السيِّدة اليانور ستمب (Eleonore Stump) والسيِّدة نورمان كرتزمان (Norman Kretzmann)، تُناقشانِ بالقولِ: إنَّنا عندما نفهم بشكلٍ كاملٍ خاصّيَّة البساطة المطلقة للإله، فإنَّه يُمكنُنا تبيُّن لِمَ عدم وجود الإله غيرُ ممكن. ألفِن بلانتينْغا يشيرُ إلىٰ أنَّ الإلهَ يُفهَمُ علىٰ أنَّه واجبُ الوجودِ في كلِّ العوالِمِ الممكنة.

يمكنُ للمُلْحدين أنْ يرُدُّوا علىٰ هذا الكلامِ بطريقتين: أنَّ للعالَمِ منطقاً داخليّ لا نستطيع رؤيتُهُ، أو أنَّنا لا نحتاجُ أنْ نعتقد بوجوبِ وجودِ إلهٍ له منطقُهُ الخاصُّ في الوجود.

في النُّقْطَـةِ الأُولىٰ، سـوف يـرُدُّ المُوحِّـدون بـالقولِ: إنَّـه لا وجـودَ لشـيءٍ مـن قبيـلِ (الكـون) بنحـوٍ يتجـاوز مجمـوع مـا يتكـوَّن منه، ونحـنُ نعلَمُ كحقيقةٍ أنَّـه لا شيءَ مـن أشـياءِ الكـون لـه أيُّ منطـقٍ داخـليٍّ لوجـودٍ لا نهائي.

في النُّقْطَـةِ الثانيـة، يشـيرُ المُوحِّـدونَ إلىٰ أنَّ وجـودَ العقلانيـة التـي نخبُرُهـا بنحـوٍ غـير قابـلٍ للخطـأ - ويـترواح مـا بـين قـوانين الطَّبيعـة إلىٰ قـدرتِنا عـلىٰ التفكـيرِ العقـلاني - لا يمكـن تفسـيرُهُ إذا لم يكـن لـه أسـاسٌ مطلـق (ultimate ground)، هـذا الوجـودُ للعقلانيـةِ لـيس سـوىٰ العقـل اللَّانهـائي. (الكـونُ عقـلانيٌّ)، هـذا مـا لاحظَـهُ عـالِمُ الرِّياضـيات المشـهور كـورت جـودِل (Kurt Gödel)[1]. علاقـةُ العقلانيـةِ بـالكون تتمثَّـلُ في أنَّ (النِّظـامَ في الكـونِ يعكـسُ نظـامَ العقـل الخـارق الـذي يحكُمُـهُ)[2]. واقعيـةُ العقلانيةِ في الكون لا يمكـن تجنُّبها مـن خـلالِ أيِّ نحـوٍ مـن أنحـاءِ اللُّجـوء إلىٰ فكـرةِ الانتخـاب الطَّبيعـي (Natural selection). فالانتخـابُ الطَّبيعـي يفـترِضُ مسـبقاً وجـودَ كيانـاتٍ فيزيائيـةٍ تتفاعـلُ فـيما بينهـا وفقـاً لقـوانينَ مُحدَّدة ورمـوزَ تُـنظِّم عمليـة الحيـاة. وأنْ تـتكلَّم عـن انتخـابٍ طبيعـيٍّ، فهـذا يعني أنْ تفترِضَ وجـودَ قَـدْرٍ مـن المنطـقِ في حـوادثِ الكـون وأنَّ بمقـدورِنا فهم هذا المنطق.

بـالعودةِ إلىٰ المثـالِ السَّـابق لطاولـةِ الرُّخـام، نقـول: إنَّ العقلانيـةَ

---

(١) Hao Wang, A Logical Journey: From Gödel to Philosophy (Cambridge, MA: MIT Press, 1996), 316.

(٢) Palle Yourgrau, A World Without Time: The Forgotten Legacy of Gödel and Einstein (New York: Basic Books, 2005), 104 – 5.

الواقعيةَ التي تقفُ خلْفَ تفكيرنا والتي تُواجِهُنا في دراستِنا لكونٍ دقيقٍ رياضياً، لا يمكن أنْ تكونَ نشأت من حجارة. الإلهُ ليس حقيقةً عمياء (ultimate brute fact)، وإنَّما عقلانيةٌ مطلقةٌ في كلِّ جوانبِ الوجود.

لوي جديدٌ - ولو بنحوٍ غير قابل للتعقُّل - للسُّؤالِ عن أصلِ الواقعية الفيزيائية، جاءَ من دانيال دينيت (Daniel Dennett) الذي زَعَمَ بأنَّ الكونَ (خلَقَ نفسَهُ من العدم، أو علىٰ أحسنِ الأحوال من شيءٍ لا يمكنُ تمييزُهُ عن العدم أبداً)[١]. تمَّ عرْضُ هذه الفكرة بشكلٍ أكثرَ وضوحاً من جانبِ مُلْحِدٍ آخرَ حديث، هو عالِمُ الفيزياء فيكتور ستينجر (Victor Stenger)، الذي قدَّمَ حلَّهُ لمسألةِ أصل الكون وقوانين الطَّبيعة في كتابِهِ (ليس من خلال التَّصميم: أصلُ الكون، هل أوجَدَ العِلْمُ الإلهَ؟ الكونُ القابلُ للفهم والإله: الفرضيةُ الفاشلة)[٢].

ضمنَ أُمورٍ أُخرىٰ، ستينجر يُقدِّمُ نقداً جديداً لفكرةِ قوانين الطَّبيعة وما يترتَّبُ عليها. في كتابِهِ (الكونُ القابلُ للإدراك The Comprehensible Cosmos)، يقولُ ستينجر: إنَّ ما يُقالُ له: (قوانين) لم ينزل من أعلىٰ، ولا هو عبارة عن قيودٍ ذاتية (built-in restrictions) لسُلُوكِ المادَّة. هي قيودٌ بالمعنىٰ الذي يُمكِنُ لعُلماءِ الفيزياء أنْ يصيغوا معادلاتهُم الرِّياضية حول الملاحظات الحسِّية. موقفُ ستينجر مبنيٌّ علىٰ تفسيرِهِ لفكرةٍ أساسيةٍ في الفيزياءِ الحديثة، وهي التَّناظُر (symmetry). فوفقاً لوجهةِ النَّظر الفيزيائية الحديثة، فإنَّ (التَّناظُر) هو أيُّ نمطٍ من أنماطِ

---

(١) Daniel Dennett, Breaking the Spell (New York: Viking, 2006), 244.

(٢) Not by Design: The Origin of the Universe, Has The Science Found God? Comprehensible Cosmos, and God: The Failed Hypothesis

التحـوُّل (transformation) لا يمَـسُّ قـوانينَ الفيزيـاء - التـي تنطبـقُ عـلىٰ النِّظام - بأيٍّ تغيُّر.

لقـد تـمَّ تطبيـقُ الفكـرةِ في البدايـةِ في المعـادلاتِ التَّفاضـلية (differential equations) للميكانيكـا الكلاسـيكية والكهرومغناطيسـية، بعـد ذلـكَ تـمَّ تطبيقُهـا بطُـرُقٍ جديـدةٍ عـلىٰ نظريـةِ النِّسـبيةِ الخاصَّـة ومشـاكل ميكانيكا الكمِّ. يُقدِّمُ ستينجر لقُرَّائِـهِ لمحـةً عامَّـةً لهـذه الفكـرةِ القويَّـة، ولكـن بعـد ذلـكَ ينتهـي إلىٰ نتيجتـينِ غـير متماسـكتين: الأُولىٰ هـي أنَّ فكـرةَ التَّماثُـل تسـتبعدُ (تُقصـي) فكـرةَ قـوانين الطَّبيعـة، والثانيـة أنَّ الـلَّاشيءَ يمكـنُ أنْ يُنتجَ شيئاً ما لأنَّه (لا شيءٌ) غيرُ مستقرٍّ.

مـن المـدهشِ أنَّ كتابـاً صـدَرَ بعنـوان (التَّنـاظُرُ المُخيـف Fearful Symmetry) لمُؤلِّفِـهِ أنتـوني زي (Anthony Zee)، وهـو معـروفٌ في مجـالِ دراسـاتِ التَّنـاظرُ، يسـتخدمُ الحقـائقَ نفسَـها التـي يسـوقُها سـتينجر ليصِـلَ إلىٰ نتيجةٍ مختلفة:

(التَّنـاظُرات لعبَـتْ دوراً مركزيـاً بشـكلٍ متزايـدٍ في فهمِنـا لعـالَمِ الفيزيـاء... علـماءُ الفيزيـاء الأساسـيُّون يقولـونَ: إنَّ التَّصـميمَ المطلـق (ultimate design) يواجـهُ صـعوباتٍ مـع التَّنـاظُرات. الفيزيـاءُ المعـاصرة لم تكـن ممكنـةً بـدون التَّنـاظُرات التـي تُرْشِـدُنا...، كلَّـما تقـدَّمت الفيزيـاءُ إلىٰ الأمـام مـن خـلالِ خبرتِنـا اليوميـة، اقتربـت أكثـر مـن المُصـمِّم المُطْلَـق (Ultimate Designer)، لقـد تـمَّ تـدريبُ عقولِنـا بعيـداً عـن مراسـيها المألوفـة...، أُحِـبُّ التفكـيرَ في مُصـمِّمٍ مُطْلَـقٍ يـتمُّ تعريفُـهُ مـن خـلالِ التَّناظُر)[1].

---

(١) Anthony Zee, Fearful Symmetry (New York: Macmillan, 1986), 280 – 81.

يجادلُ ستينجر بأنَّ (اللَّاشيء) متناظرٌ تماماً لأنَّه لا يوجدُ موضِعٌ مطلقٌ (absolute position)، أو زمنٌ مطلقٌ، أو سرعةٌ مطلقةٌ، أو تسارُعٍ مطلقٍ في الفراغ (acceleration in the void). وردّاً عن سؤالِ (من أينَ جاءَ التَّناظرُ؟)، يقولُ ستينجر: إنَّها التَّماثُلات في الفراغ (symmetries of the void)، لأنَّ قوانينَ الفيزياء هي مجرَّدُ ما يتوقَّعُونَهُ إذا جاءَت من لا شيء).

مغالطةُ ستينجر الأساسية مغالطةٌ قديمة، تتمثَّلُ في خطأ النَّظَر إلىٰ (اللَّاشيء) علىٰ أنَّه (شيءٌ ما). علىٰ مدىٰ قرونٍ من البحثِ في تصوُّرِ العدم (concept of nothing)، حَرَصَ المُفكِّرونَ علىٰ التأكيدِ علىٰ أنَّ مصْطلَحَ (العدم) لا يعني (شيئاً ما). العدمُ المطلقُ يعني أنْ لا وجودَ لقوانين، لا فراغ، لا طاقة، لا بُنَىٰ، لا وجودَ لكياناتٍ مادِّيةٍ أو عقليةٍ من أيِّ نوعٍ، وكذلك لا وجودَ لتناظُرات. وليس هناك خصائص أو قابليات (potentialities). العدمُ المطلقُ لا يمكن أنْ يُنتِجَ شيئاً ما إذا ما أُعطِيَ وقتاً لا نهائياً. وفي الحقيقةِ، لا وجودَ لزمانٍ في العدمِ المطلق.

ولكن ماذا عن الفكرةِ الرَّئيسيةِ لكتابِ ستينجر (الإلهُ: الفرضية الفاشلة)، التي تذهبُ إلىٰ أنَّ نشوءَ الكونِ من (العدمِ) لا يُخالِفُ مبادئَ الفيزياء، لأنَّ الطَّاقةَ الصَّافيةَ (net energy) للكونِ هي صفر؟ هذه الفكرةُ طُرِحَت لأوَّلِ مرَّةٍ من قِبَلِ الفيزيائي إدوارد تريون (Edward Tryon)، الذي بيَّنَ أنَّ الطَّاقةَ الصَّافيةَ للكونِ هي صفرٌ تقريباً، وبالتالي لا يوجدُ تناقضٌ في القولِ: إنَّها خرجت من العدم لأنَّها عدمٌ. إذا أضفْتَ طاقةَ الجاذبية الأرضية، التي هي سالبة، إلىٰ بقيَّةِ كتلة الكون الشَّاملة، وهي موجبة، فإنَّ الناتجَ سوف يكونُ صفراً تقريباً. وعندها لن توجد حاجة إلىٰ طاقةٍ تصنَعُ الكونَ، ولذلك لا حاجةَ لخالِق.

بخصوصِ هذا الادِّعاءات وأمثالها، أشارَ الفيلسوفُ المُلْحد سمارت (J. J. C. Smart) إلىٰ أنَّ مصادرةَ وجود كون بطاقةٍ صافيةٍ تساوي الصِّفر، تبقىٰ لا تجيبُ عن السُّؤال: لماذا لا بدَّ أنْ يكون هناك شيءٌ ما بالأساس؟ لاحظَ سمارت أنَّ الفرضيةَ وصياغاتها الحديثة تفترضُ وجود بُنْية زمان-مكان، وحقل كمِّي (the quantum field)، وقوانين طبيعة. وبالتالي، فهي لا تجيبُ عن السُّؤال لماذا توجدُ الأشياء؟ كما لا تجيبُ عن سؤالٍ فيما إذا كان هناك سببٌ غيرُ زمانيٍّ للكونِ الزَّمكاني[1]؟

الواضحُ من هذا التَّحليلِ أنَّ ستينجر ترَكَ سؤالينِ أساسيَّينِ دونَ إجابة، وهما: لماذا توجدُ بعضُ الأشياء وليس عدمٌ مطلق؟ ولماذا الشَّيءُ الموجودُ يتوافقُ مع التَّناظُرات أو يُكوِّنُ بُنَىٰ (structures) مُعقَّدة؟

عرَضَ زي (Zee) حقائقَ التَّناظُر نفسَها التي اعتمدَ عليها ستينجر للوصولِ إلىٰ نتيجةٍ مفادُها أنَّ عقلَ المُصمِّم المطلق هو مصدرُ التَّناظُر. قوانينُ الطَّبيعةِ، في الحقيقةِ، تعكسُ التَّناظُرَ الكامِن في الطَّبيعة. إنَّه التَّناظُر - وليس قوانينَ الطَّبيعة - هو الذي يُشيرُ إلىٰ عقلانيةِ وذكاءِ االكون، وهي العقلانيةُ المُتجذِّرةُ في عقلِ الإله.

❊ ❊ ❊

(١) J. J. C. Smart and John Haldane, Atheism and Theism (Grat Debates in Philosophy) (Oxford: Blackwell, 2003), 228 ff.

الحياة

(LIFE)

الظَّاهرةُ التاليـةُ التـي نريـدُ مناقشـتَها هـي الحيـاة. وفقـاً لرُؤيـةِ أنتـوني فلو بشأنِ المادَّة في هـذا الكتـاب، لا حاجـةَ لقـولِ المزيـد حـولَ أصـل الحيـاة. مع ذلك، لا بدَّ من لَفْـتِ النَّظـر إلىٰ أنَّ النِّقـاشَ الحـالي حـولَ هـذا السُّـؤال لا يبـدو أنَّـه يتنـاول القضـايا الأساسـية. هنـاك أربعـة أبعـاد للكائنـاتِ الحيَّـة. هـذه الكائنـاتُ هـي فاعلـةٌ (agents)، وتسـعىٰ لغايـةٍ (goal seekers)، وهـي ذاتيـةُ التكـاثُر، وذاتُ طبيعـةٍ سـيميائية (وجودُهـا يعتمـدُ علىٰ التفاعـلِ بـين الشَّـفرات والكيميـاء). كـلُّ وأيُّ كـائنٍ حـيٍّ إمَّـا يفعـل أو لـه قـدرةٌ علىٰ الفعـل. وكـلُّ كـائنٍ مـن هـذا القبيـل هـو المصـدرُ المُوحِّـد (unified source) والمَرْكَـزُ لكُـلِّ أفعالِـهِ. بـما أنَّ هـؤلاء الفـاعلين قـادرون علىٰ البقـاءِ أحيـاء والفعلِ بشكلٍ مستقلٍّ، فـإنَّ أفعـالَهُم موجَّهـةٌ نحـو أهـدافٍ بنحـوٍ مـا، وهـم يسـتطيعون إعـادةَ إنتـاجِ ذواتِهِـم؛ وبالتـالي فهـم كائنـاتٌ غائيـة (goal-seeking)، ذاتيةُ التكاثُر بنحوٍ تلقـائي. عـلاوةً علىٰ ذلـك، أشـارَ هـوارد بـاتي، بأنَّـكَ تجـدُ في الكائنـاتِ الحيَّـةِ تفـاعُلاً بـين العمليـاتِ السِّـيميائية (القواعـد، الشَّـفرات، اللُّغـات، المعلومـات، الضَّـبْط) مـع الأنظمـةِ الفيزيائيـة (القوانين، الدِّينامية، الطَّاقة، القوىٰ والمادَّة)[1].

---

(١) Howard H. Pattee, "The Physics of Symbols: Bridging the Epistemic Cut," Biosystems **60** **(2001): 5 – 21.**

مـن بـينِ الكُتُـبِ التـي نَدْرُسُـها هنـا، دوكينـز فقـط هـو الـذي تنـاولَ السُّؤالَ عن أصلِ الحيـاة. يقـولُ ولـبرت (Wolpert)، وهـو أحـدُ البـارزين في هـذا الحقـل: (لا نقـولُ بـأنَّ كـلَّ الأسـئلة العلميـة المتعلِّقـة بـالتطوُّر قـد تـمَّ حلُّها. علىٰ العكسِ مـن ذلـك، فـإنَّ أصـلَ الحيـاةِ بحـدِّ ذاتِـهِ، وتطـوُّر الخليـة الذرِّيـة التـي نتجـت منهـا كـلُّ الكائنـات الحيَّـة، لا زالـت غـيرُ مفهومـة)[١]. دينيت في أعمالِهِ السَّابقة، أخذَ بعضَ المواقف المادِّية أخذَ المُسلَّمات.

لسُوءِ الحـظِّ، فـإنَّ مقاربـةَ دوكينـز لم تكـن كافيـةً، حتَّـىٰ عـلىٰ المسـتوىٰ الفيزيـائي - الكيميـائي، بـل هـي أسـوأ. لكنَّـه يتسـاءل[٢]: (كيـف بـدأت الحيـاة؟)، ثـمَّ يُجيـب: (أصـلُ الحيـاةِ كـان حـدَثاً كيميائيـاً أو سلسـلةً مـن الأحـداث، حيـثُ تـمَّ تـوفيرُ الشُّـروط الضَّـرورية للانتخـابِ الطَّبيعـي... عنـدما تتـوفَّر المُكوِّنـات، فـإنَّ الانتخـابَ الطَّبيعـي الـدَّاروِني يـأتي كنتيجـة). كيـف حـدَثَ ذلـك؟ (ابتكـرَ العلـماءُ سـحرَ الأرقـام الكبـيرة... الجميـلُ في المبدأِ الأنثروبي أنَّـه يقـولُ لنـا - عـلىٰ عكـسِ حَدْسِـنا بـأسْرِهِ -: إنَّ النَّمـوذجَ الكيميـائي لا يحتـاجُ سـوىٰ إلىٰ توقُّـعِ أنَّ الحيـاةَ سـوف تنشـأُ عـلىٰ كوكـبٍ مـرَّت عليـه مليـارات المليـارات (مـن السِّـنين) ليُعطينـا تفسـيراً شـاملاً ومُرْضياً للحياةِ الحاليةِ هنا)[٣].

بناءً علىٰ هـذا النـوعِ مـن التَّفكـيرِ المنطقـي، الـذي يمكـن وَصْـفُهُ عـلىٰ أنَّـه تمـرينٌ جـريءٌ للخرافـة، كـلُّ شيءٍ نرغـبُ بوجـودِهِ فـلا بـدَّ أنْ يوجـد،

---

(١) Lewis Wolpert, Six Impossible Things Before Breakfast (London: Faber and Faber, 2006), 212 – 13.

(٢) Richard Dawkins, The God Delusion (London: Bantam, 2006), 137.

(٣) Dawkins, The God Delusion, 137 – 38.

فقط إذا (استَدْعينا الأرقامَ الكبيرة). الحيواناتُ وحيدةُ القَرْن لا بدَّ أنْ توجد، علىٰ عكسِ الحَدْس بأسْرِهِ. المُتطلَّبُ الوحيد الذي (تحتاجُهُ فقط لتوقُّعِ) ما يحدُثُ علىٰ كوكبٍ ما مرَّت عليه مليارات المليارات (من السِّنين) هو (النَّموذجُ الكيميائي).

* * *

الوعي
(CONSCIOSNESS)

لحُسْـنِ الحـظِّ، أنَّ الوَضْـعَ لـيس سـيِّئاً في دراسـاتِ الـوعي، عـلىٰ عكسِ الحـال في المجـالينِ السَّـابقين. هنـاك في الوقـتِ الحـالي وعـيٌ متزايـدٌ بالوعي.

نحنُ واعون، ونحنُ نعـي أنَّنـا واعـون. لا أحـد يمكـن أنْ يُنكِـرَ ذلـك دون أنْ يقـعَ في تنـاقُضٍ ذاتيّ، وإنْ كـان الـبعضُ يُصِـرُّ عـلىٰ ذلـك. المشـكلةُ تصـبحُ غـيرَ قابلـةٍ للحـلِّ عنـدما نُـدرِكُ طبيعـةَ الخلايـا العصـبية. أوَّلاً وقبـلَ كلِّ شيء، الخلايا العصـبية لا تُظهِـرُ تشـابُهاً مـع حياتِنـا الواعيـة. وثانيـاً وهـو أكثرُ أهمّيةً، أنَّ خصائصَ الخلايـا العصـبية الفيزيائيـة لا تُـوفِّرُ بـأيِّ حـالٍ مـن الأحـوال سـبباً للاعتقـادِ بـأنَّ بإمكانِهـا إنتـاج أو أنَّهـا سـوفَ تُنْـتِجُ وعيـاً. الـوعيُ يـرتبطُ بـبعضِ منـاطق الـدَّماغ، لكـن عنـدما توجـدُ أنظمـة الخلايـا العصـبية المُكوَّنـة مـن نيرونـات في جِـذْعِ الـدَّماغ، فإنَّهـا لا (تُنْـتِجُ) وعيـاً. كحقيقةٍ من الواقـع، وكـما أشـارَ العـالِمُ الفيزيـائي جيرالـد شرويـدر (Gerald Schroeder)، لا يوجدُ فَـرْقٌ جـوهريٌّ مـن الناحيـةِ الفيزيائيـة بـين كومـةٍ مـن الرَّملِ وعقـلِ آينشـتين. فقـط الإيـمانُ الأعمـىٰ الـذي لا أسـاسَ لـه في المـادَّةِ يقـفُ وراءَ الادِّعـاء بـأنَّ جُزيئـات (Bits) المـادَّة تسـتطيعُ (خَلْـقَ) حقيقـةٍ جديدةٍ لا تُشبِهُ المادَّة.

رغمَ أنَّ التيَّارَ العامّ لدراساتِ الجسد - العقل اليوم يعترفُ بواقعيةِ الوعي وما يستَتْبِعهُ من غموض، إلَّا أنَّ دانيالَ دينيت هو أحدُ القِلَّة من الفلاسفةِ الذين لا يزالون يتهرَّبون ممَّا هو واضح[1]. يقولُ دينيت بأنَّ السُّؤالَ عمَّا إذا كان هناك بعض الأشياء هي (واعية واقعاً)، سؤالٌ غيرُ مهمٍّ وغيرُ قابلٍ للإجابة، ويُؤكِّد علىٰ أنَّه يمكنُ للمكائنِ أنْ تكون واعيةً لأنَّنا مكائن واعية!

المدرسةُ الوظيفية (Functionalism)[2] هي (تفسيرُ) دينيت للوعي، حيثُ

---

(١) فيلسوف أمريكي معاصر، يُعتَبر من أعلام الإلحاد حالياً، وُلِدَ سنة (١٩٤٢م). من أبرز المؤيِّدين لنظرية التطوُّر، ومن خلالها يُفسِّر وعي الإنسان. في كتابه (الوعي المُفسَّر)، يجادل دينيت بأنَّه علىٰ الرَّغم من رفض غالبية الناس للثنائية الدِّيكارتية، مع عناصرها الفيزيائية والذِّهنية المنفصلة، إلَّا أنَّهم لا يزالون يعتقدون أنَّ الوعي عبارة عن منطقة أو عملية في الدَّماغ تجتمع عندها كلُّ المكوِّنات فيتحَّقق فيها الوعي؛ وكأنَّه يوجد خطٌّ نهاية للماضي عنده تصبح الأشياء واعية ويتمُّ عرضها علىٰ المسرح أو الشاشة لتكون موضع عناية الجمهور الدَّاخلي للفرد. يصفُ دينيت هذه الطريقة من التشبيه بأنَّها جذَّابة، لكن طريقة باطلة في فهم الوعي في المدرسة الدِّيكارتية المادِّية. (المراجع).

(٢) الوظيفية نظرية في فَلْسفة الذِّهن تقوم فكرتها الأساسية علىٰ أنَّ الحالات الذهنية تتقوَّم بدورِها الوظيفي فحَسْب. فمع ظهور الكمبيوتر في أواخر الثلاثينات، ظهرت أبعاد فلسفية لهذه التطوُّرات التكنولوجية. فثارت تساؤلات من قبيل: ما المقصود بكمبيوتر ذكي؟ ما هو الفرق بين ذكاء الإنسان وذكاء الكمبيوتر؟ آلان تورنج يُعتَبر من أعلام هذا المجال، حاول أنْ يجيب عن هذه الأسئلة سنة (١٩٥٠م)، فوضع اختباراً لتحديد ذكاء الآلة، فعُرِفَ هذا الاختبار بعد ذلك بـ(The Turing Test)، وكان الاختبار علىٰ النحو التالي: نضع جهاز كمبيوتر في غرفة، وإنسان في غرفة أُخرىٰ منفصلة، وثَمَّة حَكَم يتحدَّث إليهما عن طريقة رسائل نصية. الحَكَم لا يعرف في الغرفتين يوجد الكمبيوتر، وفي الأُخرىٰ الإنسان، وعليه أنْ يُحدِّد ذلك من خلال تلك الرسائل النصّية. لو عَجَزَ الحَكَمُ عن التمييز، فهذا يعني أنَّ الكمبيوتر يحاكي الإنسان (١٠٠٪)، وبالتالي فالكمبيوتر ذكي.

⇦

يقول: إنَّنا لا ينبغي أنْ نكونَ قلقين ممَّا يُقالُ له: (ظواهر عقلية). بدلاً من ذلك، ينبغي لنا أنْ نتحقَّق من الوظائفِ التي تقومُ بها هذه الظَّواهر. الألمُ هو شيءٌ يخلُقُ ردَّ فعلِ التَّفادي (avoidance reaction)؛ والفكرُ هو تمرينٌ علىٰ حلِّ المشكلة. لا يجب أنْ يُنظَرَ إلىٰ الوعي باعتبارِه حدثاً خاصًّاً وقعَ في موضعٍ خاصٍّ. كذلك الحالُ مع كلِّ ما يُسمَّىٰ (ظواهر عقلية). أنْ تكونَ واعياً يعني أنْ تقومَ بهذه الوظائف. ولأنَّ هذه الوظائف يمكنُ تكرارُها من خلالِ أنظمةٍ غير حيَّة (مثال: كمبيوتر يحلُّ مسائل)، فإنَّه ليس هناك أيّ غموضٍ بخصوصِ (الوعي). وبالتالي ليس هناك أيّ سببٍ موجبٍ للذَّهابِ إلىٰ ما هو وراء العالَمِ الفيزيائي (المادِّي).

لكن ما أغفلَتْهُ وجهةُ نظر دينيت هو حقيقة أنَّ كلَّ الأفعال العقلية تقترنُ بحالاتِ وعي (conscious states)، وهي الحالاتُ التي نكونُ فيها علىٰ إدراكٍ بما نقومُ به. لا تستطيعُ الوظيفيةُ بأيِّ حالٍ من الأحوال تفسيرَ أو أنْ تزْعُم القدرةَ علىٰ تفسيرِ الحالات التي نكونُ فيها مدْركينَ وواعين، نعرفُ ما نُفكِّرُ فيه (الكمبيوتر لا (يعرِف) ما يقومُ به). حتَّىٰ الآن، الوظيفيةُ لا تقولُ لنا شيئاً عمَّن هو المُدْرِك، من هو الواعي، ومن هو الذي يُفكِّر. يقولُ دينيت بطريقةٍ تثيرُ العَجَبَ: إنَّ أساسَ فلسفتِهِ يقومُ علىٰ (الشَّخصِ الثالثِ المطلق third-person absolutism)[1]،

⇦ من الواضح أنَّ آلان تورنج عرَّف ذكاء الآلة علىٰ أنَّه القدرة علىٰ محاكاةِ الإنسان. وهنا يظهر سؤال أكثر تعقيداً من الأوَّل: الكمبيوتر هل يمكن أنْ يُفكِّر؟ وما معنىٰ التفكير؟ وما هو الفرق بين الإنسان والكمبيوتر من ناحية التفكير؟ (المراجع).

(١) مصطلح (الشَّخص الثالث) رائجٌ اليوم في فَلْسفة الذِّهن، ويرتبط بمشكلةٍ فلسفيةٍ أثارها توماس ناجِل (Thomas Nagel)، سنة (١٩٧٤م)، في مقالةٍ له بعنوان: كيف سيكون حالُكَ لو كنْتَ خفّاشاً؟ (What Is it Like to Be a Bat?)، وهذه الخبرةُ الذِّهنيةُ هي الأشهر والأهمّ، التي أثارت مفهوم الوعي والخبرة الذَّاتية بالكيفية المحسوسة (Qualia). ⇦

وهو ما يجعلهُ في موقفٍ جازم بـ (أنا لا أُؤمِنُ بالـ أنا I do not believe in I).

ومن المثيرِ للاهتمام، أنَّ بعض أقوىٰ منتقدي دينيت والوظيفية هم في ذاتِهم علماءُ فيزياء، من أمثال ديفيد بابينو (David Papineau)، جون سيرل (John Searle) وغيرهم. جون سيرل بالخصوص حادٌّ في نقدِهِ لهذه النَّظرية(١)، حيثُ يقول: (إذا كنْتَ تميلُ إلىٰ الوظيفية، فأعتقدُ أنتَ لسْتَ

⇦ فكرةُ هذه الخبرة قائمة علىٰ أنَّكَ مهما ظفرْتَ بدراساتٍ عن الخفّاش وحياتهِ وإحساساتهِ وتكوينهِ الفسيولوجي والعصبي، فكلُّ هذه هي معلوماتٌ (من منظورِ الشَّخص الثالث)، أي معلوماتٌ عِلْميةٌ مادِّيةٌ واضحةٌ لأيِّ شخص، وتشمل كلَّ المعلومات المتعلّقة بالحالاتِ العصبية الدَّماغية للخفّاش. هذه المعلومات لن تستطيع الإجابة عن سؤال: كيف لكَ أنْ تعيشَ كخفّاش؟ أي لن تمكنك من تذوُّق الخبرة الذَّاتية التي يعيشُها الخفّاش نفسه (من منظورِ الشَّخص الأُولىٰ)، والتي تشمل الوعي والخبرة الذَّاتية بالكيفياتِ المحسوسة. إذن هي معلوماتٌ من منظورِ الشَّخص الثالث، مهما تكاثرت، لن تكفي لوصفِ أيّ خبرة ذاتية من منظورِ الشَّخص الأوَّل، لأنَّها ستظلُّ ناقصةً وفاقدةً للتصريحِ بالأحاسيس والخبرات الذَّاتية.

لاحظ أنَّ (الشَّخصَ الأوَّل) هو الذي يعيشُ الوعيَ كخبرةٍ حضوريةٍ بسيطة، و(الشَّخصَ الثاني) هو الذي يعي هذا الوعي كخبرةٍ حضوريةٍ مركَّبة، و(الشَّخصَ الثالث) هو الذي يدرُسُ الوعيَ كموضوعٍ خارجي، أي هو شخصٌ خارجيٌّ (أو كأنَّه خارجى)، لا يعيشُ بنفسِهِ خبرة الوعى التى يَدْرُسُها. (المراجع).

(١) استمرَّ الجدلُ الواسعُ حول هذه الأسئلة، إلىٰ أنْ جاء الفيلسوف الأمريكى جون سيرل (Searle) في سنة (١٩٨٠م)، وشرح تجربة ذهنية للتمييز بين أنواع الذكاء الاصطناعى، وأطلق علىٰ هذه التجربة اسم (الغرفة الصينية The Chinese room). يرىٰ سيرل أنَّ البرنامج ليس هو عقل الكمبيوتر، ولا يعطيه (وعياً). وتجربته هى كالتالي: لو جئنا بشخص لا يعرفُ شيئاً عن اللُّغةِ الصِّينية، وجلسَ في غرفة منعزلة، وأُعطى كتاباً بلُغتِهِ الأُمّ يشرح كيفية ترجمة الصِّينية إلىٰ لُغتهِ الأُمّ وبالعكس، ثمَّ بعد ذلك وجَّهنا له أسئلةً بالصِّينية، فهذا الشَّخصُ سوف يستعملُ هذا الكتاب حتَّىٰ يفهم الأسئلة بلُغتِه الأُمّ، ثمَّ يُترجِم إجاباته باللُّغةِ الصِّينية. السُّؤال: إلىٰ أيِّ درجةٍ سيظهر لمن هو خارج الغرفة أنَّ من بداخل الغرفة هو شخصٌ صيني؟ ⇦

بحاجةٍ إلىٰ تفنيد، أنتَ بحاجةٍ إلىٰ مساعدة)[١].

علىٰ النقيضِ من دينيت، دافعَ سامْ هاريس (Sam Harris) بقوَّةٍ عن واقعيةِ الوعي المتجاوزة للفيزياء. فقال: (المشكلةُ ليست حولَ الدِّماغ، عندما يُستكشَفُ كنظامٍ فيزيائي، فإنَّه يُظهِرُهُ علىٰ أنَّه حاملٌ لأمرٍ غريب الأطوار، بُعْدٌ داخليٌّ (interior dimension) يعيشُ فيه كلُّ واحدٍ منَّا، يخبُرُهُ كلُّ واحدٍ منَّا بوصفِهِ (وعياً)). والنتيجةُ هي مُروِّعة، يقول: (الوعيُ ظاهرةٌ أكثر بدائية (غير متطوِّرة) من الكائناتِ الحيَّة وأدمغَتِها. ولا يبدو أنَّ هناك طريقاً واضحاً لاستبعادِ (لاقصاءِ) مثل هذه الأُطروحة بطريقةٍ تجريبية)[٢].

يُحسَبُ لدوكينز أنَّه اعترَفَ بأنَّ واقعيةَ كلٍّ من الوعي واللُّغة تطرَحُ مشكلةً مُرْبكة. حيثُ قال: (أنا لا أستطيعُ، ولا ستيف بِنْكر (Steve Pinker)، تفسيرَ الوعي الذَّاتي الإنساني (human subjective consciousness)، وهو ما يُسمِّيه الفلاسفة (كويليا qualia) (= الوعي بالكيفياتِ المحسوسة). ففي كتابِهِ (كيف

⇦ النقطة الجوهرية هى هذه، لو اشتركت فرضية الغرفة الصينية باختبار آلان تورنج، فالأرجح أنَّها ستنجح، لأنَّ الحَكَمَ لن يُميِّزَ بين الرَّجُل الصِّينى والرَّجُل الذي لغته الأُمّ غير صينية. السُّؤال الآن: هذا الرَّجُل الذي يستخدم هذا الكتاب هل يفهم اللُّغة الصينية أم أنَّه مجرَّدُ محاكٍ لها باستخدامهِ للكتاب؟

يقول سيرل: إنَّ الفرقَ بين هذين الموقفين هو الفرقُ بين ذكاءِ الإنسان الواعى ذي الإدراك، وذكاء الآلة التى تحاكى الإنسان، واختبار آلان تورنج لن يتمكَّن من التمييز بين هذين النمطين من الذكاء. للتفصيل راجع: العقل لجون سيرل، ترجمة د. ميشيل متياس/ سلسلة عالم المعرفة (٣٤٣)/ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب/ ٢٠٠٧م/ الكويت. (المراجع).

(١) John Searle, The Rediscovery of the Mind (Cambridge, MA: MIT Press, 1992), 9.

(٢) Sam Harris, The End of Faith (New York: Norton, 2004), 208 – 9.

يعمَل العقل)، عرَضَ ستيف مشكلةَ الوعي الـذَّاتي، مـن أيـن أتـىٰ؟ ومـا هـو تفسيرُهُ؟ وكان نزيهاً بقَدْرٍ كافٍ للقول: (عليَّ أنْ أكونَ نزيهاً وأُصرِّح (الكلام هنا لـ ستيف)، وأنا أُردِّدُ ما قال (الكلام هنا لدوكينز). إنَّنا لا نعرفُ الجواب. إنَّنا لا نفهمُ تفسيراً لذلك)[1]. أمَّا ولبرت، فقد تجنَّبَ عمداً مسألةَ الوعي برُمَّتِها قائلاً: (لقد تجنَّبْتُ بشكلٍ متعمِّدٍ أيَّ نقاشٍ حول الوعي)[2].

* * *

(١) Richard Dawkins and Steven Pinker, "Is Science Killing the Soul?" The Guardian-Dillons Debate, Edge 53 (April 8, 1999).

(٢) Wolpert, Six Impossible Things Before Breakfast, 78.

الفكر

(THOUGHT)

ما وراء الوعي (Beyond consciousness)، هناك ظاهرةُ الفكرِ والفهمِ ورؤيةِ المعنىٰ. كلُّ استخدامٍ للُّغةِ يكشفُ ترتيباً للكونِ ذكياً غريزياً غامضاً. وكأساسٍ لكلِّ تفكيرِنا، عملياتُ التواصُلِ واستخدام اللُّغة هي قوَّةٌ خارقة. إنَّها قوَّةُ ملاحظة الاختلافات والتَّشابهات (differences and similarities) والتَّعميم[1] وعملية التَّجريد للظَّفرِ بالكُلِّيات (universalizing)[2]، وهو ما يُسمِّيهِ الفلاسفةُ (تصوُّرات concepts)، (كُلِّيات universals)، وما يُشبِهُ ذلك. هي قوَّةٌ طبيعيةٌ للبشر، مميَّزةٌ، وفريدةٌ من نوعِها. كيف يُمكِنُكَ، منذُ بدايةِ طفولتِكَ، أنْ تُفكِّرَ دونَ جهدٍ في كلبِكَ قيصر (Caesar) والكلابِ عموماً في آنٍ معاً[3]؟ أنت تستطيع أنْ تتصوَّرَ اللَّونَ الأحمرَ دونَ أنْ تتصوَّرَ بالخصوصِ شيئاً لونُهُ أحمر (اللَّونُ الأحمرُ بالتأكيدِ لا يوجدُ بنحوٍ مستقلٍّ، وإنَّما فقط في الأشياءِ الحمراء). أنتَ تُجرِّد (abstract) وتُميِّز (distinguish) وتُوحِّد (unify) دونَ

---

(١) أي الوصول إلىٰ أحكام عامَّة من ملاحظةِ حالات خاصَّة، وهو ما يجري في الاستقراء. (المراجع).

(٢) أي عملية انتزاع المفاهيم الكُلِّية من مصاديق جزئية، كانتزاع مفهوم (إنسان) الكُلِّي من ملاحظة زيد وعمرو وبكر... الخ. (المراجع).

(٣) يتحدَّث هنا عن قدرة الإنسان المحيِّرة علىٰ إدراك الجزئيات والكلِّيات في وقتٍ واحدٍ، مثل إدراك (هذا الكلْب)، و(الكلب) الكُلِّي أو قُلْ: فئة (الكلاب) عموماً. (المراجع).

أنْ يأخُذَ الأمرُ من تفكيرِكَ لحظةً واحدة. هذه القوَّةُ التي تُفكِّرُ بالتصوُّرات هي بطبيعتِها تتعالىٰ (transcends) عن المادَّة.

إذا كان هناك من يعترضُ علىٰ ذلك، فالاتِّساقُ يقتضي منه التوقُّف عن الكلامِ والتفكير. في كلِّ وقتٍ يستخدمُ هؤلاء اللُّغة، فإنَّهم يُظهِرُونَ الدَّورَ الواسعِ للمعنىٰ، التصوُّرات، المقاصد، والمنطق في حياتِنا. لذا من غير المُتعقَّل الحديثُ عن قدرةٍ مشابهةٍ لدىٰ المادَّة (لا عضْوَ في الجسدِ يمارسُ التفكير)، ولكن المعطياتُ التي تأتي من الحواسِّ كموادٍّ خامّ، يتِمُّ بكلِّ تأكيد توظيفُها في عمليةِ التفكير. بمجرَّد أنْ تُفكِّرَ في هذا الأمر لدقائقَ معدودة، سوف تعرفُ علىٰ الفورِ أنَّ الفكرةَ التي تقولُ بأنَّ التفكيرَ بشيءٍ ما هو مجرَّدُ عملٍ فيزيائيٍّ، تبدو سخيفةً ولا تستحقُّ التفكير فيها. لنقُل أنَّكَ تُخطِّطُ للقيامِ بنُزْهةٍ مع عائلتِكَ وأصدقائِك. فأنتَ حينها ستُفكِّرُ في أماكنَ مناسبة مختلفة لقضاءِ النُّزْهة فيها، وتُفكِّرُ في الأشخاصِ الذين تريدُ أنْ تدعوهم، والأشياءِ التي تريدُ أنْ تُحضِرَها معك، والسَّيارةِ التي سوفَ تستخدِمُها، وما يُشبِهُ ذلك. فهل من المتماسِكِ افتراضُ أنَّ التفكيرَّ بأيٍّ من هذه الأُمور هو عملٌ فيزيائيٌّ؟

النُّقطةُ المهمَّة هنا، إذا تكلَّمنا بنحوٍ دقيق، هي أنَّ دماغَكَ لا يفهم. وإنَّما أنتَ الذي تفهم. فدماغُكَ يُساعِدُكَ علىٰ الفهم، لكن ليس لأنَّ أفكارَكَ تحدُثُ في الدَّماغ، ولا (لأنَّكَ) سببُ انطلاقِ الخلايا العصبية. الأحرىٰ هو أنَّ فعلَكَ علىٰ أساسِ أنَّ فهمَكَ بأنَّ التخلُّصَ من الفَقْرِ هو شيءٌ جيِّد، عبارةٌ عن عمليةٍ شاملةٍ (holistic) لها جانبان، فهي عمليةٌ تتجاوزُ الفيزياء في جوهرِها (كمعنىٰ)، وهي عمليةٌ فيزيائيةٌ في التَّنفيذ

(ككلماتٍ وخلايا عصبية). الفعلُ (act) لا يمكن فصلُهُ إلىٰ فيزيائيٍّ وما يتجاوز الفيزياء، لأنَّه فعلٌ غيرُ قابلٍ للقسمةِ لفاعِلٍ هو جوهرياً فيزيائيٌّ ومتجاوزٌ للفيزياءِ في آنٍ معاً. هناك بُنْيةٌ (structure) للاثنينِ معاً، الفيزيائي والمتجاوز للفيزياء، ولكن تزاوجهُما شاملٌ جدّاً، بحيث أنْ لا معنىٰ للسُّؤالِ عمَّا إذا كانت أفعالُكَ فيزيائيةً أو متجاوزة للفيزياء أو مزيج منهما. إنَّها أفعالُ شخصٍ متجسِّدٍ و(متروْحِنٍ) بنحوٍ محتوم.

الكثيرُ من التصوُّراتِ الخاطئة عن طبيعةِ الفكر تنشأُ من التصوُّراتِ الخاطئة حول أجهزة الكمبيوتر. لكن دعونا نفترض أنَّنا نتعامل مع كمبيوترٍ خارقٍ مثل كمبيوتر الجين الأزرق (the Blue Gene)، الذي يقومُ بأكثر من مائتي تريليون عملية حسابية في الثانيةِ الواحدة.

خطأُنا الأوَّل أنْ نفترضَ أنَّ الكمبيوترَ الخارق مثلُ النَّحلة أو البكتيريا. في حالةِ النَّحلة أو البكتيريا نحنُ نتعاملُ مع فاعلٍ، هو مركزُ الفعل، أي يقومُ بعمليةٍ عضويةٍ مُوحَّدة ككُلٍّ. غايةُ أفعال هذا الفاعل كلّها هو الحفاظُ علىٰ وجودِهِ وتكاثُرِه. أمَّا الجينُ الأزرق فهو عبارةٌ عن قِطَعٍ تقومُ مجتمعةً أو منفردةً بعملياتٍ (مزروعةٍ implanted) مُوجَّهةٍ (directed) من خالِقِ هذا التَّجميع.

ثانياً، الكمبيوتر عبارةٌ عن حزمةٍ من أجزاءٍ لا تعرِفُ ماذا تفعل عندما تقومُ بمعالجةٍ ما (performs a transaction). تتِمُّ العمليات التي يقومُ بها الكمبيوتر الخارق استجابةً لُمعطياتٍ وأوامرَ هي مجرَّد إشارات إلكترونية صِرْفة ودوائر كهربائية وموصِلات. الإنسانُ يقومُ بالعملياتِ والمعالجاتِ نفسِها، باستخدامِ آليةٍ خاصَّةٍ بالدَّماغ، لكن هي تتمُّ من خلالِ مركز الوعي الذي يعي ما يقومُ به، ويفهم ما تمَّ إنجازُهُ، ويؤدِّي

كلَّ ذلك عن قَصْدٍ. في المقابل، لا يوجدُ فهمٌ، ولا إدراكٌ، ولا معنىٰ، ولا قصْدٌ، ولا شخصٌ يقومُ بذلك عندما يقومُ الكمبيوتر بالأفعالِ نفسِها، حتَّىٰ عند قيامِ الكمبيوتر بعملياتٍ متعدِّدةٍ (multiple processors) تُعالِجُ المعطيات بسُرْعاتٍ تفوقُ البشر. مُخرَجاتُ الكمبيوتر (تعني) لنا شيئاً (توقُّعات الطَّقس أو حسابك المَصْرفي)، لكن من زاويةِ حَزْمة القِطَع التي تُسمَّىٰ (كمبيوتر) فإنَّ الأرقامَ الثُّنائية (binary digits) الصِّفْر والواحد تؤدِّي إلىٰ نشاطاتٍ ميكانيكية. القولُ بأنَّ الكمبيوتر (يفهَم) ما يقومُ به، هو مشابهٌ للقولِ بأنَّ خطَّ الكهرباء يمكن أنْ يُفكِّرَ في مسألةِ الإرادة الحرَّة والحَتْمية، أو أنَّ الموادَّ الكيميائية في أنبوبِ الاختبار تُطبِّقُ مبدأَ عدم التَّناقُض (principle of noncontradiction) في حلِّ المسائل، أو أنَّ مُشغِّلَ الأقراص (DVD Player) يستمتعُ بالموسيقىٰ التي يعزِفُها.

* * *

الذَّات

(THE SELF)

من أهمِّ المفارقات التي تورَّطَ بها المُلْحِدُون الجُدُد، تلكَ التي هي أوضَح من كلِّ المعطيات: ذواتُهُم. الواقعُ الفيزيائي/ والمتجاوز للفيزياء (supraphysical/physical reality) الذي نعرِفُهُ من خلالِ الخبرةِ هو الخبرةُ ذاتُها، أعني ذواتنا.

بمجرَّد أنْ نُدرِكَ حقيقة أنَّ هناك منظور الشَّخص الأوَّل (first-person)[1] الذي يتكلَّم بصيغةِ (أنا)، (...ي) (الياء في مثلِ: (يَدِي) و(سيارتي))، وصيغ المُتكلِّم الأُخرىٰ، فإنَّنا نُواجِهُ أعظمَ لُغزٍ ككُلٍّ. مستذكرينَ لديكارت، (أنا موجودٌ)، إذن أنا أُفكِّرُ، وأشعُرُ، وأقصدُ (أنوي)، وأعني، وأتفاعَلُ. لكن من هو (أنا)؟ وأين هو؟ وكيف أتىٰ إلىٰ الوجود؟ من الواضِحِ أنَّ ذاتَكَ ليست مجرَّدُ شيءٍ فيزيائيّ، لكنَّها ليست متجاوزةً للفيزياءِ كذلك. إنَّها ذاتٌ مُتجسِّدةٌ، وجسَدٌ متروْحِن؛ فـ(أنتَ) لَسْتَ في خليةٍ معيَّنةٍ في الدَّماغِ أو جُزْءٍ من أجزاءِ الجسد. خلايا

---

(١) مرَّ في تعليقٍ سابقٍ أنَّ (الشَّخصَ الأوَّل) هو الذي يعيشُ الوعيَ كخبرةٍ حضوريةٍ بسيطة، و(الشَّخصَ الثاني) هو الذي يعي هذا الوعي كخبرةٍ حضوريةٍ مركَّبة، و(الشَّخصَ الثالث) هو الذي يدرُسُ الوعيَ كموضوعٍ خارجي، أي هو شخصٌ خارجيٌّ (أو كأنَّه خارجي)، لا يعيشُ بنفسِهِ خبرة الوعي التي يَدْرُسُها. (المراجع).

جسَدكَ تتغيَّر باستمرار، ومع ذلك فـ (أنتَ) تظلُّ كما أنت. عندما تدرُسُ خلاياكَ العصبية، فإنَّكَ تجدُ أنَّ أيَّاً منها لا يملِكُ خاصّيةَ أنْ تكون (أنا). بالطَّبعِ فإنَّ جسَدَكَ دخيلٌ في تكوينِ ذاتِك، لكن هو (جسَدٌ) لأنَّه جسَدٌ لـ (الذَّات). أنْ تكونَ إنساناً هو أنْ تكونَ مُتجسِّداً ومترْوِجناً.

في المقطَعِ الشَّهير من كتابِهِ (رسالةٌ في الطَّبيعةِ البشرية)[١]، يعلنُ هيوم أنَّه (عندما أتغلْغَلُ بصورةٍ حميميةٍ إلىٰ ما أدْعوهُ (ذاتي) دائماً أقَعُ علىٰ إدراكٍ خاصٍّ ما... ولا يمكنُ أنْ أُمسِكَ بنَفْسي في أيِّ وقتٍ بدونِ إدراكٍ حسِّيٍّ، كما لا يمكن أنْ أُلاحِظَ أيَّ شيءٍ سوىٰ الإدراك الحسِّيِّ). هنا هيوم يُنكِرُ وجودَ الذَّات، لأنَّه كما يقول لم يستطِع أنْ يجِدَ (ذاتَهُ). ولكن ما هو ذاكَ الذي يُوحِّدُ (unifies) خبراتِهُ المُتعدِّدة، ما هو ذاك الذي مكَّنَهُ من إدراكِ وجود العالَم الخارجي، والذي ظلَّ مستمرَّاً خلالَ هذه العملية؟ من هو ذاكَ الذي أثارَ هذه التَّساؤلات؟ هيوم يفترِضُ أنَّ (ذاتي myself) هي حالةٌ قابلةٌ للملاحظةِ (observable state) مثلُ تفكيرِهِ ومشاعرِهِ. ولكن الذَّات ليست شيئاً يمكنُ ملاحظتُهُ. إنَّها حقيقةٌ ثابتةٌ للخبرةِ (experience)، وهي في الحقيقة الأرضيةُ والأساسُ لكُلِّ الخبرات.

في الواقع، من بين كلِّ الحقائق المتاحة لنا، الذَّاتُ هي الأكثرُ

---

(١) (A Treatise of Human Nature)، ترجمه إلىٰ العربية عبد الكريم ناصيف/ دار الفرقد للطباعة والنشر/ الطبعة الأُولىٰ/ ٢٠١٦م/ دمشق/ سوريا. تجد هذه الفقرة تحت عنوان (الهوية الشخصية): ٢٦١ - ٢٧٢. (المراجع).

وضوحاً وغيرُ قابلةٍ للإنكـار، وفي الوقـتِ نفسِـهِ هـي الأكثـرُ خطـورةً لجميـع تيّـارات المدرسـة الفيزيائيـة (physicalism)[١]. في البدايـةِ، يجـبُ القـول: إنَّ إنكـارَ الـذَّات لا يمكـنُ ادِّعـاؤُهُ دونَ الوقـوعِ في تنـاقُضٍ. جـوابُ السُّـؤال (كيـف أعـرِفُ أنَّنـي موجـودٌ؟)، هـو الـرَّدُّ بسُـؤالٍ آخـر: (ومـن هـو السَّائل؟). الذَّاتُ هي مـا نحنُ عليـه، ولـيس مـا لـدينا. إنَّهـا الــ (أنـا) التـي منهـا ينبثـقُ منظورَنـا للشَّـخصِ الأوَّل (first-person perspective). نحـنُ لا نسـتطيعُ تحليـلَ الـذَّات، لأنَّهـا ليسـت حالـة عقليـة (mental state) يمكـن ملاحظتُها أو وصفُها.

الواقعيـةُ التـي نُـدْرِكُها الأكثـر أساسـية، إذن، هـي الـذَّاتُ البشـرية، وفهـمُ الـذَّاتِ يُلْقـي بـأثرِهِ حـتماً عـلىٰ بقيَّـةِ الأسـئلة الأساسـية، ويُقـدِّمُ لنـا معنـىٰ للواقـعِ ككُـلٍّ. نحـنُ نُـدرِكُ أنَّ الـذَّاتَ لا يمكـنُ وصـفُها، وبلُغـةِ الكيمياء أو الفيزيـاء: العِلْـمُ لا يكتشـفُ الـذَّاتَ، الـذَّاتُ هـي التـي تكتشـفُ العِلْمَ. نحـنُ نُـدرِكُ أنَّ الموقـفَ مـن تـاريخِ الكـونِ لـن يكـونَ متماسـكاً إذا لم يكن الموقفُ (account) من الذَّاتِ متماسكاً.

* * *

---

(١) هـذه المدرسـة ظهـرت سـنة (١٩٥٦م) عـلىٰ يـد آلـين بـلاس (Ullin T. Place). ففـي مقالـة لـه، شـبَّهَ العلاقـة بـين الحـالات العقليـة والحـالات العصـبية الدِّماغيـة بالعلاقـة بـين الـبرق والشـحنات الكهربائيـة. ولم تتطـوَّر أفكـار بـلاس لتظهـر كنظريـة متكاملـة إلَّا في عـام (١٩٥٩م) عـلىٰ يـد هربـرت فيجـل (Herbert Feigl) وسـمارت (J.J.C.Smart)، وخصوصـاً هذا الأخير الذي قال بكـلِّ صراحـة: (الإنسـان مـا هـو سـوىٰ ترتيـب ضـخم مـن الجسـيمات المادِّية، ولـيس هنـاك فـوق كـلِّ هـذا أيَّـة حـالات وعـي إضـافية). وهـذا يعنـي أنَّ الـوعيَ لا بـدَّ أنْ يُفسَّـرَ عـلىٰ ضـوء الجسـيمات المادِّيـة، وبالتـالي لا يوجـد عقـلٌ أو روحٌ منفصـلٌ عـن الدِّماغ. (المراجع).

الأصلُ المتجاوزُ للمادَّة (فوق المادَّة)
(THE ORIGIN OF THE SUPRAPHYSICAL)

كيف حدثَت الحياةُ والوعي؟ وكيف وُجِدَ الفكرُ والذَّات؟ يُبيِّنُ تاريخُ العالَمِ النشأةَ المفاجئةَ لهذه الظواهر؛ فالحياةُ ظهرت مباشرةً بعد أنْ برَدَ كوكبُ الأرض، وبرَزَ الوعيُ بغموضٍ في الانفجارِ الكمبري (Cambrian explosion)[1]، ونشأت اللُّغةُ من (الأنواعِ الرَّمزية symbolic species)[2] دون أيّ تطوُّر مُسْبق. نطاقُ الظَّاهرة محلّ النقاش يبدأُ مع: الشَّفْرةِ (Code)، نُظُمِ معالجة الرُّموز، السَّعي نحو غاية (goal-seeking)، والفاعلينَ بقصْدٍ لـ (intention-manifesting)، هذه الأُمورُ في الطَّرَفِ الأوَّل، في مقابلِ: الإدراك الذَّاتي، الفكر التصوُّري (conceptual thought)، والذَّات البشرية في الطَّرفِ الآخر.

الطَّريقُ المتماسكُ الوحيدُ لوصفِ هذه الظَّواهر هو القولُ: إنَّ لها أبعاداً مختلفةً من الوجود، وأنَّها ذاتُ طبيعةٍ تتجاوزُ الفيزياء بطريقةٍ أو بأُخرىٰ. هذه الظَّواهرُ دخيلةٌ بنحوٍ كاملٍ مع ما هو فيزيائي ولكن بصورةٍ (جديدةٍ) بشكلٍ جذري. نحنُ لا نتكلَّمُ هنا عن (أشباحٍ في آلات ghosts in machines)[3]، بل

(١) ظهور مفاجئ جيولوجي لمستحدثات أسلاف الحيوانات المألوفة ضمن السجل الأحفوري الأرضي.

(٢) إشارة إلىٰ كتاب تيرنس ديكون (Terremce Deacon) يجمع وجهات نظر من الأحياء العصبية ونظرية التطوّر والسميئيات.

(٣) مصطلح مشهور في فلسفة الذهن المعاصرة، ابتكره جلبرت رايل للتعبير عن ثنائية العلاقة بين المادّي والمعنوي، أو قل: بين الجسد/ العقل.

نتكلَّمُ عن فاعلينَ من أنواعٍ مختلفة، بعضُها واعٍ، والبعضُ الآخرُ واعٍ ويُفكِّر. وفي كلِّ حالةٍ لا وجود لمذهبٍ حيويٍّ (vitalism) أو ثنائية (dualism)، وإنَّما تداخلٌ بنحوٍ كامل (integration that is total)، شموليةٌ (holism) تتضمَّنُ ما هو فيزيائيٌّ وما هو ذهني.

علىٰ الرَّغمِ من أنَّ المُلْحدينَ الجُدُد فشلوا في استيعابِ طبيعة مصدر الحياة والوعي والفكر والذَّات، فإنَّ السُّؤالَ عن أصلٍ يتجاوزُ الفيزياء يبدو واضحاً: الأصلُ المتجاوز للفيزياء (فوق الفيزيائي) لا يمكن أنْ ينشأَ إلَّا من مصدرٍ غير فيزيائي. الحياةُ، والوعي، والذَّاتُ، لا يمكن أنْ تنشأَ إلَّا من مصدرٍ حيٍّ واعٍ ويُفكِّر. إذا كُنْتَ في مركزِ الوعي والفكر الذي يُمكِنُهُ أنْ يُحِبَّ ويقصدَ (ينوي) ويُنفِّذَ، فإنِّني لا أفهمُ كيف يمكن لمراكزِ هذه الأنشطة أنْ تأتي من شيءٍ ما غيرُ قادرٍ علىٰ مثلِ هذه الأنشطة.

علىٰ الرَّغمِ من أنَّ العمليات الفيزيائية البسيطة يمكن أنْ تخلُقَ ظواهر فيزيائية مُعقَّدة، فإنَّنا هنا لسْنا بصددِ الكلام عن العلاقةِ بين الظواهرِ البسيطة والمُعقَّدة، وإنَّما بصدَدِ البحث عن أصلِ (المراكز). بكلمةٍ، إنَّ من غيرِ المُتعقَّل أنَّ أيَّ مصفوفةٍ مادِّيةٍ (material array) أو حقلٍ يمكن أنْ يُنتجَ فاعلين يُفكِّرونَ ويفعلون. المادَّةُ لا يمكِنُها إنتاج إدراكات وأحاسيس. حقلُ القوَّةِ (A force field) لا يُفكِّرُ أو يُخطِّط. إذن علىٰ مستوىٰ المنطقِ والخبرةِ في الحياةِ اليومية، نصبحُ علىٰ إدراكٍ بنحوٍ مباشرٍ بأنَّ عالمَ الموجودات الحيَّة، والواعية، والمُفكِّرة أساسُهُ مصدرٌ حيٌّ، هو العقل.

* * *

الملحق الثاني:

الوحي الذَّاتي للإله في التاريخ البشري

حوارٌ مع ن. ت. رايت حول المسيح

أنتوني فلو

أسئلة عن الوحي الإلهي

حتَّىٰ الآن ناقَشْتُ المعطيات التي قادَتْني للقبولِ بوجودِ عقلٍ إلهي. أُولئكَ الذين يسمعون هذه الحُجَجَ سيتساءلونَ حتماً عن رأيي بخصوصِ ادِّعاءات الوحي الإلهي. في كلٍّ من كُتُبي ضدَّ اللَّاهوت - المنطقية، ومناظراتي المتعدِّدة، تناولتُ هذا الموضوع مع الكثيرِ من الادِّعاءات بشأنِ الوحي أو التدخُّل الإلهي.

إلَّا أنَّ موقفي الحالي هو أكثر انفتاحاً تجاهَ هذه الادِّعاءات. في الواقعِ، أنا أعتقدُ أنَّ الدِّينَ المسيحي هو بوضوح أكثر الأديان استحقاقاً للاحترامِ والتقدير[1]، بغضِّ النَّظَر عمَّا إذا كان موقفُهُ من الوحي الإلهي صادقاً.

ليس ثَمَّةَ دين يمتلكُ مزيجاً من: شخصيةٍ لها جاذبية كجاذبيةِ السيِّد المسيح، ومُفكّرٍ من الطِّرازِ الأوَّل مثل القدِّيس بولس (St. Paul)[2]. تقريباً كلُّ الحُجَج المتعلِّقة بالمحتوىٰ الدِّيني تمَّت صياغتها من قِبَلِ القدِّيس بولس، الذي كان يمتلكُ عقلاً فَلْسفياً ذكياً، وكان بمقدورِهِ التحدُّث والكتابة بكلِّ اللُّغات ذات الصِّلة. إذا كُنْتَ تريدُ من الإلهِ

---

(١) كلُّ الأديان السماوية جديرةٌ بالاحترام، لكن لا نتَّفق مع (فلو) في كونِ الدِّين المسيحي أكثرها استحقاقاً للاحترام والتقدير. ونتفهَّم موقفه باعتبارهِ نشأ في بيئة تشيع فيها المسيحية منذُ قرونٍ طويلة، ولم تتعرَّف علىٰ الإسلام الأصيل عن قُربٍ وعمق. (المراجع).

(٢) إنْ اتَّفقنا مع (فلو) في تعظيمهِ لشخصيةِ السيِّد المسيح، فلا نتَّفق معه في تعظيمهِ لبولس. (المراجع).

الذي هو علىٰ كلِّ شيءٍ قدير أنْ يُقيمَ ديناً، فهذا هو الدِّينُ الجديرُ بالمُراهنةِ عليه.

في الطَّبعاتِ الأُولىٰ من كتاب (الإله والفَلْسفة)، عالجْتُ الادِّعاءات المسيحية إلىٰ حدٍّ ما. وجادَلْتُ بأنَّ التقدُّمَ الهائل الذي أُحرِزَ في الدِّراساتِ النقدية للعهدِ الجديد وغيرِها من المصادر لتاريخِ أُصول المسيحية، لا يدَعُ لأُولئكَ الذين يُقدِّمونَ ادِّعاءات واسعة وكبيرة (مجالاً للاختباء). ثانياً، أنَّه لا يمكنُ معرفة وقوع المعجزات من خلالِ أدلَّةٍ تاريخية، وهذا يخلُّ بمصداقيةِ الادِّعاء بأنَّ قيامةَ المسيح يمكنُ معرفتُها باعتبارِها حقيقةً في التاريخ.

في مناظراتي المختلفة عن قيامةِ المسيح، قدَّمتُ نقاطاً متعدِّدة:

النُّقطةُ الأُولىٰ، هي: أنَّ أحدثَ الوثائق التي تُؤرِّخُ للحدَثَ المُدَّعىٰ، كُتِبَت بعد ثلاثين أو أربعين سنة من وقوعِه. لا توجد أدلَّةٌ معاصرةٌ لوقوعِ الحدث، وإنَّما مجرَّد وثائق كُتِبَت بعد وقوعِهِ.

النُّقطةُ الثانية، هي: أنَّنا لا نملِكُ وسيلةً للتحقُّقِ فيما إذا كان المسيحُ المَبْعوثُ قد ظَهَرَ واقعاً للمجموعاتِ التي ادَّعت رؤيتُهُ، لأنَّ ما لدينا من وثائقَ يقولُ فقط: إنَّ هذه الأحداث غير الاعتيادية قد وقعَتْ بالفعل.

والنُّقطةُ الأخيرة، هي: أنَّ الأدلَّةَ علىٰ قيامةِ المسيحِ محدودةٌ جدَّاً. في الحقيقةِ، وثائقُ العهدِ الجديد (New Testment) عن قيامةِ المسيح كانت هي رسائلَ بولس (Paul)، ولم تكن في الأناجيل (Gospels)، وهذه الرَّسائل تنطوي علىٰ تفاصيل حسِّية ضئيلة جدَّاً عن قيامةِ المسيح.

اليوم، أودُّ أنْ أقول بأنَّ التحدِّي المتعلِّق بقيامةِ المسيح أكثر تأثيراً من أيِّ تحدٍّ دينيٍّ آخر. لا أزالُ أعتقدُ بأنَّه عندما ينظُرُ علماءُ التاريخِ

بطريقةٍ احترافيةٍ إلىٰ أدلَّةِ قيامةِ المسيح، فإنَّهم يحتاجونَ إلىٰ أكثرَ بكثيرٍ ممَّا هو متوفِّر. فهم يحتاجونَ إلىٰ أدلَّةٍ من أنواعٍ مختلفة(١).

أعتقدُ أنَّ الادِّعاءَ بأنَّ الإلهَ كان قد تجسَّدَ في المسيح هو ادِّعاءٌ فريدٌ من نوعِه. من الصَّعبِ، كما أعتقد، تشخيصُ كيف يُمكِنُكَ الحُكْمُ علىٰ ذلك سوىٰ بالاعتقادِ أو عدم الاعتقاد. لا يُمكِنُني رؤية أنَّ هناك مبادئَ عامَّة تُرشِدُكَ إلىٰ ذلك(٢).

في سياقِ منظوري الجديد، لقد انخرَطْتُ في حوارٍ حول المسيح مع العالِمِ المعاصر الشَّهير في التاريخِ المسيحي الأسقف ن. ت. رايت (Bishop N. T. Wright) أُسْقُف دَرَهام، والباحث في العهدِ الجديد بأكسفورد. وفيما يلي ردودُهُ علىٰ بعضِ المواضيع التي طرحتُها في كتاباتي.

❊ ❊ ❊

---

(١) إنْ قطعنا النظر عمَّا صرَّح به القرآن بشأنِ مصير المسيح، واقتصرنا علىٰ ما لدىٰ المسيحيِّين من أدلَّة، فهذا الموقف بتقديري صحيح. فالنقاط التي ذكرها حول قيامة يسوع، قويَّة، وأدلَّة إثبات قيامتهِ علىٰ ضوءِ الوثائق التاريخية ضعيفة. لكن إنْ كانت قضيَّة قيامة يسوع هي القضيَّة المركزية في الدِّين المسيحي (التي علىٰ أساسِها شرَّقَ علماءُ الدِّين المسيحي وغرَّبوا، وأطلقوا ادِّعاءات تتعلَّق بأُلوهيةِ يسوع، والتثليث، وعقيدة الفداء)، فإنَّ التَّشكيكَ بوقوع هذه الحادثة كفيلٌ بضعضعةِ الدَّعائم الأساسية لهذا الدِّين.

أمَّا اليهود، فقد شاعَ بينهم - كما جاء في إنجيل متىٰ ٢٨: ١٢ - ١٥ - القولَ بأنَّ تلامذة يسوع قد جاؤوا ليلاً وسرقوا جسدَهُ.

لذا يَّتفق اليهود والمسيحيون علىٰ موتِ يسوع، ويُصِرُّ المسيحيون علىٰ قيامتِهِ، ويُنكِرُ اليهودُ ذلك. أمَّا نُقَّاد العهد الجديد فيُشكِّكونَ في إمكانيةِ إثبات ذلك من الناحيةِ التاريخية.

في حين أنَّ القرآنَ يُنكِرُ موتَ يسوع قصاصاً أصلاً، ويرىٰ أنَّهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧)، لذا فمسألةُ قيامتِهِ بعد موتِهِ منتفيةٌ، لأنَّها سالبةٌ بانتفاءِ موضوع الموت قصاصاً. (المراجع).

(٢) يقصد (فلو) أنَّ الاعتقادَ بتجسُّد الإله في يسوع هو اعتقادٌ لاهوتي (كلامي)، يصعُبُ تشييدُهُ علىٰ أُسُسٍ صَلْبة. لذا فإمَّا أنْ تؤمن بذلك أو لا تؤمن به. (المراجع).

ردُّ نيكولاس توماس رايت

(N. T. WRIGHT: RESPONSE)

كيف نعرف أنَّ المسيحَ قد وُجِدَ؟

مـن الصَّـعبِ جـدّاً أنْ أعـرِفَ مـن أيـن أبـدأ، لأنَّ الأدلَّـةَ المتراكمـةَ في الواقـعِ لصـالحِ المسـيح هائلـةٌ، بحيـث إنَّنـي كعـالِمِ تـاريخ، أقـولُ بـأنَّ لـدينا أدلَّة علىٰ المسيحِ أكثـرَ مـن أيِّ شـخصٍ في العـالَمِ القـديم. مـن الواضـحِ، أنَّ هناكَ بعض شخصيات العـالَمَ القـديم لـدينا لهـا تماثيـل ونُقُـوش. مـن ناحيـةٍ أُخـرىٰ، لـدينا أيضـاً تماثيـل لآلهـةٍ وإلهـاتٍ في العـالَمِ القـديمِ جـدّاً، لـذا لـن يكـونَ بمقـدورِكَ التأكُّـد مـن وجـودِ هـذه الشَّخصـيات. لكـن في حالـةِ المسيح، كـلُّ الأدلَّـةِ تشـيرُ بنحـوٍ مؤكَّـدٍ إلىٰ وجـودِ هـذه الشَّخصـية العظيمـة في العشـرينات إلىٰ الثلاثينـات مـن القَـرْنِ الأوَّل[1]. والأدلَّـةُ تتَّسِـقُ بنحـوٍ كبيرٍ مع ما نعرِفُـهُ عـن اليهوديـةِ في تلـك الحَقْبـة (علىٰ الـرَّغمِ مـن أنَّ الكثيرَ منها كُتِبَ بعد جيلٍ منه) بحيـث مـن الصَّـعبِ علىٰ أيِّ باحـثٍ تـاريخيٍّ اليـوم أنْ يشُـكَّ في وجـودِ المسـيح، وفي الحقيقـةِ، لا أعـرفُ أيَّ باحـثٍ تـاريخيٍّ يشُـكُّ في ذلـك. هنـاك شـخصٌ أو شخصـان. هنـاكَ رجُـلٌ اسـمُهُ ج. أ. ويلـس (G.A Wells)[2] هـو الوحيـدُ الـذي شـكَّكَ في ذلـك مُـؤخَّراً. مـن

---

(١) لمعرفـة المزيـد عـن الجـدل حـول وجـود المسيح التـاريخي، راجـع: قصَّـة الحضـارة لـول ديورانت ١١: ٢٠٢ - ٢٠٦. (المراجع).

(٢) جورج ألبرت ويلز، مؤرِّخ إنجليزي، وُلِدَ سنة (١٩٢٦م)، ما زال علىٰ قيد الحياة، أنكر الوجـود التاريخي للمسيح في كتابه (المسيح في المسيحية المبكرة)، الذي نُشِـرَ سنة (١٩٧١م)، وأكَّد ⇦

وقتٍ لآخرَ تجدُ شخصاً مثل ج. م. أليغرو (J. M. Allegro)[١]، كتَبَ قبلَ جيلٍ من الآن كتاباً استناداً إلىٰ مخطوطاتِ البحر الميِّت[٢]، قائلاً بأنَّ المسيحيةَ بأسرِها كانت تتعلَّق بعبادةِ الفِطْر المُقدَّس.

لا يوجدُ عالِمٌ يهوديٌّ، أو مسيحيٌّ، أو مُلْحِدٌ، أو لا أدريٌّ (agnostic)، أخَذَ هذا الكلام علىٰ محمَلِ الجدِّ علىٰ الإطلاق. من الواضِح جدّاً جدّاً أنَّ المسيحَ شخصيةٌ موثَّقةٌ في التاريخِ الواقعي. لذا لا بدَّ لهذا السُّؤال أنْ يُنحَّىٰ جانباً[٣].

***

⇨ علىٰ أنَّه مجرَّد شخصية أُسطورية، اصطنعها خيال الإنسان. لكن ابتداءً من سنة (١٩٩٠م)، غيَّرَ ويلز موقفه، وصار يُذعِن بأنَّ المسيح شخصية حقيقية وليست أُسطورية، ويبدو أنَّ رايت لم يطَّلع علىٰ هذا التغيُّر في موقف ويلز. (المراجع).

(١) جون ماركو أليغرو (١٩٢٣ - ١٩٨٨م) عالم آثار إنجليزي، متخصِّص بمخطوطات البحر الميِّت. أثار كتابه (الفِطْر المقدَّس والصَّلْب) الذي نشره سنة (١٩٧٠م) جدلاً واسعاً، حيث أنكرَ وجود المسيح التاريخي، وادَّعىٰ أنَّ المسيحية نشأت من طائفة سرِّية ارتبطت بعبادةِ الفِطْر المقدَّس، لأنَّ هذا النوع من نبات الفطر كان يؤدِّي إلىٰ السَّيطرة علىٰ الفكر والخيال، وينتهي إلىٰ النشوة والهلوسة، لذا رأوا فيه قدرة إلهية مقدَّسة، ناهيك عن كونهِ يشبه ذكر الرَّجُل الذي يرمُز للخصوبةِ التكاثر، ومن الفِطْر المقدَّس تمَّ استقاء فكرة الصَّلْب، لأنَّ الفِطْر يشبه الصَّليب الصَّغير! وهناك مقابلة معه مرفوعة علىٰ اليوتيوب، أجراها التلفزيون الهولندي، مدَّتها (٢١) دقيقة تقريباً. (المراجع).

(٢) مخطوطات البحر الميِّت تضمُّ ما يزيد علىٰ (٨٥٠) قطعة مخطوطة، بعضها ممَّا سُمِّي لاحقاً (الكتاب المقدَّس)، وبعضها من كُتُب لم تكن تُعرَف أو كانت مفقودة. وقد كانت في جرارٍ فخَّارية كانت مطلية بالنحاس. أوَّل من عثر عليها راعيان من بدو التعامرة المتجوّلين، واكتشف المزيد بين عامي (١٩٤٧ و١٩٥٦م) في (١١) كهفاً في وادي قمران، قرب خربة قمران شمال البحر الميِّت. وقد أثارت المخطوطات اهتمامَ الباحثين والمختصِّين بدراسة نصِّ العهد القديم، لأنَّها تعود لما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأوَّل منه.

(٣) نتَّفق مع رايت في وجودِ المسيح ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ التاريخي، ليس لإيمانِنا بالقرآن فحَسْب، بل لأنَّ الأدلَّة والشواهد التاريخية، من مُحبِّيه (في العهد الجديد)، وأعدائهِ (في التلمود)، والمحايدين، كلُّها تؤكِّد وجودَهُ. فلَسْنا من أُولئك الذين يُشكِّكون بوجوده التاريخي. (المراجع).

ما هي أُسُس الادِّعاء من النُّصوص بأنَّ المسيحَ هو الإلهُ المُتجسِّد؟

إيماني بالمسيحِ كابْنِ الله المُتجسِّد لا يستندُ إلىٰ مقاطعَ واردة في الإنجيلِ تدَّعي ذلك. إيماني بذَلك أعمقُ من ذلك بكثير، بل يعودُ في الحقيقةِ إلىٰ سؤالٍ مهمٍّ جدَّاً هو: كيف فهمَ يهود القَرْن الأوَّل الإلهَ، وفعلَ الإله في العالَم؟ وحتماً، كيهود هم عادوا إلىٰ المزامير[١]، وسِفْر أشعيا[٢]، وسِفْر التَّثنية[٣]، وسِفْر التَّكوين[٤]، وهلُمَّ جرَّاً. ونستطيعُ أنْ نرىٰ، في التراثِ اليهودي لزمنِ المسيح، كيف فسَّرَ هؤلاء هذه النُّصوص. لقد تكلَّموا عن الإلهِ الواحدِ الذي صَنَعَ الكون، وهو أيضاً إلهُ إسرائيل[٥]، وتكلَّموا عن هذا الإلهِ علىٰ أنَّه فاعلٌ في العالَم، حاضرٌ

---

(١) المزامير أو مزامير داود هي تسابيح لله، وأناشيد حمد وسجود وتمجيد له، وهي من أسفار العهد القديم من الكتاب المقدَّس.

(٢) سفر أشعيا من أسفار العهد القديم من الكتاب المقدَّس.

(٣) سفر التثنية أو سفر تثنية الاشتراع (بالعبرية: **דברים**) أحد أسفار الكتاب المقدَّس لدىٰ الدين اليهودي، ومن أسفار العهد القديم في المسيحية؛ ولا خلاف بين مختلف طوائف الدين اليهودي والمسيحي حول قدسيته.

(٤) سفر التكوين هو أوَّل أسفار التوراة (أسفار موسىٰ الخمسة)، وأوَّل أسفار التناخ، وهو جزء من التوراة العبرية، كما أنَّه أوَّل أسفار العهد القديم لدىٰ المسيحيين.

(٥) في التوراة وفي التراث اليهودي يُعتَبر اسم (إسرائيل) اسم بديل ليعقوب، وتظهر قصَّة تسمية يعقوب بإسرائيل في سفر التكوين.

ويفعل أشياءَ في العالَمِ وفي إسرائيل. وتكلَّموا عن ذلك بخمسةِ طُرُق (لا علاقة لذلك بطرق توما الأكويني الخمسة[١]!).

لقد تحدَّثوا عن كلمةِ الإله: الإله قالَ: كُنْ فكان؛ لقد قالَ اللهُ: (ليكُنْ نورٌ) فكانَ نورٌ. كلمةُ الإلهِ حيَّةٌ وفاعلة، وفي سِفْرِ أشعيا لدينا صورةٌ قويَّةٌ جدّاً عن كلمةٍ تنزِلُ من الأعلىٰ كالمطرِ أو الثَّلْج وتفعلُ أشياء في العالَم.

يتحدَّثون عن حكمةِ الإله. ونحنُ نرىٰ ذلك في الأمثالِ بشكلٍ خاصٍّ، بل وفي مقاطِعَ متعدِّدة كذلك. الحكمةُ تصبحُ تقريباً نوعاً من التعبيرِ عن (الذَّاتِ الثانية) للإله. حكمةُ الإلهِ فاعلةٌ في العالَمِ، وتقطُنُ في إسرائيل، وتقومُ بأشياءٍ تُساعِدُ الناسَ أنفُسَهم حتَّىٰ يصبحوا حُكماء.

يتحدَّثون عن مَجْدِ (جلال) الإله القاطن في الهيكل. علينا أنْ لا ننسىٰ أبداً أنَّ الهيكلَ بالنِّسبةِ ليهود القَرْن الأوَّل كان رمزاً للتجسُّد، وهم يؤمنون بأنَّ خالِقَ الكون قد وعَدَ بالمجيء، وأنْ يجعَلَ بيتَهُ في هذا المبنىٰ علىٰ الطَّريقِ إلىٰ القُدْس (أُورشليم). إلىٰ أنْ تذهبَ واقعاً إلىٰ القُدْس وتُفكِّر في هذا الأمر، فإنَّكَ واقعاً لن تُدرِكَ ذلك. بل هو أمرٌ غيرُ عاديٍّ علىٰ الإطلاق.

بعد ذلك، يتحدَّثونَ بالطَّبعِ عن ناموسِ (قانون) الإله، الذي هو (كاملٌ يرُدُّ النَّفْسَ) (كما جاءَ في المزمور ١٩: ٧). الناموسُ، مثلُ الحكمة، ليس مجرَّد قانونٌ مكتوب. إنَّه قوَّةٌ وجوديةٌ مسموعةٌ وحاضرةٌ من خلالِهِ عرَّفَ الإلهُ نفسَهُ (جعلَ نفسَهُ معروفاً).

ثمَّ، أخيراً يتحدَّثونَ عن رُوحِ الإله. روحُ الإلهِ التي تُسْرِعُ إلىٰ

(١) خمس حجج قدَّمها القدّيس توما الإكويني للبرهنة علىٰ وجود الإله.

شَمْشُون[١] في سِفْرِ القُضَاة؛ روحُ الإلـهِ التي تُمكِّنُ الأنبياءَ ليُصبحوا أنبياء؛ روحُ الإلـهِ القاطنة في البشر حتَّىٰ يتمكَّنوا من القيامِ بأشياء استثنائية لمجْدِ الإله.

هذه الطُّرُقُ الخمسة في الكلامِ عن فعلِ الإله في العالَمَ (الكلمة، الحكمة، المَجْد، الناموس، الرُّوح)، هي طُرُقٌ كان اليهودُ في القَرْنِ الأوَّلِ يُعبِّرونَ من خلالِها كلِّها عن إيمانِهِم بالواحدِ الذي يعرفونَهُ علىٰ أنَّه هو الإلهُ الأبديُّ، خالِقُ العالَمِ، الذي كان حاضراً وفاعلاً في العالَمِ، وبشكلٍ خاصٍّ في إسرائيل. وتستطيعُ رؤيةَ ذلك، ليس في العهدِ القديمِ فحَسْب، بل أيضاً في الآثارِ التي خلَّفَها العهدُ القديمُ في يهوديةِ القَرْنِ الأوَّل، في كتاباتِ الربَّانِيِّين[٢]، وفي مخطوطاتِ البحرِ الميِّت، وفي نصوصٍ أُخرىٰ مُشابهة.

الآن، عندما نأتي إلىٰ هذه الطُّرُقِ الخمسة في الأناجيل، نكتشفُ أنَّ يسوعَ لا يتكلَّم فقط، بل يتصرَّف (يفعل) أيضاً، كما لو أنَّ هذه الطُّرُقَ الخمسة تصبحُ بنحوٍ ما حقيقةً بطريقةٍ جديدةٍ من خلالِ ما يقومُ به. ونرىٰ ذلكَ بشكلٍ خاصٍّ في مثالِ الزَّارع[٣]. الزَّارعُ يزرَعُ الكلمة،

(١) شمشون بن منوح الدني (بالعبرية: שִׁמְשׁוֹן) من شخصيات العهد القديم، هو بطل شعبي من إسرائيل القديمة اشتهر بقوَّته الهائلة، وورد ذكره في سفر القضاة في الاصحاحات (١٣) إلىٰ (١٦).

(٢) الرَّبّانيّ في اليهودية، ويُسمّىٰ: الحبر. والراب والحاخام، هو زعيم ديني. كلمة حاخام العربية ترجع إلىٰ الكلمة العبرية (חכם) أي (حكيم).

(٣) أُنظر مثال الزارع في إنجيل متّىٰ ١٣: ١ - ٢٤، وإنجيل مرقس ٤: ١ - ٢٠، وإنجيل لوقا ٨: ١ - ١٥. وإليك هذا النموذج لهذا المثل من إنجيل لوقا: (فَلَمَّا اجْتَمَعَ جَمْعٌ كَثِيرٌ أَيْضًا مِنَ الَّذِينَ جَاؤُوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ، قَالَ بِمَثَل: «خَرَجَ الزَّارِعُ لِيَزْرَعَ زَرْعَهُ. وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضٌ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، فَانْدَاسَ وَأَكَلَتْهُ طُيُورُ السَّمَاءِ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَىٰ الصَّخْرِ، فَلَمَّا نَبَتَ جَفَّ لأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَهُ ⇦

والكلمةُ تقومُ بعملِها الخاصّ. لكن انتظر لحظة، من الذي يقومُ بعمليةِ التعليم؟ إنَّه يسوع بذاتِهِ.

ثمَّ يتحدَّث يسوعُ علىٰ هذا النَّحو عن الحكمةِ بطُرُقٍ مختلفة: حكمةِ الإله، حيثُ يقول: (أنا أفعلُ هذا، أنا أفعلُ ذلك). ويُمكِنُك تعقُّب أحاديث الحكمة في العهدِ القديم، ليس فقط في أقوالِ يسوع الفردية، بل في الطَّريقةِ التي كان يُمارِسُ فيها ما كان يقومُ به. كلامُهُ عن الرَّجُلِ العاقلِ الذي بنىٰ بيتَهُ علىٰ الصَّخر، والرَّجُلِ الجاهل الذي بنىٰ بيتَهُ علىٰ الرَّمل، هذه مراهنةٌ نموذجيةٌ علىٰ تعلُّم الحكمة[1]. لكن، انتظِر لحظة، الرَّجُلُ العاقلُ هو (كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِي هٰذِهِ وَيَعْمَلُ بِهَا). وهكذا فإنَّ الحكمةَ ويسوع متلازمانِ معاً بشكلٍ وثيقٍ جدَّاً.

⇦ رُطُوبَةٌ. وَسَقَطَ آخَرُ فِي وَسْطِ الشَّوْكِ، فَنَبَتَ مَعَهُ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ. وَسَقَطَ آخَرُ فِي الأَرْضِ الصَّالِحَةِ، فَلَمَّا نَبَتَ صَنَعَ ثَمَرًا مِئَةَ ضِعْفٍ». قَالَ هذَا وَنَادَىٰ:«مَنْ لَهُ أُذْنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ!». فَسَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ:«مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ هذَا الْمَثَلُ؟». فَقَالَ:«لَكُمْ قَدْ أُعْطِيَ أَنْ تَعْرِفُوا أَسْرَارَ مَلَكُوتِ الله، وَأَمَّا لِلْبَاقِينَ فَبِأَمْثَال، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ مُبْصِرِينَ لاَ يُبْصِرُونَ، وَسَامِعِينَ لاَ يَفْهَمُونَ. وَهذَا هُوَ الْمَثَلُ: الزَّرْعُ هُوَ كَلاَمُ الله، وَالَّذِينَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، ثُمَّ يَأْتِي إِبْلِيسُ وَيَنْزِعُ الْكَلِمَةَ مِنْ قُلُوبِهِمْ لِئَلاَّ يُؤْمِنُوا فَيَخْلُصُوا. وَالَّذِينَ عَلَىٰ الصَّخْرِ هُمُ الَّذِينَ مَتَىٰ سَمِعُوا يَقْبَلُونَ الْكَلِمَةَ بِفَرَح، وَهؤُلاَءِ لَيْسَ لَهُمْ أَصْلٌ، فَيُؤْمِنُونَ إِلَىٰ حِينٍ، وَفِي وَقْتِ التَّجْرِبَةِ يَرْتَدُّونَ. وَالَّذِي سَقَطَ بَيْنَ الشَّوْكِ هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ فَيَخْتَنِقُونَ مِنْ هُمُومِ الْحَيَاةِ وَغِنَاهَا وَلَذَّاتِهَا، وَلاَ يُنْضِجُونَ ثَمَرًا. وَالَّذِي فِي الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ، هُوَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَحْفَظُونَهَا فِي قَلْبٍ جَيِّدٍ صَالِحٍ، وَيُثْمِرُونَ بِالصَّبْرِ). (المراجع).

(١) أُنظر إنجيل متّىٰ ٧: ٢٤ – ٢٧: (فَكُلُّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِى هٰذِهِ وَيَعْمَلُ بِهَا، أُشَبِّهُهُ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ، بَنَىٰ بَيْتَهُ عَلَىٰ الصَّخْرِ. فَنَزَلَ الْمَطَرُ، وَجَاءَتِ الأَنْهَارُ، وَهَبَّتِ الرِّيَاحُ، وَوَقَعَتْ عَلَىٰ ذٰلِكَ الْبَيْتِ فَلَمْ يَسْقُطْ، لأَنَّهُ كَانَ مُؤَسَّسًا عَلَىٰ الصَّخْرِ. وَكُلُّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِى هٰذِهِ وَلاَ يَعْمَلُ بِهَا، يُشَبَّهُ بِرَجُلٍ جَاهِلٍ، بَنَىٰ بَيْتَهُ عَلَىٰ الرَّمْلِ. فَنَزَلَ الْمَطَرُ، وَجَاءَتِ الأَنْهَارُ، وَهَبَّتِ الرِّيَاحُ، وَصَدَمَتْ ذٰلِكَ الْبَيْتَ فَسَقَطَ، وَكَانَ سُقُوطُهُ عَظِيماً). (المراجع).

بعـد ذلـك، بالتَّحديـد الهيكـل. حيـثُ يتصـرَّفُ يسـوع كـما لـو كـان الهيكـلُ قـد تجسَّـدَ في شخصِـهِ. عنـدما يقـولُ يسـوع: (مغفـورةٌ لـكَ خطايـاكَ)[١]، فهـي صَـدْمةٌ حقيقيـةٌ، لأنَّ غفـرانَ الخطايـا يُعلَـنُ عـادةً عنـدما تذهَبَ إلىٰ الهيكلِ وتُقـدِّمُ قُرْبانـاً (أُضْحِية). ولكـن يسـوع يقـولُ لـك: إنَّـكَ تستطيعُ أنْ تفعلَ ذلك هنـا في الشَّـارع. عنـدما تكونُ مـع يسـوع، فأنـتَ كـما لو كُنْتَ في الهيكل، وهو يُحدِّقُ في مَجْدِ الإله.

عنـدما نـأتي إلىٰ النـاموسِ اليهـودي، نكتشـفُ شـيئاً رائعـاً. أحـدُ العلـماءُ اليهـودُ الكبـارُ في يومِنـا هـذا، يعقـوب نوسـنر (Jacob Neusner)[٢]، الـذي كتَـبَ العديـدَ مـن الكُتُـبِ الرَّئيسـية في اليهوديـة، كتَـبَ كتابـاً عـن يسوع. في هذا الكتـاب يقـولُ نوسـنر: إنَّـه عنـدما يقـرأ أنَّ يسـوع قـال أشـياءً مثـل: (لقـد سِـمِعْتُم أنَّـه قيـلَ كـذا وكـذا، وأمَّـا أنـا فـأقولُ لكـم هـذا وهـذا وهذا)، أريـدُ أنْ أقـولَ ليسـوع هـذا: مـن تعتقـد نفسَـك؟ الإلـه؟ لقـد قـدَّمَ يسـوع ناموسـاً جديـداً، قـدَّمَ تفسـيراً جـذرياً جديـداً للنـاموس، ويـدَّعي بمعنىٰ ما أنَّه تجاوزَ الطَّريقةَ التي كان يُفهَمُ أو يُفسَّرُ بها الناموس.

وأخيراً هناكَ الرُّوح، يقولُ يسوع: (وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ أَنَا بِـرُوحِ اللهِ أُخْـرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ!)[٣].

فما نراهُ ليس كما لو كانَ يسوع يدَورُ بين الناسِ قائلاً: (أنا هـو الشَّـخصُ الثاني من الثالوث. إمَّا أنْ تؤمنوا بذلك أو لا). هذه في الواقع ليست هي الطريقة

---

(١) وردت في مـواطن متعـدِّدة، أُنظـر عـلىٰ سـبيل المثـال: إنجيـل متّـىٰ ٩: ٥، إنجيـل مـرقس ٢: ٥، إنجيل لوقا ٥: ٢٠. (المراجع).

(٢) عالم دين يهودي أمريكي، وُلِدَ سنة (١٩٣٢م)، وتوفّي سنة (٢٠١٦م). (المراجع).

(٣) إنجيل متّىٰ ١٢: ٢٨. (المراجع).

لقراءةِ الأناجيل. بل الأحرىٰ أنْ تُقرأَ كما قرأَها المُؤرِّخونَ في القَرْنِ الأوَّل، بحيث يُمكِنُنا أنْ نرىٰ يسوع يتصرَّف بحيث نقول جميعًا: هذه القصَّةُ العظيمةُ ككُلٍّ حول إلهٍ جاءَ ليكونَ مع الناس، قد حدثَت بالفعل.

إنَّه ليس فقط عبْرَ كلمةٍ أو حكمةٍ أو غيرِها. إنَّه فيَّ، وكشخصٍ. إنَّه الشَّيء الذي يجمَع كلَّ ذلك معاً (كتبْتُ هذا في الفَصْلِ قبل الأخير من كتابي (يسوع ونصر الإله Jesus and the victory of God))، هو أنَّ الكثيرَ من اليهودِ في زمنِ يسوع كانوا يعتقدونَ أنَّ (يَهْوَه Yahweh)، إلهُ إسرائيل سوفَ يعودُ في شخصٍ ليعيشَ في الهيكل. تجدُ ذلكَ في سِفْر حزْقيال، سِفْر أشعيا، سِفْر زكريا[1]، والعديد من النُّصوص اللاحقة.

ولذلك هم يعيشونَ علىٰ أمل أنَّ الإلهَ سيعودُ يوماً ما، لأنَّ الإلهَ عندما يعود، فهو بالطَّبع سيطرُد زُمرةَ الرُّومان، وسيُعيد بناءَ الهيكل بنحوٍ يليقُ به، وليس علىٰ طريقةِ هيردوس (Herod)[2] التي قامَ بها. هناك سلسلةٌ من التوقُّعات تتعلَّق بعودةِ الإله. وبالتالي نجدُ في الأناجيل هذه الصُّورةَ الاستثنائية عن يسوع، حيثُ يقومُ بالرِّحلةِ الأخيرةِ إلىٰ القدس، (حاكياً قصَصَ المِلك الذي عاد).

لقد جادَلْتُ، كما جادَلَ آخرون، بأنَّ يسوع عندما كان يحكي قصَصَ المِلك الذي عادَ إلىٰ شعبِه، أو السيِّد الذي عادَ إلىٰ خدَمِه، لم يكن يتحدَّث علىٰ طريقةِ

---

(١) من أسفار الكتاب المقدَّس (العهد القديم).

(٢) هوردس أو هيرودس (العبرية: הוֹרְדוֹס) (٧٣ قبل الميلاد - ٤ قبل الميلاد)، هو ابن الدبلوماسي انتيباتر الإدومي من زوجته النبطية، عُيِّن حاكماً علىٰ الجليل ثمّ أصبح ملك اليهودية. وقد بسط نفوذه علىٰ المنطقة الممتدَّة من هضبة الجولان شمالاً إلىٰ البحر الميِّت جنوباً، وكانت أيّام حكمه تُمثِّل ازدهاراً ثقافياً واقتصادياً، وقد كان حليفاً أميناً للإمبراطورية الرومانية، كان مقرُّه في مدينة القدس، أي أُورشليم، وقد اشتهر بمشاريع البناء الفاخرة التي بادرها في هذه المدينة، ومنها بناء معبد القدس الكبير المسمّىٰ هيكل سليمان.

العودة الثانية في المستقبل. لم يكن التلاميذ مهيَّئينَ لذلك. حتَّىٰ إنَّهم لم يكونوا يعلمون بأنَّه ذاهبٌ ليُصْلَب. يسوع كان يحكي لهم قصَصاً حول أهمِّيَّة رحلتِهِ إلىٰ القدس، وهو كان يدعو من له أُذْنان للسَّمْعِ فليَسْمَع ليأخذوا هذه الصُّورةَ لـ (يَهْوَه Yahweh) في العهدِ القديم إلىٰ صهيون (Zion)[1]، ويضعُوها نُصْبَ أعيُنِهم عندما يرونَهُ كنبيٍّ شابٍّ يسافرُ إلىٰ القدسِ راكباً أتاناً (أُنثىٰ الحمار).

أعتقدُ أنَّ يسوع قد خاطَرَ بحياتِهِ (أو راهنَ علىٰ حياتِهِ) - بنحوٍ حَرْفيٍّ - علىٰ اعتقادِهِ بأنَّه طُلِبَ لـ (تجسيدِ) عودة يَهْوَه إلىٰ صهيون. الآن، (تجسُّد embody) كلمةٌ إنجليزية. المقابلُ اللاتيني لها هو (incarnation). لكنَّني أُفضِّلُ كلمةَ (embody)، علىٰ الأقلِّ في الأماكنِ التي أتحدَّثُ بها، حيث يمكنُ للناسِ استيعابَها أكثر من اللَّفظ اللاتيني. لكنَّها تُؤدِّي نفسَ المعنىٰ.

أنا أعتقدُ فعلاً أنَّ يسوع اعتقدَ بأنَّهُ طُلِبَ منه أنْ يتصرَّفَ علىٰ أساسِ هذا الافتراض. وأعتقدُ أنَّ ذلك كان مُخيفاً بشكلٍ كبيرٍ ليسوع. أعتقدُ أنَّه كان يعرفُ بأنَّه قد يكونُ مُخطِئاً في الواقع. بعد ذلك كلِّهِ، بعضُ الناسِ ممَّن يُصدِّقُ بشيءٍ من هذا القبيل قد ينتهي به المطافُ ليُصبِحَ مثل الرَّجُل الذي يعتقدُ بأنَّه إبريقٌ من الشَّاي. أعتقدُ أنَّ يسوع كان يعرفُ أنَّ تلك كانت هي دعوتُهُ، وأنَّه يجبُ أنْ يتصرَّفَ بتلك الطَّريقة، ليعيشَ ويعمَلَ علىٰ أساسِ تجسيد عودة إله إسرائيل إلىٰ شعبِهِ. لهذا السَّبب أودُّ أنْ أقول: إنَّ يسوع، بعد موتِهِ وقيامِهِ (وهذه قصَّةٌ مختلفةٌ تماماً. سنأتي إليها قريباً) سُرْعانَ ما تمَّ تشخيصُهُ من قِبَلِ أتباعِهِ علىٰ أنَّه المُجسِّد لإلهِ إسرائيل. واجهوا قيامَهُ، وعادوا بعدَ ذلك في عقولِهم، استرجعوا كلَّ الأشياء التي شاهدوها، وسَمِعُوها، وعرَفوها عن يسوع، وبمجرَّد أنْ حَدَثَ

---

(١) صهيون (بالعبرية: צִיּוֹן) ومعناها الحصن، هو واحد من التلين الذين كانت تقوم عليها مدينة أُورشليم القديمة حيث أسس داود عاصمته الملكية.

ذلك، صفعوا وجوهَهُم وقالوا: (هل شخَّصْتُم مع من كُنْتُم كلّ هذا الوقت؟ لقد كُنَّا مع شخصٍ تجسَّدَ فيه إلهُ إسرائيل). ثمَّ راحوا يحكونَ القصَصَ مراراً عن يسوع بشيءٍ من الرَّهبةِ والهَلَع والإدراك المتأخِّر، وتأمَّلُوا فيما كان يحدُثُ طوالَ ما مضىٰ من الوقت.

هذه فكرةٌ استثنائيةٌ جبَّارة. ومع ذلك، فإنَّ هذه الفكرةَ تُعطي معنىٰ عميقاً ومتجذِّراً تاريخياً لطريقةِ رؤية يسوع لنفسِهِ. الآن بالتأكيد يمكنُ لأيِّ شخصٍ أنْ يقولَ لي: (حسناً، قد تكون علىٰ حقٍّ. قد يكون يسوع بالفعل نظَرَ إلىٰ نفسِهِ علىٰ هذا النحو. وقد يكون تلاميذُهُ انتهوا إلىٰ التفكيرِ بذلك أيضاً. لكن من الواضح أنَّ المسيحَ كان مخطئاً، إمَّا لأنَّنا نعلَمُ قَبْليَّاً بأنَّه إذا كان هناك إلهٌ فإنَّه لا يمكنُ أنْ يكونَ إنساناً، وإمَّا لأنَّنا نعلَمُ قَبْليَّاً بأنَّ أيَّ شخصٍ يعتقدُ تجاهَ نفسِهِ أنَّه واقعاً هكذا يجب أنْ يكونَ مجنوناً أو مختلاً عقلياً أو مخدوعاً).

لهؤلاءِ أُريدُ أنْ أقول: حسناً، علِّقوا هذه القَبْليَّات للحظةٍ، وحاولوا فقط أنْ تستحضروا صورةَ يهود القَرْن الأوَّل وهم يعتقدونَ ويتصرَّفونَ علىٰ هذا أساسِ ما ذكرْتُ. وبعد ذلكَ اطْرحوا السُّؤالَ عن قيامةِ المسيح. وبعدها اطْرحوا جميعَ أسئلتكُم الأُخرىٰ عمَّا نعنيهِ بكلمةِ (إله). لأنَّ المسيحيِّين الأوائل قالوا علىٰ نحوٍ مُؤكَّدٍ بأنَّ كلمةَ (الإله) لا زالت غامضة، وأنَّها تصبحُ واضحةً فقط عندما نظُرُ إلىٰ يسوع. يقولُ يوحنَّا: (لم يرَ أحدٌ الإلهَ في أيِّ وقتٍ، ولكن الابنُ الوحيدُ المولود، الذي يعيشُ في حُضْنِ الأب، هو الذي جعلَهُ معروفاً). وفقاً للُّغةِ اليونانية، فإنَّ المعنىٰ الحرفي لهذا الكلام: (هو قَدَّمَ لنا تفسيراً للإله، هو أرانا من هو الإلهُ واقعاً).

إنَّه جوابٌ طويلٌ لسؤالٍ حيوي، لكن لا أعتقدُ أنَّ بإمكاني اختصارهُ أكثرَ من ذلك. معظمُ الناسِ، حسب خبرتِنا، لا يُفكِّرونَ من خلالِ السُّؤال بالمسيحِ

والإلهِ بهذه الطَّريقة. ولكن هذه هي الطَّريقة، كما أعتقد، التي فكَّـرَ بهـا المسـيحُ بنفسِهِ والمسيحيون الأوائل، وكذلك أُولئكَ الذين كتبوا الأناجيل، ومن المناسبِ أنْ نجعَلَ عقولَنا تدورُ حول هذه الطَّريقة[1].

* * *

(١) لو قطعنا النظر عن المحاذيرِ العقلية للادِّعاء بأنَّ يسوع هو إلهٌ مُتجسِّد، يبقىٰ استدلال رايت علىٰ ذلك ضعيفٌ للغاية، من جهاتٍ عدَّة. ويكفـي أنْ نعـرف أنَّ التعـاليم الكرسـتولوجية (حقيقـة المسيح) التي يقول بها المسيحيون لم تتبلور إلَّا عبْرَ قرونٍ طويلة، وكانت ثمرة المؤتمرات والمجامع المسكونية التي عُقِدَت منذ القرن الرابع الميلادي. أي إنَّ هذه التعاليم لم تظهر في زمن المسيح ولا بعده. ومن يعتقد أنَّ المسيح أو تلامذتـه قـد أشـاروا إلىٰ لاهوتـه وبُنُوَّتـهِ وتجسُّـدِ الإلـه فيـه، لا يملكون الأدلَّة الكافية لإثباتِ ذلك. بل المتتبِّع لأناجيل العهد الجديد بشكلٍ دقيق يلاحـظُ أنَّهـا تنادي بعكس ذلك (باستثناء إنجيل يوحنَّا الذي كُتِبَ بعد عقدين أو ثلاثة مـن كتابـةِ الأناجيـل الثلاثة: متّىٰ، مرقس، لوقا)، وتُثبِت بأنَّ المسـيحَ إنسـانٌ مرسَـلٌ مـن قِبَـلِ الله إلىٰ بنـي إسرائيـل، يُذَكِّرهم بشريعةِ آبائهم.

والذي يتتبَّع التاريخ في القرنين الأوَّلين من ميلادِ المسيح، يجد أنَّ الاعتقادَ بإلهٍ واحدٍ هو أسـاسُ الدِّين المسيحي، وأنَّ المسيحَ هو نبيٌّ مرسَلٌ إلىٰ بني إسرائيل. ولكـن مـع بدايـةِ اعتنـاق شـعوب شتَّىٰ من الوثنيين اليونان وغيرهم مـن الرُّومـان والمصـريين لهـذا الـدِّين، وكانـت الوثنيـة قـد تأصَّلت فيهم، نشأت فِرَق ومذاهب مختلفة، تعتقد كلٌّ منها في حقيقـةِ المسـيح وشخصـيتِهِ رأيـاً يخالفُ الأُخرىٰ. وقد أدَّت هذه الاختلافات، وفي أحيانٍ كثيرة، إلىٰ قتلٍ وتشـريدِ الكثير من آبـاءِ الكنيسة، وظهر الحرمـانُ واللَّعـنُ والتكفـيرُ والاتِّهـامُ بالهرطقـةِ في أوسـاط المـذاهب المسـيحية المختلفة، وأحياناً كان سببُ هذه الاضطهادات هي المجامع المسكونية نفسـها. وفي خضـمِّ هـذه الفوضىٰ العقائدية، التي ظهرت في أهمِّ عقيدة في الدِّين المسيحي، استطاعت الكنيسـة بسـطوتِها وقوَّتِها، أنْ تفرض عقيدة لاهوت المسيح وبُنُوَّتِهِ ومساواتِهِ للأب في الطبيعةِ والجوهر.

لمزيد من المعلومات، راجع:

لا هوت المسـيح لعـلىٰ الشـيخ/ مركـز الأبحـاث العقائديـة/ مؤسَّسـة الرافـد للمطبوعـات/ ٢٠٠٩م/ ط ١/ قم/ إيران.

Bart Ehrman, Lost Christianities, Oxford University Press, **2003**.

Bart Ehrman, JESUS BEFORE THE GOSPELS, Harper One, New York, **2016**. (المراجع).

ما هي الأدلَّةُ المتوفِّرة على قيامةِ يسوع؟

دعوني أختصر قَدْرَ الإمكان. لقد قرأَ والدي كتابي المُطوَّل (قيامةُ ابنِ الإله The Resurrection of the Son of God) عندما كان في الثالثة والثمانين من عمرِهِ. استغرقَتْ منه قراءةُ الكتابِ المُكوَّن من (٧٠٠) صفحة ثلاثةَ أيّام. لقد رَكَّزَ علىٰ قراءةِ الكتاب بشكلٍ كاملٍ خلالَ هذه الأيّام، دون أنْ ينشغل بشيءٍ آخر، وبعدها اتَّصَلَ بي هاتفياً وقالَ لي: (لقد انتهيتُ من قراءةِ الكتاب)، فتعجَّبْتُ من ذلك. فقال: (نعم لقد قرأتُهُ، وقد بدأتُ استمتعُ بقراءتِهِ بعد الصَّفحة رقم ٦٠٠). اعتقدْتُ أنَّ كلامَهُ لا يخلو من المجاملةِ الفاترة. لقد اعتادَ والدي علىٰ العمل في صناعةِ الأخشاب. قُلْتُ لوالدي: (هل تعلم يا أبي أنَّ الصَّفحات الخمسمائة هي جذْرُ النِّظام (root system). وأنَّ الشَّجرةَ إنْ لم يكن لها جذرٌ، فإنَّها لن تكون قادرةً علىٰ الانتصاب ولن تُعطي أيَّةَ ثمرة؟). ردَّ والدي قائلاً: (لقد أدركتُ ذلك، لكنِّي أُفضِّلُ دائماً الفروعَ العُلْيا من الشَّجرة).

لذا أنا بحاجةٍ للعودةِ إلىٰ الحديثِ عن جذْرِ النِّظام (root system) قليلاً. من الأُمورِ التي استمتعْتُ بها عند تأليفِ الكتاب، كان هو العودة إلىٰ الأُسُسِ التقليدية والبحث عن معتقداتِ الحياة بعد الموت، عند اليونانيِّين والرُّومانيِّين والمِصْريِّين. وهناك تنوُّعٌ كبيرٌ في المعتقداتِ بهذا الشَّأن، ولكن الاعتقادُ بـ (القيامةِ) ليس موجوداً في العالَمِ اليوناني والرُّوماني. في الحقيقةِ، يقولُ بليني (Pliny)، وإسخيلوس (Aeschylus)، وهوميروس (Homer)، وشيشرون (Cicero)، وجميعُ أنواع الكُتَّاب الأوائل بأنَّنا (نعرِفُ بالتأكيد أنَّ القيامةَ لا

تحدُثُ). الآن، في الوقتِ نفسِهِ، طوَّرَ اليهودُ اعتقاداً لاهوتياً مُحَدَّداً عن القيامة: وهو (أنَّ شعبَ الإلهِ سوف يُبْعَثُ في آخرِ الزَّمان جسدياً إلىٰ الحياةِ بعد موتِهِ). عاملُ الوقتِ مهمٌّ للغاية، لأنَّ معظمَ المسيحيِّين في العالَمِ الغربي يستخدمون كلمة (قيامة resurrection) بشكلٍ غامضٍ علىٰ أنَّها تعني (الحياة بعد الموت)، وهو ما لم يحدُث أبداً في العالَمِ القديم. لقد كان المُصْطَلحُ علىٰ الدَّوامِ مُحَدَّداً جدَّاً، وهو ما أُسمِّيه الحياة (بعد) موتٍ سبقَهُ حياة.

بعبارةٍ أُخرىٰ: أنتَ أوَّلاً تموت، أنتَ ميِّتٌ وغيرُ حيٍّ جسَديَّاً، وبعد ذلك (تقوم) (تُبعَث)، بمعنىٰ أنَّكَ تعيشُ حياةً جسديةً جديدة، وهي حياةٌ جديدةٌ (بعد) موتٍ مسبوقٍ بحياة.

نستطيعُ تعقُّب الطَّريقة التي يُتكلَّم بها عن معتقدِ (القيامة) في الدِّينِ اليهودي. القيامةُ هي سلسلةٌ من مرحلتين: بعد موتِكَ مباشرةً (أنتَ) تدْخُلُ في مرحلةِ انتظار[١]؛ وبعد ذلك تنتقلُ إلىٰ مرحلةِ حياةٍ جديدةٍ تماماً تُسمَّىٰ (القيامة). الآن، في الكتابِ الذي استمتَعْتُ بكتابتِهِ، رسَمْتُ خريطةً عن المعتقداتِ اليهودية في موضوعِ الحياة بعد الموت علىٰ ضوءِ خريطةٍ أكبر من المعتقداتِ القديمة لموضوعِ الحياة بعد الموت. وهناك ضمن الدِّين اليهودي نفسه تبايُنات بهذا الخصوص.

الفريسيون (Pharisees)[٢] آمنوا بالقيامةِ، ويبدو أنَّ هذا كان هو اعتقادُ

(١) وهي عقيدة مشابهة لعقيدة عالم البرزخ عند المسلمين.

(٢) الفريسيون أحد الأحزاب السياسية الدينية التي برزت خلال القرن الأوَّل داخل المجتمع اليهودي في فلسطين؛ يعود أصل المصطلح إلىٰ اللغة الآرامية ويشير إلىٰ الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين؛ كان الفريسيون يتبعون مذهباً دينياً متشدِّداً في الحفاظ علىٰ شريعة موسىٰ والسنن الشفهية التي استنبطوها. كان الفريسيون علىٰ خلاف دائم مع الصدوقيين الذين أنكروا القيامة والملائكة والأرواح.

الأغلبيةِ في فلسطين اليهودية في زمنِ يسوع. الصَّدوقيون (Sadducees)[١] لم يؤمنوا بالحياةِ بعد الموتِ علىٰ الإطلاق، وبالتأكيد لم يعتقدوا بالقيامة. وقد اعتقدَ أشخاصٌ مثل فيلون وربَّما الأسينيون (وهذا محلُّ جدل) بحياةٍ روحيةٍ (غير جسدية) خالدةٍ واحدة، بحيث أنَّكَ بعد الموتِ تذهبُ إلىٰ حيثُ تذهب وتبقىٰ هناك، بدلاً من أنْ تمرَّ بخبرةِ (القيامة) اللاحقة[٢].

هذا هو أكثرُ ما يثيرُ الاهتمام، لأنَّه في كلِّ المجتمعات التي خضعت للدِّراسةِ بهذا الصَّدَد، تجدُ الناسَ في معتقداتِ الحياة بعد الموت محافظين جدَّاً. وفي مواجهةِ الموت، يميلُ الناسُ إلىٰ المعتقداتِ والممارساتِ التي يعرفونَها، التي أخذوها عن عوائلِهم ومن عاداتِهم ومن قُراهُم، وهكذا تتمُّ طُقُوسُ الدَّفن. لذا فإنَّه من اللافتِ للنَّظَرِ حقَّاً أنَّ المسيحيِّين الأوائل المعروفين لدينا، حتَّىٰ نهاية القَرْن الثاني عندما بدأ الغنوصيون (Gnostics)[٣] باستخدامِ كلمة (القيامة) بمعنىٰ مختلفٍ تماماً، فإنَّ كلَّ المسيحيِّين الأوائل المعروفين لدينا، خلال الأجيال الأربعة أو الخمسة الأُولىٰ، اعتقدوا بقيامةٍ بنحوٍ جسَديٍّ في المستقبل، رغمَ أنَّ أغلبَهُم جاءَ من عالَمٍ وثني، كانت فكرةُ القيامة تعتبرُ فيه هراءً مُطلقاً.

---

(١) الصدوقيون هم أحد الأحزاب الدينية السياسية التي نشأت ضمن الدين اليهودي وذكرت في العهد الجديد؛ فمن المعروف أنَّه خلال القرن الأوَّل قبل الميلاد، انقسم المجتمع الديني اليهودي إلىٰ عدد من الأحزاب والجماعات السياسية داخل المؤسَّسة الدينية، وقد كان أكبر حزبين هما الصدوقيون والفريسيون.

(٢) بمعنىٰ عدم وجود حياة برزخية.

(٣) الغنوصية (أو العارفية أو العرفانية) هي مدرسة عقائدية أو فلسفية حلولية نشأت حول القرن الأوَّل الميلادي. أخذت الغنوصية طوراً جديداً لدىٰ ظهور المسيحية لإثبات تواؤم المعتقدين. وكانت لا تتعارض مباشرةً مع الديانات التوحيدية كالمسيحية واليهودية ولكنَّها تمَّ مقاومتها وقمعها من قِبَل الكنيسة منذ فترة مبكرة.

هناك أُسطورةٌ حديثةٌ تدورُ هذه الأيّام تقولُ: إنَّنا نحنُ فقط من يمتلكُ عِلْماً معاصراً لفترةِ ما بعد التنوير[1]، الذي اكتشفَ أنَّ الأمواتَ لا يُبْعثون. هؤلاء الناس السَّابقون إذن، كانوا فقراء في المعرفة وغير مُتنوِّرين، لذا اعتقدوا بكلِّ تلك المعجزات المجنونة. لكن هذا باطلٌ. هناك نصٌّ جميلٌ لـ سي. إس. لويس (C. S. Lewis) مُتعلِّقٌ بهذا الموضوع. كان يتكلَّم عن حَمْلِ العذراء بالمسيح، وأنَّ سبَبَ قلق يوسف (Joseph)[2] بشأنِ حَمْل مريم، ليس لأنَّه لم يكن يعلم من أينَ جاءَ هذا الحَمْل، بل كان يعلَم مصْدَرهُ. وكذلك الحالُ مع قيامةِ المسيح. فالناسُ في العالَمِ القديم كان يَشْعرونَ بالاضطراب عندما يُواجِهُونَ الادِّعاء المسيحي، لأنَّهم كانوا يعتقدون بنحوٍ كاملٍ بأنَّ من يموت يظلُّ ميِّتاً إلىٰ الأبد.

وماذا نجدُ بعد ذلك - وهذا بالنِّسبةِ لي هو ما يثيرُ دهشتي إلىٰ أقصىٰ درجة - هو ما يمكن تعقُّبهُ، في المسيحيةِ المبكِّرة، من تعديلاتٍ مُتعدِّدةٍ في الاعتقادِ اليهودي التقليدي بما يتعلَّق بالقيامة.

أوَّلاً: أنَّه بدلاً من قيامةٍ ستقعُ لجميعِ شعب الإله في النِّهاية، فإنَّ المسيحيِّين الأوائل قالوا: إنَّ القيامةَ تختصُّ في البدايةِ برجُلٍ واحدٍ فقط. الآن، لا يوجد يهوديٌّ في القَرْنِ الأوَّل، في حدودِ معرفتِنا باليهود، كان يعتقدُ بأنَّ القيامةَ مختصَّةٌ برجُلٍ واحدٍ يُبعَثُ قبل كلِّ البشر. ورغمَ أنَّ الفكرةَ جديدةٌ، إلَّا أنَّ الجميعَ اعتقدَ بها.

ثانياً: أنَّهم اعتقدوا أنَّ القيامةَ تنطوي علىٰ (تحوُّلٍ) للجسَدِ الفيزيائي. هؤلاء اليهود الذين اعتقدوا بالقيامة، يبدو أنَّهم ذهبوا في اتِّجاهين: فالبعضُ قالَ:

---

(١) عصر التنوير ويُسمّىٰ عصر الأنوار (بالفرنسية: Siècle des Lumières) مصطلح يشير إلىٰ القرن الثامن عشر في الفلسفة الأُوروبية والذي برز فيه مفكِّرون وفلاسفة الأنوار.

(٢) المقصود يوسف النجَّار، الذي كان - وفقاً للأناجيل - خطيباً للعذراء مريم. (المراجع).

إنَّ القيامةَ ستخلُقُ جسداً جديداً مشابهاً تماماً لما نحنُ عليه، في حين ذهبَ آخرونَ إلىٰ أنَّ هذا الجسدَ سيكونُ جسداً نورانياً، يُضيءُ مثل النَّجم. المسيحيون الأوائل لم يقولوا بأيٍّ من هذين القولين. وإنَّما تكلَّموا عن نحوٍ جديدٍ من الفيزيائية (physicality) – وهذا واضحٌ جدّاً من بولس، لكن ليس وحدَهُ – عن نمطٍ جديدٍ من التجسُّد (embodiedness)، فهو بالتأكيد جسَدٌ بمعنىٰ أنَّه جمادٌ وله حَجْم، لكن يبدو أنَّه قد تحوَّلَ لذا لم يعُد الآن يحُسُّ بالألمِ أو المعاناةِ او الموت. تلك الصُّورةُ للقيامةِ ليست موجودةً في اليهودية.

ثالثاً: أنَّهم اعتقدوا أنَّ المسيحَ نفسَهُ قد بُعِثَ من جسدٍ ميِّتٍ، وهو ما لم يعتقد به يهودُ الهيكل الثاني (Second Temple)، لأنَّ يهودَ الهيكل الثاني كانوا يعتقدون أنَّ المسيحَ لن يُقتَلَ أبداً. لذا هذا كان أمراً جديداً.

رابعاً: هم يستخدمونَ فكرةَ (القيامة) بطريقةٍ جديدةٍ تماماً. في اليهوديةِ، تمَّ استخدامُ هذه الفكرة في استعارةِ (مجاز metaphor) (العودة من المنفىٰ)، كما نجِدُها في سِفْر حزْقيال (Ezekiel)، الإصحاح (٣٧)[١].

(١) ورد في الإصحاح (٣٧) من هذا السفر: (كَانَتْ عَلَيَّ يَدُ الرَّبِّ، فَأَخْرَجَني بِرُوحِ الرَّبِّ وَأَنْزَلَنِي فِي وَسْطِ الْبُقْعَةِ وَهِيَ مَلآنَةٌ عِظَامًا، وَأَمَرَّنِي عَلَيْهَا مِنْ حَوْلِهَا وَإِذَا هِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا عَلَىٰ وَجْهِ الْبُقْعَةِ، وَإِذَا هِيَ يَابِسَةٌ جِدًّا. فَقَالَ لِي: «يَا ابْنَ آدَمَ، أَتَحْيَا هذِهِ الْعِظَامُ؟»، فَقُلْتُ: «يَا سَيِّدُ الرَّبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ». فَقَالَ لِي: «تَنَبَّأْ عَلَىٰ هذِهِ الْعِظَامِ وَقُلْ لَهَا: أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْيَابِسَةُ، اسْمَعِي كَلِمَةَ الرَّبِّ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِهذِهِ الْعِظَامِ: هأَنَذَا أُدْخِلُ فِيكُمْ رُوحًا فَتَحْيَوْنَ. وَأَضَعُ عَلَيْكُمْ عَصَبًا وَأَكْسِيكُمْ لَحْمًا وَأَبْسُطُ عَلَيْكُمْ جِلْدًا وَأَجْعَلُ فِيكُمْ رُوحًا، فَتَحْيَوْنَ وَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ».
فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أُمِرتُ. وَبَيْنَمَا أَنَا أَتنبَّأُ كَانَ صَوْتٌ، وَإِذَا رَعْشٌ، فَتَقَارَبَتِ الْعِظَامُ كُلُّ عَظْمٍ إِلَىٰ عَظْمِهِ. ونَظَرْتُ وَإِذَا بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ كَسَاهَا، وبُسِطَ الْجِلْدُ عَلَيْهَا مِنْ فَوْقُ، وَلَيْسَ فِيهَا رُوحٌ. فَقَالَ لِي: «تَنَبَّأْ لِلرُّوحِ، تَنَبَّأْ يَاابْنَ آدَمَ، وَقُلْ لِلرُّوحِ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَلُمَّ يَا رُوحُ مِنَ الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ وَهُبَّ عَلَىٰ هؤُلاَءِ الْقَتْلَىٰ لِيَحْيَوْا». فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أَمَرَنِي، فَدَخَلَ فِيهِمِ الرُّوحُ، فَحَيُوا وَقَامُوا عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ جَيْشٌ عَظِيمٌ جِدًّا جِدًّا.

⇦

ولكن في المسيحيةِ المبكِّرة - وأعني هنا المسيحية المبكِّرة جدًّا، علىٰ سبيلِ المثال، بولس - نجدُ أنَّ هذه الفكرةَ تمَّ استخدامُها وربطُها بالتعميدِ (baptism)[١]، والقداسةِ (holiness)، ومفاهيم أُخرىٰ من المسيحيةِ الحيَّةِ التي لم تكن في بالِ اليهودية واستخداماتِها لكلمةِ (قيامة). ومرَّة أُخرىٰ، تظهرُ فكرةٌ جديدةٌ تماماً، وتغيُّرٌ مهمٌّ في شكلِها كما هي من وجهةِ النَّظَر اليهودية.

خامساً: نجدُ أنَّ (القيامةَ) بالنِّسبةِ للمسيحيِّين الأوائل تأتي كما لو كانت شيئاً ما تجلَّىٰ الإلهُ من خلالِهِ للبشر. والمسيحيون مَدْعوون للعملِ مع الإله لتحقيقِ ما انطلَقَ في الفَصْح (Easter)[٢] ولتوقُّع ما سيفعلُهُ إلهُ

⇨ ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا ابْنَ آدَمَ، هذِهِ العِظَامُ هِيَ كُلُّ بَيتِ إِسْرَائِيلَ. هَا هُمْ يَقُولُونَ: يَبِسَتْ عِظَامُنَا وَهَلَكَ رَجَاؤُنَا. قَدِ انْقَطَعْنَا. لِذلِكَ تَنَبَّأْ وَقُلْ لَهُمْ: هكذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هأَنَذَا أَفتَحُ قُبُورَكُمْ وأُصْعِدُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي، وَآتِي بِكُمْ إِلَىٰ أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ عِنْدَ فَتْحِي قُبُورَكُمْ وَإِصْعَادِي إِيَّاكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي. وأَجْعَلُ رُوحِي فِيكُمْ فَتَحْيَوْنَ، وَأَجْعَلُكُمْ فِي أَرْضِكُمْ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ وَأَفْعَلُ، يَقُولُ الرَّبُّ» (١ - ١٤). (المراجع).

(١) التعميد أو المعمودية هي طقس مسيحي يُمثِّل دخول الإنسان الحياة المسيحية. تتمثَّل المعمودية باغتسال المعمَّد بالماء بطريقة أو بأُخرىٰ. الشخص الذي يجري تعميده يصبح تابعاً ليسوع المسيح وتابعاً للكنيسة المسيحية. والعماد يُمثِّل موت يسوع المسيح وقيامته في الحياة الجديدة. أيضاً الطفل المعمَّد يُخلَّص من الخطيئة الأصلية التي هي خطيئة آدم وحوّاء ويدخل الحياة مرَّة أُخرىٰ كإنسان جديد. وبحسب الاعتقاد المسيحي، فإنَّ أوَّل عماد في التاريخ كان عماد المسيح علىٰ يد يوحنّا المعمَّدان في نهر الأُردن.

(٢) عيد القيامة (باليونانية: Πάσχα)، ويُعرَف بأسماء عديدة أُخرىٰ أشهرها عيد الفصح وأحد القيامة، هو أعظم الأعياد المسيحية وأكبرها، يستذكر فيه قيامة المسيح من بين الأموات بعد ثلاثة أيّام من صلبه وموته كما هو مسطور في العهد الجديد، وفيه ينتهي الصوم الكبير الذي يستمرُّ عادةً أربعين يوماً؛ كما ينتهي أُسبوع الآلام، ويبدأ زمن القيامة المستمرّ في السنة الطقسية أربعين يوماً.

العالَمَ الجديد في النِّهاية[١]. وهـذه الفكـرةُ جديـدةٌ للغايـة، لكنَّهـا تُمثِّـلُ تطـوُّراً فقط في إطارِ الدِّين اليهودي.

سادساً: كـما نجـدُ في المسـيحيةِ المبكـرة، أنَّ (القيامـةَ) قـد انتقلـت مـن كونهـا عقيـدةً مهمَّـةً مـن ضـمنِ عقائـد عديـدة مهمَّـة - كـما هـو الحـالُ في اليهوديـة - إلىٰ أنْ تُصبِحَ مركـزَ كـلِّ شيء. اقتَطِعْهـا مـن بـولس، أو قُـلْ مـن بُطْرس، الوحي، أو آبـاء القَـرْن الثـاني العِظـام، سـتجدُ أنَّـكَ دمَّـرْتَ بنـاءهُم الفكري كلَّهُ. لا بدَّ أنْ نصلَ إلىٰ نتيجـةٍ مفادُهـا أنَّ شـيئاً مـا قـد حـدَثَ جعـلَ (القيامةَ) تنتقلُ من الإطارِ الخارجي إلىٰ المركز.

سـابعاً وأخـيراً: في المسـيحيةِ المبكِّـرة، لا نجـدُ طيفـاً للاعتقـادِ بـما يقـع بعـد المـوت. أمَّـا في اليهوديـةِ، فهنـاك وجهـاتُ نظَـرٍ متعـدِّدة، وفي العـالَمِ الوثني هناك أيضـاً عـددٌ كبـيرٌ مـن وجهـاتِ النَّظَـر بهـذا الخصـوص، ولكـن في بواكيرِ المسيحية لا نجدُ سوىٰ شيئاً واحداً: القيامةَ في ذاتِها.

من المسلَّم به كم أنَّ معظَمَ الناس شديدو المحافظة في آرائِهم حول الحياة بعد الموت، وهذا بحقٍّ مثيرٌ للدَّهشة. ولذا يبدو أنَّ المسيحيِّين الأوائل كان لديهم سببٌ منطقيٌّ لإعادةِ التفكير في هذا الاعتقاد الهامّ والشَّخصـي جـدًّاً. وعنـدما ننظُر إلىٰ الطَّيفِ الفكري لبواكيرِ المسيحية، نرىٰ أنَّ المسيحيِّين الأوائل قد اختلفوا في أُمورٍ كثيرة، إلَّا أنَّهم أجمعوا بصورةٍ تثيرُ الدَّهشة ليس علىٰ القيامةِ كاعتقادٍ لهم فحَسْب، بل أجمعوا أيضاً علىٰ كيفيةِ حصولِها وكيف تحدُثُ، وكلُّ ذلك شرحتُـهُ في كتابي بالتفصيل.

كلُّ هذا يفرِضُ علينا كمُؤرِّخين أنْ نسأَلَ سؤالاً سهلاً جـدًّاً: لمـاذا أجمَـعَ المسيحيون الأوائل المعروفين بالنِّسبةِ إلينا، منذُ أقدمِ الأزمان، إجماعاً مُلْفتاً، علىٰ

(١) هذه الفكرة شبيهة بمفهوم ليلة القدر الذي تُقدَّر فيه أعمال البشر.

القيامةِ رغمَ كونِها رؤية جديدة؟ هذا السُّؤالُ التاريخي مثيرٌ للاهتمام بحدِّ ذاتِـهِ. بالتأكيد، سوف يرُدُّ المسيحيون الأوائل بأسْرِهِم بالقول: (لقد كـان لـدينا هـذا الاعتقاد بالقيامةِ بسبب ما نؤمن به تجاهَ يسوع). إنْ كانت الفكـرةُ القائلـة بـأنَّ يسوع بُعِثَ من جسدٍ ميِّتٍ قد ظهرت بعد عشـرين أو ثلاثـين سـنة مـن بدايـةِ المسيحية، كما يقول بعضُ الباحثين المُشكِّكين، فإنَّكَ سوف تعثُر علىٰ الكثيرِ مـن الشَّواهد التي تُبيِّن أنَّه لم يكن هناك مكانٌ لفكرةِ القيامة في بـواكيرِ المسـيحية، أو إذا وُجِدَت شواهدُ علىٰ فكرةِ القيامة، فستجدُ أنَّ لهـا شـكلاً آخـرَ يختلـفُ عـن الفكرةِ المُحدَّدةِ جدّاً التي تجدُها في المسيحيةِ المبكِّرة. لذلك، فإنَّ إجماع المسيحيين الأوائل علىٰ الاعتقادِ بالقيامة علىٰ نطاقٍ واسعٍ، يدفعُنا إلىٰ القـولِ بـأنَّ شـيئاً مـا مُحدَّداً قد (حَدَثَ) قبلَ ذلك بوقتٍ طويلٍ ممَّا شـكَّلَ وصَـبَغَ التحـرُّك المسـيحي ككُلٍّ.

عنـد تلـك النُّقطـة لا بـدَّ مـن القـول: (حسـناً ومـاذا عـن قصَـصِ الإنجيـل؟ مـاذا عـن الإصـحاح الثـامن والعشـرين مـن إنجيـل متَّـىٰ (Matthew)[1]، وماذا عن القصَّـةِ الـواردة في الإصـحاحِ السَّادس عشـر مـن إنجيـل مـرقس (Mark)[2]؟ ومـاذا عـن القصَّـةِ الأطـول منهـا الـواردة في

(١) إنجيل البشير متّىٰ (حرفيـاً (نُسِبَت إلىٰ الرسـول متّـىٰ)). هـذا الإنجيـل هـو أحـد الأناجيـل الأربعـة التـي هـي ضـمن العهـد الجديـد الكتـاب الـذي يعتمـده المسيحيون في حيـاتهم. الأناجيل الأربعة التي هـي ضـمن العهـد الجديـد مـن الكتـاب المقدَّس، والتـي تـمَّ طباعتهـا بصورة تقليدية ابتـداء مـن: متّـىٰ، ويليـه وبحسـب الترتيـب مـرقس ولوقـا ومـن ثَـمَّ يوحنّـا. إنجيل متّىٰ يُسمّىٰ تقليدياً بإنجيل متّىٰ البشير أو المبشِّر.

(٢) إنجيل البشير مرقس تقليدياً هو الإنجيل الثاني في تسلسل الأناجيل الأربعة في العهد الجديد من الكتاب المقدَّس للمسيحيين، ويسمىٰ إنجيل مـرقس البشـير أو المبشِّـر. يشـرح ويحكـي هـذا الإنجيل عن حياة المسيح ابتداءً بـيوحنّا المعمَّدان إلىٰ صعود المسيح إلىٰ السماء بعد قيامته من بـين الأموات، لكن إنجيل مرقس يُركِّز بالخصوص علىٰ الأُسبوع الأخير من حياة المسيح.

الإصحاح الرَّابع والعشرين من إنجيل لوقا (Luke)[١]؟ وماذا عن القصَّتين الأطول الواردة في الإصحاحِ العشرين والواحد والعشرين من إنجيل يوحنّا (John)[٢][٣]؟ وبطبيعةِ الحال، ومثل باقي علماء الإنجيل، أعتقدُ أنَّ هذه الإصحاحات قد كُتِبَت بعد فترةٍ طويلة[٤]. وأنا في الواقعِ لا أعرفُ متىٰ كُتِبَت الأناجيل. لا أحد يعرِفُ ذلك، بالرَّغمِ من أنَّ العلماءَ لا يكُفُّونَ عن القولِ لنا بأنَّهم يعرفون. هذه الإناجيل ربَّما تكون قد كُتِبَت في أوائلِ الخمسينات من القَرْنِ الأوَّل، وبعضُهُم يقول: إنَّها كُتِبَت قبلَ ذلك. كما يمكن أنْ تكون قد كُتِبَت في وقتٍ متأخِّرٍ من السَّبْعينات أو الثَّمانينات، وبعضُها ربَّما كُتِبَ حتَّىٰ في التِّسعينات من القَرْن الأوَّل. ولكن فيما يخُصُّ حُجَّتي، هذا الأمرُ لا يعني شيئاً علىٰ الإطلاق[٥].

(١) إنجيل البشير لوقا، يسرد إنجيل لوقا حياة السيِّد المسيح، مماته وقيامته. وإنَّ كاتب هذا الإنجيل وأعمال الرسل هو ليس واحد، لكن بحسب التقليد تُنسَب كتابة أعمال الرسل إلىٰ لوقا.

(٢) إنجيل البشير يوحنّا هو رابع إنجيل من الأناجيل التشريعية في العهد الجديد من الكتاب المقدَّس للمسيحيين، وتقليدياً يُسمّىٰ بإنجيل يوحنّا البشير أو المبشِّر. القدّيس يوحنّا هو كاتب هذا الإنجيل في الإيمان المسيحي، وهذا الإنجيل مقدَّمته تشهد بلاهوت يسوع المسيح كلمة الله.

(٣) هذه بأسرها هي الإصحاحات الأخيرة في الأناجيل الأربعة، وهي تتحدَّث عن أحداثِ ما بعد صَلْب يسوع، وما يتعلَّق بقيامته. (المراجع).

(٤) يعني بعد عقدين علىٰ أقلّ تقدير. (المراجع).

(٥) بل تعني الكثير. فإنْ كانت الفجوة التاريخية بين وقوع حادثة القيامة المزعومة وكتابة الأناجيل لا تقلُّ أبداً عن عقدينِ من الزَّمان، وقد تطولُ إلىٰ ستَّة عقود أو أكثر. فهذا يعني أنَّ قصَصَ هذه الأناجيل (ومنها قصَّة قيامة يسوع) استمرَّ تناقلها الشَّفقهي عشرات السِّنين، قبل أنْ تُدوَّن في أناجيل لم تأخُذ معلوماتها من شهودٍ عيان، ولا نعرف مُدوِّنَها بالتَّحديد (فكُتَّابُها الأصليّون ⇦

النُّقطةُ هي هذه: قصَّةُ القيامة في الإنجيل (وبقيَّةِ المصادر ذات الصِّلة، وفي مُقدِّمتِها أعمالُ الرُّسُل)، التي لها خواصٌّ محدَّدة ومشتركةٌ بين الأناجيلِ الأربعة، تُبرهِنُ تاريخياً، رغمَ أنَّها كُتِبَت في مرحلةٍ متأخِّرة، علىٰ أنَّها تعودُ إلىٰ الماضي بطريقةٍ لم تتعرَّض فيها إلىٰ تحريفٍ بدرجةٍ كبيرة، لقد تمَّ تحريرُها قليلاً ولكن لم يتمّ تحريفُها بنحوٍ أساسي، عن روايتِها المُبكِّرة الشَّفوية. وهذا أمرٌ، كما هو واضحٌ، بالغُ الأهمّية.

الخاصّيَّةُ الأُولىٰ: هي صورةُ يسوع في قصَّة القيامة. لقد قيل مراراً وتكراراً بأنَّ:

١ - إنجيل مرقس قد كُتب أوَّلاً، وأنَّه من الصعب أن تجد فيه شيئاً عن القيامة[1].

⇦ مجهولون، ولم تُنْسَب لفلانٍ أو فلان إلَّا في وقتٍ لاحق، فـ آرانيوس - في حدود سنة (١٨٠م) -هو أوَّلُ من نَسَبَ ذلك إليهم، أي بعد قرنٍ من كتابتِها، بل الأناجيل نفسُها لا تدَّعي أنَّ كاتبَها هو فلان الذي نُسِبَ إليه كتابتُها لاحقاً)، ناهيك عن كونها متعارضة، وغير متَّسقة داخلياً.

بل إنَّ هذه الأناجيل - كما يؤكِّد النُّقَّاد المختصُّون - كُتِبَت في بلدانٍ مختلفة، وبلغةٍ يونانيةٍ فصيحة، في حين أنَّ تلامذة يسوع لغتُهم آرامية، ومستواهُم التعليمي متواضعٌ للغاية...، فمن أين استقىٰ كُتَّابُها معلوماتهم عن قيامةِ يسوع!؟ من المستبعد جدّاً أنَّهم استقوها من شهودٍ عيان، والأرجح بقوَّة أنَّهم استقوها من قصص كانت متداولة شفوياً سنةً بعد أُخرىٰ، في جيلٍ بعد آخر، منقولةً من بلدٍ إلىٰ آخر...، ومن المعلوم قدر التحريف المحتمل بمرورِ الوقت في مثلِ هذه الحالة. (المراجع).

(١) هذه هي العبارات الواردة في إنجيل مرقس، المتعلِّقة بقيامة يسوع، ١٦: ١ - ٢٣: (وَبَعْدَمَا مَضَىٰ السَّبْتُ، اشْتَرَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَسَالُومَةُ، حَنُوطًا لِيَأْتِينَ وَيَدْهَنَّهُ. وَبَاكِرًا جِدًّا فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ أَتَيْنَ إِلَىٰ الْقَبْرِ إِذْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ. وَكُنَّ يَقُلْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ: «مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا الْحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ؟»، فَتَطَلَّعْنَ وَرَأَيْنَ أَنَّ الْحَجَرَ قَدْ دُحْرِجَ! لأَنَّهُ كَانَ عَظِيمًا جِدًّا. ⇦

٢ - إنجيل متّىٰ الذي جاء بعد إنجيل مرقس، لم يحتوِ كذلك علىٰ الكثير عن القيامة(١).

⇨ وَلَمَّا دَخَلْنَ الْقَبْرَ رَأَيْنَ شَابًّا جَالِسًا عَنِ الْيَمِينِ لاَبِسًا حُلَّةً بَيْضَاءَ، فَانْدَهَشْنَ. فَقَالَ لَهُنَّ: «لاَ تَنْدَهِشْنَ! أَنْتُنَّ تَطْلُبْنَ يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ الْمَصْلُوبَ. قَدْ قَامَ! لَيْسَ هُوَ هاهُنَا. هُوَذَا الْمَوْضِعُ الَّذِي وَضَعُوهُ فِيهِ. لكِنِ اذْهَبْنَ وَقُلْنَ لِتَلاَمِيذِهِ وَلِبُطْرُسَ: إِنَّهُ يَسْبِقُكُمْ إِلَىٰ الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ كَمَا قَالَ لَكُمْ». فَخَرَجْنَ سَرِيعًا وَهَرَبْنَ مِنَ الْقَبْرِ، لأَنَّ الرِّعْدَةَ وَالْحَيْرَةَ أَخَذَتَاهُنَّ. وَلَمْ يَقُلْنَ لأَحَدٍ شَيْئًا لأَنَّهُنَّ كُنَّ خَائِفَاتٍ. وَبَعْدَمَا قَامَ بَاكِرًا فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ ظَهَرَ أَوَّلاً لِمَرْيَمَ الْمَجْدَلِيَّةِ، الَّتِي كَانَ قَدْ أَخْرَجَ مِنْهَا سَبْعَةَ شَيَاطِينَ).

أقول: من هو هذا الشَّابُّ اللابس حلَّة بيضاء؟ لا ندري. هل هو صادقٌ أم كاذب؟ لا ندري. وكيف نعرف أنَّ مريم المجدلية لم تكن في حالة هلوسة؟ لا ندري. (المراجع).

(١) هذه هي العبارات الواردة في إنجيل متّىٰ، المتعلِّقة بقيامة يسوع، ٢٨: ١ - ١٠: (وَبَعْدَ السَّبْتِ، عِنْدَ فَجْرِ أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ الأُخْرَىٰ لِتَنْظُرَا الْقَبْرَ. وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ، لأَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَجَاءَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ عَنِ الْبَابِ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ. وَكَانَ مَنْظَرُهُ كَالْبَرْقِ، وَلِبَاسُهُ أَبْيَضَ كَالثَّلْجِ. فَمِنْ خَوْفِهِ ارْتَعَدَ الْحُرَّاسُ وَصَارُوا كَأَمْوَاتٍ. فَأَجَابَ الْمَلاَكُ وَقَالَ لِلْمَرْأَتَيْنِ: «لاَ تَخَافَا أَنْتُمَا، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكُمَا تَطْلُبَانِ يَسُوعَ الْمَصْلُوبَ. لَيْسَ هُوَ هاهُنَا، لأَنَّهُ قَامَ كَمَا قَالَ! هَلُمَّا انْظُرَا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ الرَّبُّ مُضْطَجِعًا فِيهِ. وَاذْهَبَا سَرِيعًا قُولاَ لِتَلاَمِيذِهِ: إِنَّهُ قَدْ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ. هَا هُوَ يَسْبِقُكُمْ إِلَىٰ الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ. هَا أَنَا قَدْ قُلْتُ لَكُمَا». فَخَرَجَتَا سَرِيعًا مِنَ الْقَبْرِ بِخَوْفٍ وَفَرَحٍ عَظِيمٍ، رَاكِضَتَيْنِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ. وَفِيمَا هُمَا مُنْطَلِقَتَانِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ إِذَا يَسُوعُ لاَقَاهُمَا وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمَا». فَتَقَدَّمَتَا وَأَمْسَكَتَا بِقَدَمَيْهِ وَسَجَدَتَا لَهُ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «لاَ تَخَافَا. اِذْهَبَا قُولاَ لإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَىٰ الْجَلِيلِ، وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي»).

أقول: من أين عرفت مريم المجدلية ومريم الأُخرىٰ أنَّ هذا الشَّاب اللابس حلَّة بيضاء هو ملاكٌ بالفعل كما يدَّعي؟ وكيف نعرف أنَّهما لم تكونا في حالةِ هلوسة وتوهُّم؟ لا ندري. وهل كانت مريم المجدلية لوحدها - كما مرَّ في إنجيل مرقس - أو كانت معها مريم أُخرىٰ؟ لا ندري. (المراجع).

٣ - مع نهاية القرن، ظهر كلٌّ من إنجيل لوقا(١) ويوحنّا(٢)، وعندها، وعندها فقط وجدنا قصص أكل يسوع للسمك المشوي(٣)،

(١) هذه هي العبارات الواردة في إنجيل لوقا، المتعلِّقة بقيامة يسوع، ٢٤: ١ - ١١: (ثُمَّ فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، أَوَّلَ الْفَجْرِ، أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ حَامِلاَتٍ الْحَنُوطَ الَّذِي أَعْدَدْنَهُ، وَمَعَهُنَّ أُنَاسٌ. فَوَجَدْنَ الْحَجَرَ مُدَحْرَجًا عَنِ الْقَبْرِ، فَدَخَلْنَ وَلَمْ يَجِدْنَ جَسَدَ الرَّبِّ يَسُوعَ. وَفِيمَا هُنَّ مُحْتَارَاتٌ فِي ذلِكَ، إِذَا رَجُلاَنِ وَقَفَا بِهِنَّ بِثِيَابٍ بَرَّاقَةٍ. وَإِذْ كُنَّ خَائِفَاتٍ وَمُنَكِّسَاتٍ وُجُوهَهُنَّ إِلَى الأَرْضِ، قَالاَ لَهُنَّ: «لِمَاذَا تَطْلُبْنَ الْحَيَّ بَيْنَ الأَمْوَاتِ؟ لَيْسَ هُوَ هاهُنَا، لكِنَّهُ قَامَ! اُذْكُرْنَ كَيْفَ كَلَّمَكُنَّ وَهُوَ بَعْدُ فِي الْجَلِيلِ قَائِلاً: إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُسَلَّمَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي أَيْدِي أُنَاسٍ خُطَاةٍ، وَيُصْلَبَ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ». فَتَذَكَّرْنَ كَلاَمَهُ، وَرَجَعْنَ مِنَ الْقَبْرِ، وَأَخْبَرْنَ الأَحَدَ عَشَرَ وَجَمِيعَ الْبَاقِينَ بِهذَا كُلِّهِ. وَكَانَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَيُوَنَّا وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَالْبَاقِيَاتُ مَعَهُنَّ، اللَّوَاتِي قُلْنَ هذَا لِلرُّسُلِ. فَتَرَاءَى كَلاَمُهُنَّ لَهُمْ كَالْهَذَيَانِ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُنَّ).

أقول: هنا يبدأ بشكلٍ واضح، التعارُض بين الأناجيل، فلو افترضنا أنَّ المخبر بقيامةِ المسيح هو من الملائكة، فهل هو رجلٌ أبيضٌ واحد، كما أخبرَ إنجيلُ مرقس ومتّى، أم رجُلان؟ وهل كانت مريم المجدلية لوحدِها (كما يظهر من إنجيل مرقس) أم كانت معها مريم أُخرىٰ أيضاً (كما يظهر من إنجيل متّىٰ) أم كانت معهما يونا ونسوة أُخريات؟ يرىٰ علماء الدِّين المسيحي أنَّ هذا التعارض غير مستقرٍّ، ويمكن رفعُهُ من خلال التوفيق بين العبارات بنحوٍ ما. (المراجع).

(٢) هذه هي العبارات الواردة في إنجيل يوحنّا، المتعلِّقة بقيامة يسوع، ٢٠: ١ - ٢: (وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ بَاكِرًا، وَالظَّلاَمُ بَاقٍ. فَنَظَرَتِ الْحَجَرَ مَرْفُوعًا عَنِ الْقَبْرِ. فَرَكَضَتْ وَجَاءَتْ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَإِلَى التِّلْمِيذِ الآخَرِ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ، وَقَالَتْ لَهُمَا: «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ، وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ!»).

أقول: لا ذكر هنا (قبل إخبار بطرس والتلميذ الآخر) للملائكة المخبرين عن قيامة يسوع، كما لا ذكر لنساء أُخريات غير مريم المجدلية. (المراجع).

(٣) هذه هي عبارات إنجيل لوقا، التي تتحدَّث عن السَّمك المشوي ورؤية التلاميذ ليسوع بعد حادثة الصلب والدفن، الإصحاح ٢٤: ٤٢ و٤٣: (وَفِيمَا هُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِهذَا وَقَفَ يَسُوعُ نَفْسُهُ فِي وَسْطِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «سَلاَمٌ لَكُمْ!» فَجَزِعُوا وَخَافُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ نَظَرُوا رُوحًا. فَقَالَ لَهُمْ: «مَا بَالُكُمْ مُضْطَرِبِينَ، وَلِمَاذَا تَخْطُرُ أَفْكَارٌ فِي قُلُوبِكُمْ؟ اُنْظُرُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ: إِنِّي أَنَا هُوَ! جُسُّونِي ⇦

وطبخ للفطور عند الشاطئ[١]، ودعوته لـ (توما Thomas) أن يمسّه[٢] وأمثال ذلك. ووفقاً لهذه النَّظرية، فإنَّ المسيحيِّين في نهايةِ القَرْن الأوَّل

⇨ وَانْظُرُوا، فَإِنَّ الرُّوحَ لَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَعِظَامٌ كَمَا تَرَوْنَ لِي». وَحِينَ قَالَ هذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. وَبَيْنَمَا هُمْ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ مِنَ الْفَرَحِ، وَمُتَعَجِّبُونَ، قَالَ لَهُمْ:«أَعِنْدَكُمْ هاهُنَا طَعَامٌ؟» فَنَاوَلُوهُ جُزْءًا مِنْ سَمَكٍ مَشْوِيٍّ، وَشَيْئًا مِنْ شَهْدِ عَسَل. فَأَخَذَ وَأَكَلَ قُدَّامَهُمْ).

أقول: قد يقال: إنَّ هذه القصَّة لم ترد لتبديد توهُّم أنَّ يسوع هو إله متجسِّد، كما يرىٰ رايت، بل حتَّىٰ يؤكِّد يسوع لتلامذته أنَّه لم يكن هو المصلوب، وأنَّه لم يقُم بعد موته، ولم يتروْحَن، لأنَّه ما زالَ حيَّاً من لحمٍ وعظام، وحتَّىٰ يؤكِّد لهم هذه الحقيقة، أكَلَ أمامَهُم شيئاً من السَّمك والعسل. بالتالي لا يمكن استخدام هذه القصَّة كشاهدٍ علىٰ قيامة يسوع. (المراجع).

(١) راجع إنجيل يوحنّا، الإصحاح ٢١: ٤ - ١٤.

أقول: وحال هذه القصَّة حال قصَّة السَّمك المشوي، لذا لم أذكرها لعدم الإطالة. (المراجع).

(٢) هذه هي عبارات إنجيل يوحنّا، التي تتحدَّث عن إيمان توما بعد رؤيته ليسوع، الإصحاح ٢٠: ٢٧ - ٢٩: (أَمَّا تُومَا، أَحَدُ الاثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِي يُقَالُ لَهُ: التَّوْأَمُ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ حِينَ جَاءَ يَسُوعُ. فَقَالَ لَهُ التَّلاَمِيذُ الآخَرُونَ: «قَدْ رَأَيْنَا الرَّبَّ!». فَقَالَ لَهُمْ: «إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ، لاَ أُومِنْ». وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّام كَانَ تَلاَمِيذُهُ أَيْضًا دَاخِلاً وَتُومَا مَعَهُمْ. فَجَاءَ يَسُوعُ وَالأَبْوَابُ مُغَلَّقَةٌ، وَوَقَفَ فِي الْوَسْطِ وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمْ!». ثُمَّ قَالَ لِتُومَا: «هَاتِ إِصْبِعَكَ إِلَىٰ هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ، وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي، وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِنًا». أَجَابَ تُومَا وَقَالَ لَهُ: «رَبِّي وَإِلهِي!»، قَالَ لَهُ يَسُوعُ:«لأَنَّكَ رَأَيْتَنِي يَا تُومَا آمَنْتَ! طُوبَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا»).

أقول: قد يقال: إنَّ هذه القصَّة لم ترد لتبديد توهُّم أنَّ يسوع هو إله متجسِّد، كما يرىٰ رايت، بل حتَّىٰ يؤكد يسوع لتوما أنَّه لم يكن هو المصلوب، وأنَّه لم يقُم بعد موتِهِ، ولم يتروحن، لعدم وجود أثر الصَّلْب علىٰ يديهِ والطَّعنة في جنبه، وحتَّىٰ يؤكِّد له هذه الحقيقة، دعاهُ للنظر إلىٰ يديه، ومسَّ يديه وجنبه، فطوبىٰ لمن آمن بأنَّ الله قد أنجاه من خصومه اليهود دون أنْ يروا. بالتالي لا يمكن استخدام هذه القصَّة كشاهدٍ علىٰ قيامة يسوع. (المراجع).

كانوا قد بدأوا يعتقدون بأنَّ يسوع لم يكن إنساناً بحقٍّ، أي إنَّه لم يكن في الواقعِ رجُلاً حقيقياً، ولذا قامَ لوقا ويوحنَّا بتأليفِ هذه القصص في تلكَ المرحلة للقولِ: نعم، هو في الواقعِ كان إنساناً، ويسوع المبعوث كان له شكلٌ جسَديٌّ (أو صورةٌ جسَديةٌ) في الواقع، وما إلىٰ ذلك.

المشكلةُ في هذه النَّظرية، والتي هي شائعة، أنَّ هذه القَصَص (حول طَبْخِ المسيح للفطورِ عند الشَّاطئ، كَسْرِ الخُبْز في عِمْواس، ودعوتِهِ لـ توما أنْ يمَسَّهُ... إلىٰ آخرِهِ) أنَّ يسوع فيها يأتي ويذهب عبْرَ الأبواب المغلقة، في بعضِ الأحيان يتمُّ تشخيصُ ذلك وفي أحيانٍ أُخرىٰ لا يتمُّ تشخيصُ ذلك، يظهَر ويختفي متىٰ ما شاء.

دعوني أضَع الأمرَ هكذا: لو أردْتُ أنْ أحبِكَ قصَّةً، قُلْ، حدَثَت في سنةِ (٩٥م)، لأنِّي أعرفُ أنَّ بعضَ قومي كانوا غير واثقين من أنَّ يسوع رجلٌ واقعيٌّ (من لَحْمٍ ودم)، فسوفَ أضَع المـوادَّ اللازمة كلَّها لإقناعِهِم بتلكَ القصَّة. إنَّه نحوٌ من (الغايةِ الشَّخصية).

من وجهةِ نظرٍ أُخرىٰ، إذا كنْتَ يهودياً في القَرْنِ الأوَّل، وأردْتَ أنْ تحوكَ قصَّةً عن المسيحِ الذي بُعث من جسدٍ ميِّتٍ، فالمَصْدرُ الطَّبيعي من الكتابِ المُقدَّس سيكونُ الإصحاح الثاني عشر من سِفْر دانيال[١]، الذي يُعدُّ واحداً من أكبرِ النُّصوص التي تتحدَّث عن القيامةِ بالنِّسبةِ ليهوديةِ الهيكل الثاني. يقولُ الإصحاحُ الثاني عشر بأنَّ الصَّالحينَ سوفَ يَلْمَعونَ مثل النُّجوم في مملكةِ الأب[٢]. في الحقيقةِ، إنَّ يسوع استشهَدَ

---

(١) دانيال هو أحد الأنبياء الأربعة الكبار في التراث اليهودي المسيحي، والشخصية المركزية في سفر دانيال.

(٢) أُنظر سفر دانيال، الإصحاح الثاني عشر، ٣: (والفاهِمُونَ يُضِيئُونَ كضِياءِ الجَلَدِ). (المراجع).

بهذه العبارة في الإصحاحِ الثالث عشر من إنجيل متّىٰ[(١)]. وما يزيدُ الأمرُ روعةً، أنَّ يسوع لم يكن ليَظْهَر كنَجْمٍ يلمَعُ في أيٍّ من رواياتِ القيامة فيما لو كانوا قد حبكوا هذه القَصَص[(٢)].

لذا، من خلالِ وجهتي النَّظَر هاتين، تبدو صورةُ يسوع في قَصَصِ القيامة غريبةٌ جدَّاً جدَّاً. فهي صورةٌ ليست كما تتوقَّعها. وهي صورةٌ مخالفةٌ لما هو موجودٌ في القَصَصِ اليهودية في ذلك الزَّمان. وهي متَّسقةٌ بنحوٍ لافتٍ مع ما ورَدَ في أناجيلِ متّىٰ ولوقا ويوحنّا (روايةُ مِرْقس أقصَر بكثير من أنْ تُمكِّننا من معرفةِ ما إذا يمكن أنْ يقولَهُ فيما لو استرسَلَ وتحدَّثَ عن ذلك)، ولذلك يبدو أنَّ شيئاً ما غريباً قد حَدَث. يبدو الأمر كما لو كان الإنجيليُّ (Evangelists) يريدُ أنْ يقولَ لنا: (أنا أعلَم أنَّكُم ستجدونَ صعوبةً في التَّصديق، ولكن هذا ما حَدَثَ في الواقع). شيءٌ ما استثنائيٌّ قد حدَثَ، وترَكَ بصْمَتَهُ في القَصَص. الناسُ لا يمكن أنْ يختلقوا هذه الأُمور من أذهانِهِم هكذا. أيُّ شخصٍ يكتُبُ قصَصاً خيالية عن الفَصْح كان سيجعل يسوع أكثرَ وضوحاً.

دعوني أقولُ شيئاً هنا. إذا أخذْتَ قصَصَ القيامة في أناجيلِ متّىٰ، مِرْقس، لوقا، ويوحنّا، من أصلِها اليوناني، وقارَنْتَها جَنْباً إلىٰ جنب؛

(١) أُنظر إنجيل متّىٰ، الإصحاح الثالث عشر، ٤٣: (حينئذٍ يُضيءُ الأبرارُ كالشَّمْسِ في ملكوتِ أبيهم). (المراجع).

أقول: لا يبدو لي عدم وجود تطابق بين العبارتين، وإنْ كان هناك تشابهاً بينهما. (المراجع).

(٢) الأمرُ المحيِّر أنَّ الموارد التي ذكرها رايت من الظاهر تماماً أنَّها تتحدَّث عن مصير الأبرار الأُخروي عموماً، ولا تتحدَّث عن مصير المسيح بالخصوص، فلماذا يتمُّ ليِّ عُنُق النصوص لتطبيقها علىٰ دعوىٰ قيامة المسيح؟ (المراجع).

فستجدُ أنَّهـا مختلفـةً جـدًّاً، حتَّـىٰ عنـدما يتحـدَّثونَ عـن قصَّـةِ النِّسـاء نفسِـها الـلَّاتي ذهـبْنَ إلىٰ القـبر. إنَّهـم يسـتخدمونَ كلـماتٍ مختلفـةٍ مـرَّةً بعـد أُخـرىٰ. لذا يبدو كما لو لم ينْسَخ أحدُهُم من الآخر.

الخاصِّيَّةُ الثانيـة: أنَّ هنـاكَ تقريبـاً غيابـاً شبهُ كامـلٍ لصـدىٰ أو تلمـيح في العهـدِ القـديم عـن قَصَـصِ القيامـة. في قَصَـصِ الصَّـلْب (crucifixion)، يبدو واضحاً أنَّ قصَّةَ موت يسوع كانـت قـد قيلـتْ مـراراً وتكـراراً مـن قِبَـلِ المجتمـع المسـيحي المُبكِّـر، وحياكَتُهـا منسـجمةٌ مـع المزْمـورِ الثـاني والعشـرين مـن المـزامير (Psalm)[١]، والإصـحاح الثالـث والخمسـين مـن سِـفْرِ أشـعيا (Isaiah)[٢]، وسِـفْر زكريـا (Zechariah)[٣]، وبقيَّـة تلميحـات العهد القديم في قصَّـةِ الصَّـلْب، حتَّـىٰ في قصَّـةِ الـدَّفْن. ولكـن عنـدما تنتقـلُ إلىٰ الصَّـفحةِ التـي تليهـا، إلىٰ قصَّـةِ القيامـة، لا تجـدُ ذلـك في أناجيـلِ متّـىٰ، مرْقس، لوقا، ويوحنّا. (ونُـذكِّر أنفُسَـنا بـأنَّ بـولس كـان قـد قـالَ في رسـالتِهِ إلىٰ كورنْثُـوس الأُولىٰ، الإصـحاح الخـامس عشـر، أنَّ المسـيحَ قـد قـامَ مـن ميِّتٍ[٤] (وفقاً للنُّصـوص) أي حسَـب الكُتُـب، وبـولس كـان لديـهِ في أوائـلِ الخمسـينات مـن القَـرْنِ الأوَّل مسـتودعاً ثريّـاً مـن نُصـوصِ العهـد القـديم

(١) يبدو أنَّه يقصـد الفقـرة (١٦) مـن هـذا المزمـور، التـي تقـول: (لأنَّـه قـد أحاطَـتْ بي كـلابٌ، جماعةٌ من الأشرارِ اكتنفَتْني، ثقبوا يدَيَّ ورِجْليَّ). (المراجع).

(٢) يبدو أنَّه يقصد الفقرة (٧) وما يليها من هذا الإصحاح، التي تقـول: (ظُلِـمَ أمَّـا هـو فتـذلَّلَ ولم يفتَح فاهُ. كشاةٍ تُساقُ إلىٰ الذَّبحِ، وكنعجةٍ صامتةٍ أمامَ جازيها فلم يفتَح فاهُ). (المراجع).

(٣) لم يُحـدِّد رايـت في أيِّ إصـحاحٍ مـن سِـفْر زكريـا وردَ مـا يشـيرُ إلىٰ صَـلْب المسـيح، وقـد راجعتُ السِّفْرَ سريعاً ولم أجد إشارةً إلىٰ ذلك. (المراجع).

(٤) قـال بـولس في تلـك الرسـالة ٣ - ٤: (المسيح مـاتَ مـن أجلِ خطايانـا حسَـبَ الكُتُـبِ، وأنَّه دُفِنَ، وأنَّه قامَ في اليومِ الثالثِ حسَبَ الكُتُب). (المراجع).

التي من خلالِها فسَّـرَ القيامة). لقـد كـان مـن السَّـهلِ جـدّاً عـلىٰ متّـىٰ، الـذي عاشَ يحكي لنا عـن تحقُّـق نُبـوءات الـنَّص، أنْ يقـول: (هـذا قـد حـدَثَ كـذا تحقُّقـاً لنبـوءَةِ الـنَّصّ الـذي يقـول كـذا...). إلّا أنَّ متّـىٰ لم يفعـل ذلـك. وبالمثـل، فـإنَّ يوحنّـا يقـول: إنَّـه عنـدما ذهـبَ التلاميـذُ إلىٰ القَـبْر، لم يكونـوا يعرفـون الـنَّصّ الـذي يقـول: إنَّ المسيحَ سـيُبعَثُ مـن جسـدٍ ميِّـتٍ. ولكـن يوحنّا لم يستشـهد واقعـاً بهـذا الـنَّصِّ أو يقـول لنـا مـا هـو هـذا الـنَّصّ. وفي الطَّريـقِ إلىٰ عِمْـواس، تحـدَّثَ لوقـا عـن شَرْحِ يسـوع للنُّصـوص، لكـن مـرَّةً أُخـرىٰ لا يقـولُ لنـا لوقـا أيَّ شيءٍ عـن تلـك النُّصـوص أو مـا قالَـهُ يسـوعُ عنها[1].

هـذا أمـرٌ غريـبٌ جـدّاً. فإمَّـا أنْ نقـول: إنَّ الكنيسـةَ الأُولىٰ هـي التـي كتبَت قصَّـةَ القيامـة عـلىٰ غـرارِ مـا ورَدَ في العهـدِ القـديم، وأنَّ متّـىٰ ويوحنّـا ولوقا ومِـرْقس قـد اسـتندوا إلىٰ هـذه القَصَـص بنحـوٍ مسـتقلٍّ، أو أنْ نقـول: إنَّ هذه القصص تعودُ إلىٰ حقْبةٍ قديمـةٍ جـدّاً في النَّقْـلِ الشَّـفهي التـي سـبقت التأمُّـل اللّاهـوتي والتَّفسـيري (theological and exegetical reflection). في تقديري أنَّ القولَ الثاني هو الأرجحُ بدرجة كبيرة.

الخاصيَّةُ الثالثةُ الرَّائعـةُ لهـذه القَصَـص: هـو موقِـعُ المـرأةِ فيهـا (وهـذه نقطـةٌ معروفـة؛ لَسْـتُ أوَّل مـن يُنـوِّه إليهـا). في العصـورِ القديمـة، العَصْـرِ

---

(١) فوفقـاً لإنجيـل لوقـا، الإصـحاح ٢٤: ٤٤ - ٤٦، يشـيرُ يسـوع إلىٰ أنَّ ثَمَّـة نصـوص في أسـفارِ الأنبيـاء القديمـة تشـيرُ إلىٰ قيامـةِ المسيح، لكـن لم يُحـدِّد بالضَّـبط أيـن هـي تلـك النُّصـوص. فقـد جـاء هكـذا: (وَقَـالَ لَهُـمْ: «هـذَا هُـوَ الْكَـلاَمُ الَّـذِي كَلَّمْـتُكُمْ بـهِ وَأَنَـا بَعْـدُ مَعَكُمْ: أَنَّهُ لاَ بُـدَّ أَنْ يَـتِمَّ جَمِيـعُ مَـا هُـوَ مَكْتُـوبٌ عَنِّـى فِي نَـامُوس مُوسَـىٰ وَالأَنْبِيَـاءِ وَالْمَـزَامِيرِ. «حِينَئِذٍ فَتَحَ ذِهْـنَهُمْ لِيَفْهَمُـوا الْكُتُـبَ. وَقَـالَ لَهُـمْ: «هكَـذَا هُـوَ مَكْتُـوبٌ، وَهكَـذَا كَـانَ يَنْبَغِـي أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ وَيَقُومُ مِنَ الأَمْوَاتِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ). (المراجع).

اليهـودي والـوثني، شـهادةُ المـرأةِ لم يكـن مـن الجـديرِ أنْ تُقبَـلَ بمحكمـةِ القانون. وفي زمنِ بـولس، قـامَ بالاستشـهادِ بالرِّوايـةِ المتداولـة عـن يسـوع في رسـالتِهِ الأُولىٰ إلىٰ كورِنْثـوس، الإصـحاح (١٥)، حيـثُ قـال: (فَـإِنَّنِي سَـلَّمْتُ إِلَـيْكُمْ فِي الأَوَّلِ مَـا قَبِلْتُـهُ أَنَـا أَيْضًـا: أَنَّ الْمَسِيحَ مَـاتَ مِـنْ أَجْـلِ خَطَايَانَـا حَسَـبَ الْكُتُـبِ، وَأَنَّـهُ دُفِـنَ، وَأَنَّـهُ قَـامَ فِي الْيَـوْمِ الثَّالِـثِ حَسَـبَ الْكُتُـبِ، وَأَنَّـهُ ظَهَـرَ لِصَـفَا ثُـمَّ لِلاثْنَـيْ عَشَـرَ. وَبَعْـدَ ذلِـكَ ظَهَـرَ دَفْعَـةً وَاحِـدَةً لأَكْثَـرَ مِـنْ خَمْسِمِئَةِ أَخٍ، أَكْثَـرُهُمْ بَـاقٍ إِلَىٰ الآنَ. وَلكِـنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ رَقَـدُوا. وَبَعْـدَ ذلِـكَ ظَهَـرَ لِيَعْقُـوبَ، ثُـمَّ لِلرُّسُـلِ أَجْمَعِـينَ. وَآخِـرَ الْكُلِّ كَأَنَّهُ لِلسِّقْطِ ظَهَرَ لِي أَنَـا). وهنـا نرفَـعُ أيـدينا ونسـألُ بـولس: (المعـذرة بـولس، أيـنَ النِّسـاء؟). الجـواب هـو أنَّـه في بدايـةِ الخمسـينات مـن القَـرْنِ الأوَّل، لم تكـن التقاليـدُ تسـمَحُ لأنْ توضَـع النِّسـاء بالحُسْـبان، لأنَّهـم كـانوا يعلمـون أنَّهـم إنْ فعلـوا فسـيكونون في ورطـة. ونحـنُ نـرىٰ هـذه الورطـةَ عنـدما نقـرأُ سيلسـوس (Celsus)[1] وهـو يصُـبُّ جـامَ غضَـبِهِ عـلىٰ القيامـةِ بقولِهِ: (هذا الإيمانُ مبنيٌّ علىٰ مجرَّدِ شهادة بعض النِّساء المجنونات).

---

(١) وفقـاً لاوريجـانوس، سيلسـوس كـان المؤلِّـف لعمَـل ضـدَّ المسـيحية بعنـوان (الكلمـة الحقَّـة). وكـان هـذا العمـلُ قـد فُقِـدَ، ولكـن لـدينا نصـوص أُوريجـانوس نفسـه في كتاباتـه. وثبـت أنَّ سيلسـوس قـد ألَّـفَ (الكلمـة الحقَّـة) في الوقـت الـذي كانـت المسـيحية تُضـطهَدُ فيـه، وفي الوقـت الـذي كـان هنـاك عـلىٰ مـا يبـدو أكثـر مـن إمبراطـور. وباعتبـاره فيلسوفاً يونانياً كرَّسَ حياتـه ضـدَّ المسيحية، فقـد شـنَّ سيلسـوس هجومـاً عـلىٰ (**المسـيحية**)، وذكـرَ سيلسـوس أنَّ والـدَ يسـوع كـان جنـدياً رومانيـاً يـدعىٰ (**بـانتيرا**). وأثـارت وجهـات نظـر سيلسـوس ردودُ فعـل مـن (**أُوريجـانوس**) الـذي اعتبرهـا قصَّـة ملفَّقـة. وهـذا الاتِّهـامُ الجـائر والفريـةُ العظيمـة نجدُها في التلْمـود أيضـاً، فهـل أخـذَهُ سيلسـوس مـن التلْمـود؟ أم أنَّ التلْمـود هـو الـذي اقتبسَ هـذه الاتِّهامـات مـن سيلسـوس؟ هـذا بحاجـةٍ إلىٰ مزيـدٍ مـن البحث. (المراجع).

لـذا مـن المُـدْهشِ أَنَّـا نجـدُ في أناجيـلِ متّـىٰ ومِـرْقس ولوقـا ويوحنّـا ذكـراً لمـريم المجدليـة (Mary Magdalene)[١]، وبقيَّـةِ المـرايم (جمْـعُ مـريم)، ونساء غيرهُنَّ. ومـن بـين كـلِّ النـاس، مـريمُ المجدليـة (ونحـنُ نعلـمُ أنَّ لهـا مهنة متقلِّبـة جـدَّاً في المـاضي) تـمَّ اختيارُهـا كشـاهدةٍ رئيسـية، لـذا تجِـدُها في المصادرِ الأربعـة. ونحـنُ كمُـؤرِّخين مُلْزمـونَ بـالتَّعليقِ عـلىٰ ذلـك بـأنَّ هـذه القَصَص لو كانت قـد اختُلِقَـت بعـد خَمْـسِ سـنوات، ناهيـك عـن ثلاثـين أو أربعين أو خمسين سـنة، مـا كـان لمـريم المجدليـة أنْ تلعَـبَ فيهـا هـذه الـدَّور. مـن وجهـةِ نظَـر المـدافعين عـن المسـيحية الـذين يريـدون إقنـاع الجمهـور المُتشكِّك بـأنَّ يسـوع قـد بُعِـثَ مـن جسـدٍ ميِّـتٍ، إدخـالُ مـريم المجدليـة في هــذه القَصَــص مثــل مــن يُطلِــق النــار عــلىٰ قدَميــه. لكــن بالنِّســبةِ لنــا كمُـؤرِّخين، هـذا مـن قبيـلِ الـتُّراب الـذَّهبي (أي نقطـة لهـا قيمـة تاريخيـة كبـيرة). (لا يمكــن للمسـيحيِّين الأوائــل أنْ يختلقوهــا مطلقــاً، مطلقــاً). القَصَص - التـي تتحـدَّث عـن عثـورِ النُّسْـوة عـلىٰ قـبرٍ خـالٍ ثـمَّ بعـد ذلـك يلْتقونَ بيسوع المبعوث - يجبُ التعامل معها علىٰ أنَّها صحيحةٌ تاريخياً[٢].

الخاصّـيَّةُ الرَّابعـة والأخـيرة لهـذه المواقـف: وهنـا أتحـدَّثُ بوصـفي

---

(١) مـريم المجدليـة مـن أهـمّ الشخصـيات المسـيحية المـذكورة في العهـد الجديـد، وتُعتَـبر مـن أهـمّ النسـاء مـن تلاميـذ المسيح، والشـاهدة عـلىٰ قيامتـه، وأوَّل الـذاهبين لقـبره حسـب مـا ذكره الإنجيل.

(٢) انصافاً، لا شـكَّ أنَّ الاستشـهاد بشـهادةِ النسـاء، ووضـعهنَّ كـما وصـف رايـت، مـؤشِّرٌ عـلىٰ توفُّر قَدْرٍ من المصداقية في تلك الرُّوايات. لكن هذه الرُّوايات لا تدُلُّ علىٰ أمرين:
الأوَّل: أنَّهُنَّ لم يكُنَّ في حالةِ توهُّمٍ وهلوسة.
والثاني: أنَّ يسـوعَ قـد قـام، بـل يبقـىٰ مـن المحتمـل أنَّ الجسـد قـد سُرِقَ. وسـتعرفُ الموقـف الأقرب للمعقولية، فانتظر. (المراجع).

مُبشِّراً مارَسَ التَّبْشير في كلِّ يوم فَصْح لمدَّةِ خمسٍ وثلاثين سنة. المُبشِّرونَ وفقاً للتقاليدِ الغربية، الذين يُبشِّرونَ في الفَصْحِ عن قيامةِ يسوع المبعوث من ميِّتٍ، يمليونَ إلىٰ التَّبشيرِ عن حياتِنا المستقبلية، وعن قيامتِنا نحنُ، وعن ذهابِنا إلىٰ السَّماء. ولكن في قَصَصِ القيامة في متّىٰ، مِرْقس، لوقا، ويوحنّا، لا نجدُ ذِكْراً لحياتِنا المستقبلية. علىٰ العكسِ من ذلك، فإنَّ بولس كان في كلِّ مرَّةٍ يتحدَّثُ فيها عن القيامةِ، يُشيرُ فيها إلىٰ حياتِنا المستقبلية أيضاً. في العبريةِ (Hebrews) قيلَ لنا عن قيامةِ يسوع وعن قيامتِنا المستقبلية؛ في كتابِ الوحي، مرَّةً أُخرىٰ، نجدُ ربطاً بين قيامتِنا نحنُ وقيامةِ يسوع. جاسْتِن الشَّهيد (Justin Martyr)[١]، أغناطيوس الأنطاكي (Ignatius of Antioch)[٢]، وإيريناوس (Irenaeus)[٣]، يتَّفقونَ بالقولِ بأنَّنا (نحنُ نُفكِّرُ بقيامةِ يسوع، حتَّىٰ ينعكسَ ذلك علينا).

ولكن متّىٰ، مِرْقس، لوقا، ويوحنّا لا يقولون: (إنَّ يسوعَ قد

---

(١) القدّيس جاستن كان من المبشِّرين الأوائل، وهو أقدم الشارحين لـ (اللوجس) في القرن الثاني. استشهد مع تلامذته واعتُبِرَ قدّيساً للكنيسة الكاثيولكية.

(٢) أغناطيوس الملقَّب بالنوراني أو الأنطاكي والذي يُدعىٰ أيضاً ثيوفوروس (باليونانية: Θεοφόρος) أي حامل الإله، وهو قدّيس وأحد آباء الكنيسة، كان علىٰ الأرجح أحد تلامذة الرسولين بطرس ويوحنّا. هو ثالث أساقفة أو بطاركة أنطاكية بعد بطرس وإفوديوس الذي توفّي حوالي سنة (٦٨م).

(٣) القدّيس إيرينيئوس (القرن الثاني الميلادي - نحو عام ٢٠٢م) هو أُسقف مدينة لوغدونوم في بلاد الغال، ثمّ أصبح علماً وجزءاً من الإمبراطورية الرومانية (الآن هي مدينة ليون، بـ (فرنسا)). وكان القدّيس إيرينيئوس أحد أشهر آباء الكنسية الأوائل ومن أهمّ المدافعين عن العقيدة المسيحية، وكانت كتاباته تقويمية خلال فترة بداية انتشار ونموّ علم اللّاهوت المسيحي.

بُعِثَ، لذا نحنُ سنُبعَثُ في يومٍ ما). هم يقولون - وهذا مثيرٌ لتعجُّبِ الناس -: (إنَّ يسوعَ بُعِثَ، لذا هو واقعاً كان المسيح). مخلوقُ الإلهِ الجديد قد بدأَ. ولدينا مهمَّةٌ لا بدَّ أنْ نُؤدِّيها. وماذا بعد؟ نحنُ نجدُ أنفُسَنا نميلُ إلىٰ عبادةِ يسوع هذا، لأنَّا وجَدْنا أنَّه قد جسَّدَ إلهَ إسرائيل، خالقَ الكون.

بعبارةٍ أُخرىٰ: هذه القَصَصُ، كما نجِدُها في الإناجيل، تعودُ إلىٰ طريقةٍ بدائيةٍ في سَرْدِ القصَّة التي لم تُقَل من قبل: (إنَّ يسوعَ قد بُعِثَ، لذا فإنَّنا سوف نُبعَث)، وهو ما نجِدُهُ واضحاً في بولس بدءاً من أواخرِ الأربعينات. لذا فنحنُ نستنتجُ أنَّ هذه القصَصَ تعود إلىٰ ما قبل بولس، إلىٰ الزَّمنِ الذي نرىٰ فيه الكنيسةَ المبكِّرة جدَّاً جدَّاً تُديرُ صَدْمةَ هذا الحدث غير المُتوقَّع بشكلٍ كاملٍ للقيامةِ وتستنتجُ مدلولاتَهُ[1].

من كلِّ ما سَبَق نصِلُ إلىٰ عدَّةِ استنتاجات. حتَّىٰ نتمكَّن من تفسيرِ صعودِ نجم المسيحية في بدايتِها، وحتَّىٰ نستطيع تفسير وجود القيامة في المصادرِ (الأناجيل) الأربعة بالإضافةِ إلىٰ بعضِ الفقرات في سِفْرِ أعمال الرُّسُل وبولس، علينا أنْ نقول: إنَّ الكنيسةَ المبكِّرةَ جدَّاً كانت بالفعل تعتقدُ أنَّ يسوعَ بُعِثَ جسدياً من ميِّتٍ. وليس لدينا أدلَّة علىٰ أنَّ المسيحيِّين الأوائل كانوا قد اعتقدوا بخلافِ ذلك. ولكن كيف يُمكِنُنا كمُؤرِّخين تفسيرُ ذلك؟

من الواضحِ، أنتَ كمسيحي بمقدورِكَ أنْ تختصِرَ علىٰ نفسِكَ

---

(١) لا يبدو لي في الأمر غرابة، فالرَّبطُ بين الإيمان بقيامة يسوع، كمدخلٍ أو دليلٍ للإيمان بالقيامةِ العامَّة، لم يتمّ إلَّا في وقتٍ متأخِّر، بعدما تطوَّرَ اللَّاهوت (علم الكلام) المسيحي لاحقاً. (المراجع).

الحُجَّـةَ وتحسِـمَ الأمـر عنـد أيِّ نقطـة. الكثـيرُ مـن المسـيحيِّين فعلـوا ذلـك، وهـو أمـرٌ مخجـلٌ في الواقـعِ، لأنَّـه تفـريطٌ بنقطـةٍ حيويـة. النـاسُ عـادةً يقولـون: (بالتأكيد، لقـد كـان هـو ابـنُ الإلـه. وكـان باسـتطاعتِهِ أنْ يفعَـلَ أيَّ شيءٍ. وهذا أمرٌ عقلانيٌّ، أليس كذلك؟).

لكنَّني لا أُريدُ أنْ أفعلَ ذلك، وإنَّما أُريدُ أنْ أكونَ وفيَّاً للنُّصوص، التي لا تقولُ ذلك. علينا أنْ نسأل: كيف يمكنُ تفسير هذه الظَّاهرة الاستثنائية، حقيقة النشأة المبكِّرة للكنيسةِ في المقامِ الأوَّل، آخذينَ بالاعتبار شكلَها المُحدَّد جدَّاً، وتداولها لقَصَصٍ مُحدَّدةٍ جدَّاً؟ لقد اكتشفتُ، كباحثٍ عن تفسيرٍ تاريخي، أنَّ هناك شيئينِ لا بدَّ أنَّهما قد وقعا:

١ - كان هنـاك قـبرٌ خـالٍ[١]، وكـان معروفـاً أنَّـه هـو القـبرُ الصَّـحيح، ولا يمكنْ أنْ يكونَ خطأً.

٢ - هنـاك ظهـورٌ مُتكـرِّرٌ (appearances) ليسـوعِ المَبْعـوث[٢]. مـن

(١) وهذا ما رأيناهُ واضحاً في الأناجيل الأربعة، حيث نقلنا المقاطع الدَّالَّة علىٰ خلوِّ القبر من الجسد. (المراجع).

(٢) والتعدُّد الوارد في الأناجيل ورسائل بولس، لشهود كُثُر شاهدوا يسوع بعد حادثة الصَّلْب والدفن، هي كما يلي:

١ - ظهورُهُ لمريم المجدلية (إنجيل مرقس ١٦: ٩).

٢ - ظهورُهُ لبعض النساء التلميذات (إنجيل متّىٰ ٢٨: ٩).

٣ - ظهورُهُ ليعقوب (رسالة بولس الأُولىٰ لكورنثوس ١٥: ٧).

٤ - ظهورُهُ لبطرس (رسالة بولس الأُولىٰ لكورنثوس ١٥: ٥).

٥ - ظهورُهُ للتلميذين اللذين كان ذاهبين إلىٰ عمواس (إنجيل لوقا ٢٤: ١٥ - ٣١).

٦ - ظهورُهُ لسبعةٍ من التلاميذ الذين كانوا يصطادون في بحر الجليل (إنجيل يوحنّا ٢١: ١ - ٢٨).

٧ - ظهورُهُ للتلاميذ العشرة، وفي هذه المرَّة لمسوا يسوع وجسُّوهُ، وأكلَ أمامهم، فأثبتَ لهم أنَّهم لا يرون رؤيا أو هلوسة، بل يرون حقَّاً يسوع بلحمِهِ ودمِهِ (إنجيل لوقا ٢٤: ٣٦ - ٤٣). ⇦

المُؤكَّد أنَّ هذين الشَّيئين قد حدثا.

لماذا؟ لأنَّه إنْ كان هناك قبرٌ خالٍ ولم يكن ثَمَّة ظهورٌ متكرِّر، فإنَّ أيَّ إنسانٍ في العالَم القديم كان سيصِلُ إلىٰ نتيجةٍ واضحةٍ (واضحة لهم حتَّىٰ لو لم تكن كذلك بالنِّسبةِ لنا) مفادُها أنَّ الجَسَدَ قد سُرِقَ. لقد كان من المعتاد سرْقة القبور، وخاصَّة إذا كان الموتىٰ من الأغنياءِ أو المشْهورين؛ فقد يكون هناكَ جواهر، أو شيءٌ ما يستحقُّ السَّرقة. لذا كان الناسُ سيقولون ما قالَتْهُ مريم (المجدلية): (أخذوا السيِّدَ من القَبْرِ، ولَسْنا نعلَمُ أينَ وضَعوهُ!)[1]. وما كانوا ليتكلَّموا أبداً عن القيامةِ، إنْ كان كلُّ ما حدَثَ هو أنَّهم وجدوا القبرَ خالياً.

وبالمثل، لا يُمكِنُكَ تفسيرُ المعطيات التاريخية التي رأيناها، من خلالِ القول بأنَّ تلامذتَهُ لا بدَّ أنْ كانت لديهم خبرةٌ من نوعٍ ما جعلَتْهُم يَلْتقونَ بيسوع. كانوا قد عرفوا بأنَّ يسوعَ قد قُتِلَ. لكن هم يعرفونَ جميعاً عن الهَلْوسةِ والأشباحِ والرُّؤىٰ. الأدبُ القديمُ - اليهودي والوثني علىٰ السَّواء - مليءٌ بمثلِ هذه الأُمور. هذه الأُمورُ تعودُ إلىٰ زمنِ هوميروس (Homer)؛ ونجِدُها في شعرِ

⇦ ٨ - ظهورُهُ للأحد عشر تلميذاً في الجليل (إنجيل متّىٰ ٢٨: ١٦ - ١٧).

٩ - ظهورُهُ للأحد عشر تلميذاً، وتوما معهم، ولم يكن توما موجوداً في المرَّةِ السَّابقة التي ظهرَ فيها يسوع للتلاميذ، ولذلك شكَّ ولم يؤمن إلَّا لـمَّا ظهرَ لهم يسوع وتوما معهم (إنجيل يوحنّا ٢٠: ٢١ - ٢٨).

١٠ - ظهورُهُ لخمسمائة من المؤمنين (رسالة بولس الأُولىٰ لكورنثوس ١٥: ٦).

١١ - ظهورُهُ للأحد عشر تلميذاً فوق جبل الزَّيتون عند رفعِهِ إلىٰ السَّماء (أعمال الرسل ١: ١ - ١٢).

أقول: هذا التعدُّد إنْ صحَّ، فسيجعل احتمال رؤيتهم ليسوع في الواقع كبيراً، لكن هذا لا يعني أنَّ يسوع قد قامَ من قبره، بل يمكن تقديم تفسير آخر أقرب إلىٰ المعقولية، فانتظر. (المراجع).

(١) إنجيل يوحنّا، الإصحاح العشرون، ٢.

فيرجيل (Virgil)[١]، وهي موجودةٌ في كلِّ مكان. مؤخَّراً، بعضُ الناسِ حاولَ، من بابِ الجدل، أنْ يقول: إنَّ القيامةَ لا يمكن أنْ تكون قد وقعت، شيءٌ من هذا القبيل: (حسناً، عندما يموتُ الذين تُحِبُّهم، ففي بعضِ الأحيان ستعيشُ خبرةَ أنَّهم معكَ في الغرفة، يَبْتسمونَ لك، وربَّما حتَّىٰ يتحدَّثونَ إليك؛ وفجأةً سيختفونَ مرَّةً أُخرىٰ. ولعلَّ هذا ما حدَثَ لهؤلاءِ التلاميذ). وهذا صحيحٌ، إنِّني قرأْتُ بعضَ الأدبيات حولَ ذلك. هذه الظَّاهرةُ مُوثَّقةٌ كجُزءٍ من حالةِ الحُزْن، ويمكِنُكَ أنْ تُفسِّرَها كما يحلو لك. ولكن الكنيسةُ التي يُمثِّلُها (المسيحيون الأوائل يعرفون عن هذه الظَّاهرة كما نعرف). هم يعرفون جيِّداً أنَّ هناك شيئاً من هذا القبيل؛ هلوسة وأشباح أو رؤىٰ وما إلىٰ ذلك.

بعبارةٍ أُخرىٰ: إذا كانت لهؤلاءِ خبرة، حتَّىٰ لو بدَت واضحةً، بأنَّهم مع يسوع، لكن القبرُ لم يكن خالياً، كانوا سيقولون: (يا إلهي لقد كانت خبرةً قويَّةً جدًّا، لكن يسوع بالتأكيد لم يُبعَث من جسدٍ ميِّتٍ، لأنَّ أجسادَ الموتىٰ لا تُبعَث (إلىٰ أنْ تُبعَثَ كلُّ الأجسادِ الميِّتة في النِّهاية)، وعلىٰ أيِّ حال، ها هو جسَدُهُ في القبر).

عند هذه النُّقطة، نحن بحاجةٍ إلىٰ أنْ نُذكِّرَ أنفسَنا بالطريقةِ التي يدفن بها اليهودُ موتاهُم في تلك الأيّام. معظمُ اليهودِ في فلسطين في ذلك الزَّمان يدفنونَ موتاهُم علىٰ مرحلتين. في المرحلةِ الأُولىٰ، أنتَ تلُفُّ الميِّتَ بكفنٍ مع كمّيةٍ وافرةٍ من الطِّيب، ثمَّ تضعهُ في لَحْدٍ في قبرٍ صَخْري، أو حتَّىٰ تضعهُ في سردابِ منزل. أنتَ لا (تدفن) الميِّت علىٰ الطريقةِ التي يقومُ بها الناسُ في العالَمِ الغربي المعاصر، في قبرٍ محفورٍ في الأرضِ ويملأ، لأنَّكَ ستعودَ يوماً ما لجَمْعِ العِظَام بعدما يتحلَّل كلُّ الجسَد، لتضعَها في صندوقٍ وتحتفظ به إمَّا في نعشٍ أو في مكانٍ آخرَ ملائم.

---

(١) فيرجيل (٧٠ ق.م – ١٩ ق.م) شاعر روماني.

النُّقطةُ هنا هي، أنَّ جسَدَ يسوع لو كان موجوداً في القبر، لكان من السَّهلِ علىٰ التلاميذ أنْ يجدوه. ولكانوا قالوا: (رغمَ قوَّة هذه الهلاوس التي انتابَتْنا، إلَّا أنَّ جسدَهُ لم يُبعَث) (لوجودِ الجسد في القبر). لذا علينا كمُؤرِّخين أنْ نقول: إنَّ القبرَ واقعاً لا بدَّ أنَّه كان خالياً، وهم واقعاً لا بدَّ أنَّهم رأوه، أو قُلْ إنْ شئت: التقوا بشخصٍ ما اكتشفوا أنَّه هو يسوع، حتَّىٰ وإنْ بدأ أنَّه قد تحوَّلَ بنحوٍ غريبٍ بطريقٍ كان مثيراً بالنِّسبةِ إليهم وطريقٍ نجدُهُ نحنُ كقُرَّاء شديدَ الغموض.

والآن نأتي إلىٰ الحركةِ الأخيرةِ في مباراةِ الشَّطرنج. كيف يُمكِنُنا، كمُؤرِّخين، أنْ نُفسِّر الحقيقتين اللَّتين ذكرتُهُما: القبرَ الخالي والظُّهورَ المُتعدِّد ليسوع؟ التَّفسيرُ الأسهلُ لذلك، هو أنَّ هذه الأُمور قد حدثت لأنَّ يسوعَ بالفعل بُعِثَ من جسَدٍ ميِّتٍ، وأنَّ التلاميذَ قد التقوا واقعاً بيسوع، حتَّىٰ لو كان جسَدُهُ قد تمَّ تجديدُهُ وتحويلُهُ بنحوٍ كان بمقدورِهِ أنْ يبقىٰ معه حيَّاً في بُعْدينِ في آنٍ واحد (هذا، في الحقيقةِ، هو ربَّما الطَّريقُ الأفضلُ لفهمِ ظاهرة أنَّ يسوعَ الآن يعيشُ في بُعْدٍ إلهيٍّ وفينا، أو قُلْ إنْ شئت: في السَّماءِ وفي الأرض، في آنٍ واحد).

قيامةُ المسيح في الحقيقةِ تُزوِّدُنا بتفسيرٍ (مُرْضٍ) للقَبْرِ الخالي واللِّقاءاتِ المتعدِّدة مع يسوع. بعد اختبار كلِّ الفرضيات الأُخرىٰ الممكنة، أعتقدُ أنَّ هذا التَّفسير ليس ممكناً فحسب، بل (ضروريٌّ) أيضاً[1].

---

(١) التَّفسيرُ الأسهل والأكثر معقوليةً للقبرِ الخالي والظُّهور المُتعدِّد ليسوع، ليس هو قيامته، كما يدَّعي رايت، بل هذا هو التفسيرُ الأضعف والأبعد عن المعقولية، وإنْ لم يكن مستحيلاً علىٰ من يؤمن بقُدرةِ الله المطلقة علىٰ إحياءِ الموتىٰ. فإحياءُ الميِّتِ أمرٌ غيرُ مألوفٍ أبداً، والإثباتُ التاريخي لوقوع أمر غير مألوف، بحاجةٍ إلىٰ مؤونةٍ أكبر من الأدلَّةِ والشَّواهد، وفقاً لحسابِ الاحتمالات.

وفي تقديري هناك تفسيران أقرب وأكثر معقوليةً، فيما لو صحَّت تلك النُّقُولات:

التفسيرُ الأوَّل: أنَّ كلَّ من ادَّعىٰ رؤيةَ يسوع حيَّاً بعد حادثةِ الدَّفن، كان قد أُصيبَ بحالةٍ من الهلوسةِ والتوهُّم، وهي حالةٌ مألوفةٌ تماماً - وموثَّقةٌ عِلْمياً - تقعُ للإنسانِ عندما يفقدُ حبيباً ⇦

⇦ له ويشعُر برغبةٍ جامحةٍ في الالتقاءِ به. وتفسيرُ خُلُوِّ القبر من الجَسَد، أنَّه قد سُرِقَ من طرفٍ ما، فسرْقةُ الأجسادِ كانت عادةً مألوفةً.
هذا التفسيرُ ينسجمُ مع الايمانِ بأنَّ يسوع قد صُلِبَ فعلاً، وهو ما ذهَبَ له أغلبُ نُقَّاد العهد الجديد، ممَّن تجرَّدَ من الميولِ الإيمانية المُسْبقة.
التفسيرُ الثاني: أنَّ يسوع لم يُصلَب أصْلاً، وإنَّما صُلِبَ شخصٌ آخر، وتوهَّمَ بعضُ الشُّهود أنَّه هو يسوع، لذا ظَهَرَ لبعضِ مُحبِّيهِ حتَّىٰ يُثبِتَ لهم أنَّه ما زالَ علىٰ قيدِ الحياة، وأنَّه لم يكن هو الشَّخصَ المَصْلوب. وتفسيرُ خُلُوِّ القبر من الجسد، أنَّه قد سُرِقَ من طرفٍ ما من مصلحتِهِ أنْ لا ينكشِفَ أنَّ المصلوبَ المدفون لم يكن هو يسوع.
هذا التفسيرُ ينسجمُ مع ما ذكرَهُ القرآنُ بأنَّهم ﴿مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧).
وبعد دراسةِ التاريخ الرُّوماني، وعلاقة الرُّومان باليهود في الأرض المقدَّسة، المحتلَّة آنذاك من قِبَلِ الرُّومان، وعلاقة يسوع وتلامذته بالرُّومان، والاطِّلاع الدَّقيق علىٰ الأناجيل، أجِدُ أنَّ السِّيناريو الأقرب والأكثر معقوليةً - باختصارٍ شديد - هو أنَّ بيلاطُس (الحاكم الرُّوماني لأُورشليم) كان قد استبدلَ يسوع بشخصٍ آخر (بعدما اقتيد إلىٰ قَصْرِ الحكومة)، ثمَّ أظهرَهُ بهيئتِهِ، وأوهمَ اليهود بأنَّه هو، وقامَ بصَلْبِهِ، بعدما أُصيبَ اليهود بحالةٍ هستيريةٍ من الغَضَبِ علىٰ يسوع، حتَّىٰ إنَّهم هدَّدوا بيلاطُس بأنَّهم سيفضحونَهُ عند القيصر ويُشكِّكون بولائِهِ له إنْ لم يقم بصَلْبِ يسوع، بعدما اتَّهموا يسوع بأنَّه يدَّعي أنَّه ملِكُ اليهود (وهي تهمةٌ سياسيةٌ تنطوي علىٰ تحدٍّ خطيرٍ لسُلْطةِ القيصر)، ففعلَ بيلاطُس ما فعل كي يحمي نفسَهُ، وسلَّمَ الجسَدَ المَصْلوب ليوسُف الرَّامي (الذي كان من أعضاءِ مجلس السَّنهدرين اليهودي، وكان تلميذاً ليسوع في السِّرِّ)، فقامَ يوسُف الرَّامي بدفنِ جَسَد المصلوب. ثمَّ سرعانَ ما سحَبَ بيلاطُس الجسَدَ المصلوب من القبر (الذي كان محميَّاً من قِبَل جنودِهِ)، حتَّىٰ لا ينكشفَ أمرُهُ (وأمر يوسُف الرَّامي)، وأطلَقَ سراح يسوع خِفْيَةً، طالباً منه عدمَ إظهارَ نفسِهِ لأعدائِهِ.
فاستنقذَ بيلاطس نفسَهُ من كيدِ اليهود من ناحية، ولم يستجِب لرغباتِهم من ناحيةٍ ثانية، وأوهمَهُم بأنَّه قد نفَّذَ تلك الرَّغبات من ناحيةٍ ثالثة، فأطفأَ بذلك لهيبَ الغضب المشتعل في صُدُورهم كالمِرْجَل.
أمَّا مُحِبُّو يسوع، فبينَ مؤمنٍ بأنَّ الله قد (أنجاهُ) من اليهود بعدما ظَهَرَ لهم بلحمِهِ ودمِهِ (وكان قد أوصلَ إليهم خبرَ أنَّه سيسبقُهُم إلىٰ الجليل، لأنَّ أُورشليم باتت محلَّاً شديدَ الخطورة عليه)، وبينَ من توهَّمَ أنَّه (قام) من قبرِهِ، بعدما شاعَ صَلْبُهُ ووُجِدَ القبرُ خالياً. ولم يكن بمقدورِ الطائفة ⇦

⇦ الأُولىٰ تبديد وهم الطائفة الثانية، لأنَّ حال نجاة يسوع سينكشف لليهود، وسيعودُ مطلوباً لهم ما دامَ علىٰ قيدِ الحياة، وسيتمُّ وَضْع بيلاطُس ويوسف الرَّامي في وضعٍ حرجٍ للغاية، لذا اضطرُّوا للتكتُّم قدرَ الإمكان.

هذا التكتُّم أدَّىٰ إلىٰ سريانِ إشاعة قيامة يسوع. ولم يتمّ (رفع) يسوع إلَّا وكانت هذه الإشاعة قد أخذت مأخذَها (بعد أربعين يوماً، أُنظر أعمال الرُّسُل ١: ٣)، وبدأت تبلُغُ الذَّروة في مداها، ثمَّ صارت لاحقاً سبباً لاشتعالِ تعاطُفِ الناس مع مظلوميةِ يسوع، وتنفُّرهم الشَّديد من اليهود.

أمَّا رؤساء الكهنة والشُّيوخ اليهود، المُحرِّضون علىٰ قتلِ يسوع، فقد فوجئوا بسرْقةِ الجسد، لكن لم يكن بمقدورهم اتِّهام بيلاطُس (رغمَ ارتيابِهِم بتعاطُفِهِ مع يسوع)، لأنَّه في الظَّاهر نفَّذَ طلبَهُم، واستجابَ لهم بصَلْبِهِ، لذا اتَّهموا تلامذةَ يسوع بسرقةِ جسدِهِ، لتفسيرِ خلوِّ القبر من الجسدِ حفظاً لماءِ وجوهِهِم أمامَ قواعدهم الشَّعبية. ثمَّ صاروا علىٰ مرِّ التاريخ، يفتخرون بارتكابِهِم لجريمةٍ لم يُمكِّنهم اللهُ من ارتكابِها. والطَّريف أنَّهم صاروا وما زالوا يدفعونَ ثمناً باهظاً لتلك الجريمة! فظَهَرَ بذلك مكرُ الله باليهود علىٰ يدِ بيلاطُس بمعونةِ يوسف الرَّامي.

والآن طالما أنَّ اليهودَ قد استعانوا بالوثنيِّين (الرُّومان) للتخلُّصِ من يسوع الإسرائيلي، لذا قرَّرت السَّماء أنَّ الأوانَ قد حانَ لكَسْرِ القيد، ونَشْرِ الدَّعوة إلىٰ التوحيد في كلِّ أرجاء العالَمِ الوثني، وعلىٰ أوسعِ نطاق. لذا طَلَبَ يسوع من التلاميذ عندما رآهم أنْ يُبشِّروا الخليقة كلَّها بكلمة التوحيد ورسالتِهِ. وسرعانَ ما صارَ هذا العالَمُ الوثني (الرُّوماني وغيرُهُ) شجىً في حَلْقِ اليهود علىٰ مرِّ التاريخ.

أمَّا مهمَّة تبديد إشاعة قيامة يسوع، فلم تكن أولوية قصوىٰ بالنِّسبةِ إلىٰ التلاميذ الذين انتشروا في أرجاءِ العالَمِ للتَّبشير (فالمهمُّ هو أنَّ اللهَ تعالىٰ قد خلَّصَهُ من كيدِهِم)، لأنَّه لم يطرأ ببالِهِم أنْ تتطوَّرَ هذه الإشاعة وتتدحرج ككرةِ الثلج، خلالَ قَرْن أو قَرْنين، ليتمَّ تشييد لاهوت مسيحي علىٰ أساسِها، تحميهِ كنيسة، ينتهي إلىٰ التأليهِ والتَّثْليث. وإنَّما كانت الأولويةُ بالنسبةِ إليهم، بكلِّ عفوية، نَشْر كلمة التوحيد والتبشير برسالةِ المسيح.

أمَّا من هو المصلوبُ واقعاً، فهذا ما لا يمكنُ الجزْمُ به، وفقاً لمعطياتِ التاريخ، فمن قائلٍ: إنَّه سمعان القيرواني، وقائلٍ بأنَّه يهوذا الأسخريوطي، واللهُ تعالىٰ أعلم. (المراجع).

أنتوني فلو: تأمّلات ختامية

أنا معجبٌ جدّاً بمقاربةِ الأُسقُف رايت، فهي جديدةٌ تماماً[1]. إنَّه يعرضُ الموقفَ المسيحي كما لو كان شيئاً جديداً يُطرَحُ لأوَّلِ مرَّة. وهذا مهمٌّ جدّاً، خصوصاً في المملكةِ المتَّحدة، التي يكادُ الدِّينُ المسيحي أنْ يختفي منها. من المؤكَّدِ أنَّ هذا شيءٌ رائعٌ وراديكالي.

هل يمكن أنْ يكونَ هناك وحيٌّ مُقدَّس؟ كما قُلْتُ، لا يمكنك أنْ تحد من قدراتِ الإله الذي هو على كلِّ شيءٍ قدير إلَّا إذا كان ذلك مستحيلاً من الناحيةِ المنطقية[2]. كلُّ ما عدا ذلك هو مفتوحٌ أمامَ إلهٍ على كلِّ شيءٍ قدير.

* * *

---

(١) ظهر لك من التعليقات السابقة أنَّ مقاربة رايت زاخرة بالثغرات، وليست كما يصف (فلو). (المراجع).

(٢) من الجميل ربط (فلو) الوحي والنبوة العامَّة بقُدرةِ الإله. وهذا يُذكِّرُنا بقولهِ تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٩١). (المراجع).

Notes:

Chapter 1 :THE CREATION OF AN ATHEIST

1. G. E. M. Anscombe, The Collected Papers of G. E. M. Anscombe, vol. 2, Metaphysics and the Philosophy of Mind (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1981), x.

Chapter 2: WHERE THE EVIDENCE LEADS

1. Michael Dummett, Truth and Other Enigmas (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1978), 431.

2. I. M. Crombie, “The Possibility of Theological Statements,” in Faith and Logic, ed. Basil Mitchell (London: Allen & Unwin), 50.

3. Crombie, “The Possibility of Theological Statements,” 72 ,73.

4. Raeburne Heimbeck, Theology and Meaning (London: Allen & Unwin, 1969), 123 , 163.

5. Eric L. Mascall, The Openness of Being (Philadelphia: Westminster, 1971), 63.

6. J. L. Mackie, The Miracle of Theism (Oxford: Clarendon, 1982), 1.

7. Frederick C. Copleston, Philosophers and Philosophies (London: Search Press, 1976), 76.

8. Anthony Kenny, Faith and Reason (New York: Columbia University Press, 1983), 86.

9. Kai Nielsen, review of The Presumption of Atheism by Antony Flew, Religious Studies Review 3 (July 1977): 147.

Chapter 3: ATHEISM CALMLY CONSIDERED

1. Gerald Schroeder, "Has Science Discovered God?" http://science. lenicam.com.

2. Richard Dawkins, The Selfi sh Gene (New York: Oxford University Press, 1976), x.

Chapter 4: A PILGRIMAGE OF REASON

1. Albert Einstein, Out of My Later Years (New York: Philosophical Library, 1950), 58.

2. David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 74.

3. Conway, The Rediscovery of Wisdom, 2 – 3.

Chapter 5: WHO WROTE THE LAWS OF NATURE?

1. Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 174 , 175.

2. Gregory Benford, "Leaping the Abyss: Stephen Hawking on Black Holes, Unified Field Theory and Marilyn Monroe," Reason 4. 02 (April 2002): 29.

3. Albert Einstein, quoted in Timothy Ferris, Coming of Age in the Milky Way (New York: Morrow, 1988), 177.

4. Antony Flew, God and Philosophy (New York: Dell, 1966), 15.

5. Max Jammer, Einstein and Religion (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999), 44.

6. Jammer, Einstein and Religion, 45.

7. Jammer, Einstein and Religion, 45 – 46.

8. Jammer, Einstein and Religion, 48.

9. Jammer, Einstein and Religion, 150 .281.

10. Jammer, Einstein and Religion, 51.

11. Jammer, Einstein and Religion, 148.

12. Albert Einstein, Lettres a Maurice Solovine reproduits en facsimile et traduits en francais (Paris: Gauthier-Vilars, 1956), 102 – 3.

13. Albert Einstein, Ideas and Opinions, trans. Sonja Bargmann (New York: Dell, 1973), 49.

14. Einstein, Ideas and Opinions, 255.

15. Jammer, Einstein and Religion, 93.

16. Albert Einstein, The Quotable Einstein, ed. Alice Calaprice (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005), 195 – 6.

17. For the most part, these quotations are taken from Roy Abraham Varghese, The Wonder of the World (Fountain Hills, AZ: Tyr, 2003).

18. Werner Heisenberg, Across the Frontiers, trans. Peter Heath (San Francisco: Harper & Row, 1974), 213.

19. Werner Heisenberg, Physics and Beyond (San Francisco: Harper & Row, 1971), excerpted in Timothy Ferris, ed., The World Treasury of Physics, Astronomy and Mathematics (New York: Little, Brown, 1991), 826.

20. Erwin Schrödinger, My View of the World (Cambridge: Cambridge University Press, 1964), 93.

21. Max Planck, Where Is Science Going? trans. James Murphy (New York: Norton, 1977), 168.

22. Max Planck, quoted in Charles C. Gillespie, ed., Dictionary of Scientific Biography (New York: Scribner, 1975), 15.

23. Paul A. M. Dirac, "The Evolution of the Physicist's Picture of Nature," Scientifi c American 208, no. 5 (May 1963): 53.

24. Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 1809 – 1882, ed. Nora Barlow (London: Collins, 1958), 92 – 3.

25. Paul Davies, Templeton Prize Address, May 1995, http://aca. mq.edu.au/PaulDavies/prize_address.htm. See also Davies's "Where Do the Laws of Physics Come From?" (2006), http://www. ctnsstars.org/ conferences/ papers/Wheredothelawsofphysicscomefrom.doc.

26. John Barrow, Templeton Prize Address, March 15, 2006, http://www.templetonprize.org/barrow_statement.html.

27. John Foster, The Divine Lawmaker: Lectures on Induction, Laws of Nature and the Existence of God (Oxford: Clarendon, 2004), 160.

28. Richard Swinburne, “Design Defended,” Think (Spring 2004): 14.

29. Paul Davies, “What Happened Before the Big Bang?” in God for the 21st Century, ed. Russell Stannard (Philadelphia: Templeton Foundation Press, 2000).

Chapter 6: DID THE UNIVERSE KNOW WE WERE COMING?

1. Freeman J. Dyson, Disturbing the Universe (New York: Harper & Row, 1979), Also cited in John Barrow and Frank Tipler, The Anthropic Cosmological Principle (Oxford: Clarendon, 1988), 318.

2. John Leslie, Infi nite Minds (Oxford: Clarendon, 2001), 213.

3. Leslie, Infi nite Minds, 203 – 5.

4. Martin J. Rees, “Numerical Coincidences and ‘Tuning’ in Cosmology,” Astrophysics and Space Science 285 (2003): 376.

5. Rees, “Numerical Coincidences and ‘Tuning’ in Cosmology,” 385.

6. Paul Davies, “Universes Galore: Where Will It All End?” http://aca.

mq.edu.au/PaulDavies/publications/chapters/Universesgalore.pdf.

7. Richard Swinburne, “Design Defended,” Think (Spring 2004): 17.

8. Rees, “Numerical Coincidences and ‘Tuning’ in Cosmology,” 386.

9. Davies, “Universes Galore: Where Will It All End?”

10. Martin Rees, “Exploring Our Universe and Others,” in The

Frontiers of Space (New York: Scientifi c American, 2000), 87.

Chapter 7: HOW DID LIFE GO LIVE?

1. Antony Flew, God and Philosophy (Amherst, NY: Prometheus, 2005), 11.

2. Richard Cameron, "Aristotle on the Animate: Problems and Prospects," Bios: Epistemological and Philosophical Foundation of Life Sciences, Rome, February 23 – 24, 2006.

3. John Haldane, "Preface to the Second Edition," in Atheism and Theism (Great Debates in Philosophy), J. J. C. Smart and John Haldane (Oxford: Blackwell, 2003), 224.

4. David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 125 , 220

5. David Berlinski, "On the Origins of Life," Commentary (February 2006): 25, 30 – 31.

6. Carl Woese, "Translation: In Retrospect and Prospect," RNA (2001): 1056 , 1061 , 1064.

7. Paul Davies, "The Origin of Life II: How Did It Begin?" http://aca.
mq.edu.au/PaulDavies/publications/papers/OriginsOfLife_II.pdf.

8. Andy Knoll, PBS Nova interview, May 3, 2004.

9. Antonio Lazcano, "The Origins of Life," Natural History (February 2006).

10. John Maddox, What Remains to Be Discovered (New York: Touchstone, 1998), 252.

11. George Wald, “Life and Mind in the Universe,” in Cosmos, Bios, Theos, ed. Henry Margenau and Roy Abraham Varghese (La Salle, IL: Open Court, 1992), 218.

Chapter 8: DID SOMETHING COME FROM NOTHING?

1. “Something Good,” music and lyrics by Richard Rodgers, 1965.

2. Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 174.

3. Antony Flew, “Stephen Hawking and the Mind of God” (1996), http://www.infi dels.org/library/modern/antony_fl ew/ hawking.html.

4. Hawking, A Brief History of Time, 9.

5. Antony Flew, “The Legitimation of Factual Necessity,” in Faith, Scepticism and Personal Identity, ed. J. J. MacIntosh and H. A. Meynell (Alberta: University of Calgary Press, 1994), 111 – 17.

6. David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 111 – 12.

7. Richard Swinburne, The Existence of God (Oxford: Clarendon, 2004), 142.

8. Richard Swinburne, “The Limits of Explanation,” in

Explanation and Its Limits, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 178 – 79.

9. John Leslie, Infi nite Minds (Oxford: Clarendon, 2001), 194 – 95.

10. Stephen Hawking, Black Holes and Baby Universes (New York: Bantam, 1993), 172.

11. Leslie, Infi nite Minds, 193 – 94.

12. Swinburne, The Existence of God, 152.

Chapter 9: FINDING SPACE FOR GOD

1. John Gaskin, “Gods, Ghosts and Curious Persons,” unpublished paper.

2. Thomas F. Tracy, God, Action and Embodiment (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1984), 147, 153. See also The God Who Acts, ed.

Thomas F. Tracy (University Park: Pennsylvania State University Press, 1994).

3. Brian Leftow, personal conversation with the author, Oriel College, Oxford University, October 2006.

4. David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000, 134.

❊ ❊ ❊

الفهرست

مقدّمة المترجِم.......................... ٣
هناك إله: كيف غيَّر أشهر مُلِحد رأيه؟ ٥
مقدَّمة المؤلّف ٥
القسم الأوَّل: إنكاري للمقدَّس.................. ١١
الفصل الأوَّل: صناعةُ مُلْحِد......................... ١٣
صناعةُ مُلْحِد................................ ١٥
نظريةٌ في المآل (A THEORY OF DEVOLUTION) ١٧
وجهُ الشَّيطان (THE FACE OF EVIL) ١٩
مكانٌ مفعمٌ بالحيوية (AN ENORMOUSLY LIVELY PLACE)............. ٢١
أكسفورد مختلفة (A DIFFERENT OXFORD) ٢٤
الأصبوحات الفلسفية (WAXING PHILOSOPHIC) ٢٦
التَّصادُم مع لويس (LOCKING HORNS WITH LEWIS)....................... ٣٠
تطوُّرات إيجابية جدَّاً (HIGHLY POSITIVE DEVELOPMENTS).......... ٣٣
ما بعد أكسفورد (BEYOND OXFORD) ٣٥
الفصل الثاني: إلى حيثُ يقودُ الدَّليل؟ ٤١
الاكتشافات المبكِّرة ... والمواقف المحرجة (... EARLY EXPLORATIONS
AND EMBARRASSMENTS)............................. ٤٥
استكشافُ اهتماماتٍ جديدة (EXPLORING NEW INTERESTS) ٤٨
رؤية جديدة في الفَلْسفة (NEW INSIGHTS IN PHILOSOPHY) ٥١
تطوُّرات في الفَلْسفة (PROGRESS IN PHILOSOPHY) ٥٦

إعطاء اهتمام أكثر للإلحاد (PAYING MORE ATTENTION TO ATHEISM) ٥٩
التعلُّم من الاختلاف (LEARNING FROM DISAGREEMENT) ٦٣
الإله والفَلْسفة (GOD AND PHILOSOPHY) ٦٨
فرضيَّةُ الإلحاد (THE PRESUMPTION OF ATHEISM) ٧٤
تغييرُ وجهة نظري (CHANGING MY MIND) ٧٩
الفصل الثالث: إعادةُ النَّظَر في الإلحادِ بهدوء ٨٩
واجبٌ تجاهَ الحوار (A DUTY TO DIALOGUE) ٩٢
الاحتفاظ بأَسْلِحتي (STICKING TO MY GUNS) ٩٤
إطلاقُ نارٍ على زريبة (SHOOTOUT AT THE O.K. CORRAL) ٩٧
الاستمرارُ بسُرْعة (HOLDING FAST) ١٠١
ظهوري الأوَّل في نيويورك (MY NEW YORK DEBUT) ١٠٥
مبارزة مع دوكينز (DUELING WITH DAWKINS) ١٠٩
القسم الثاني: اكتشافي للمقدَّس ١١٣
الفصل الرابع: حَجُّ العَقْل ١١٥
وضْعُ الأوراق على الطَّاولة (LAYING THE CARDS ON THE TABLE) ..١٢١
التَّفكير كفيلسوف (THINKING AS A PHILOSOPHER) ١٢٣
عودةُ الحكمة (A RECOVERY OF WISDOM) ١٢٦
الفصل الخامس: مَنْ كَتَبَ قوانينَ الطَّبيعة؟ ١٢٩
من الذي كتَبَ كلَّ هذه الكُتُب؟ (A BRIEF HISTORY OF TIME) ١٣٤
عقلُ آينشتين المُتفوِّق (EINSTEIN'S "SUPERIOR MIND") ١٣٨
قفـزات كوانْتُميَّـة (جبَّـارة) نحـو الإلـه (QUANTUM LEAPS TOWARD GOD) ١٤٠

Notes ٣١١

قوانينُ مَنْ؟ (WHOSE LAWS ?) ١٤٥

صانع القوانين الإلهي (THE DIVINE LAWMAKER) ١٤٨

الفصل السادس: هل عَرَفَ الكونُ أنَّنا قادمون؟ ١٥١

كونُنا الدَّقيق (OUR FINELY TUNED UNIVERSE) ١٥٥

العبورُ إلى الكونِ المُتعِّدد (ACROSS THE MULTIVERSE) ١٥٨

نظرية البندقية متعدِّدة الاتِّجاهات (A BLUNDERBUSS THEORY) ١٦٠

الفصل السابع: كيف حدثت الحياة؟ ١٦٥

الكائنُ العُضْوي الهادف (THE PURPOSE-DRIVEN ORGANISM) ١٧٠

تحدٍّ تصوُّريٍّ عميق (A DEEP CONCEPTUAL CHALLENGE) ١٧٣

الرُّؤية من خلالِ زُجاجٍ مُعتِم (THROUGH A GLASS DARKLY) ١٧٧

الفصل الثامن: هل جاءَ شيءٌ ما من لا شيء؟ ١٨١

الكون النِّهائي (THE ULTIMATE UNIVERSE) ١٨٤

في البداية (IN THE BEGINNING) ١٨٧

إلى أنْ تحين البداية (UNTIL A BEGINNING COMES ALONG) ١٨٩

شيءٌ ما أكبر من أنْ يُفسِّرهُ العلْم (SOMETHING TOO BIG FOR SCIENCE TO EXPLAIN) ١٩١

الحاجة إلى عاملٍ إبداعي (THE NEED FOR A CREATIVE FACTOR) ١٩٤

حُجَّةٌ استقرائيةٌ جيِّدة (A GOOD C-INDUCTIVE ARGUMENT) ١٩٧

الفصل التاسع: إيجادُ مساحةٍ للإله ١٩٩

لا يوجد أحدٌ هناك (THERE'S NO ONE THERE) ٢٠٢

كمالُ الفاعِل (THE PERFECTION OF AGENCY) ٢٠٥

التجهيزات الواقعية للعالَم (THE REAL FURNITURE OF THE WORLD) ٢٠٧

إمكانية متماسكة (A COHERENT POSSIBILITY) ٢١١
الفصل العاشر: الطريقُ مفتوحٌ أمامَ إلهٍ كامل القدرة ٢١٣
منفتحٌ لتعلُّمِ المزيد (OPEN TO LEARNING MORE) ٢١٧
على استعدادٍ للتواصل (WILLING TO CONNECT) ٢١٨
الملاحق ٢٢١
الملحق الأوَّل: الإلحاد الجديد ٢٢٥
العقلانية (RATIONALITY) ٢٣٢
الحياة (LIFE) ٢٣٩
الوعي (CONSCIOSNESS) ٢٤٢
الفكر (THOUGHT) ٢٤٨
الذَّات (THE SELF) ٢٥٢
الأصلُ المتجاوزُ للمادَّة (فوق المادَّة) (THE ORIGIN OF THE SUPRAPHYSICAL) ٢٥٥
الملحق الثاني: الوحي الذَّاتي للإله في التاريخ البشري ٢٥٧
ردُّ نيكولاس توماس رايت (N. T. WRIGHT: RESPONSE) ٢٦٢
كيف نعرف أنَّ المسيحَ قد وُجِدَ؟ ٢٦٢
ما هي أُسُس الادِّعاء من النُّصوص بأنَّ المسيحَ هو الإلهُ المُتجسِّد؟ ٢٦٤
ما هي الأدلَّةُ المتوفِّرة على قيامةِ يسوع؟ ٢٧٣
أنتوني فلو: تأمّلات ختامية ٣٠٠
Notes ٣٠١
الفهرست ٣٠٩

* * *